# عمر ابن أبي ربيعة

وهو دراسة تحليلية في ثلاثة أجزاء تبحث في
عصره وحياته وشعره

## الجزء الأول

# عصر ابن أبي ربيعة


بقلم

جبرائيل سليمان جبور

أحد أساتذة الدائرة العربية في جامعة بيروت الأميركية



المطبعة الكاثوليكية . بيروت ١٩٣٥

## سلسلة العلوم الشرقية

(١) مجموعة الاصول العربية لتاريخ سورية في عهـد محمد علي باشا

للدكتور اسد رستم — المجلد الاول سنة ١٩٣٠

(٢) الاصول العربية ..... المجلد الثاني سنة ١٩٣١

(٣) الاصول العربية ..... المجلد الخامس سنة ١٩٣٣

(٤) امراء غسان لثيودور نولدكه . ترجمة الاستاذين بندلي جوزي

وقسطنطين زريق — سنة ١٩٣٣

(٥) الاصول العربية .... المجلد الثالث والرابع سنة ١٩٣٤

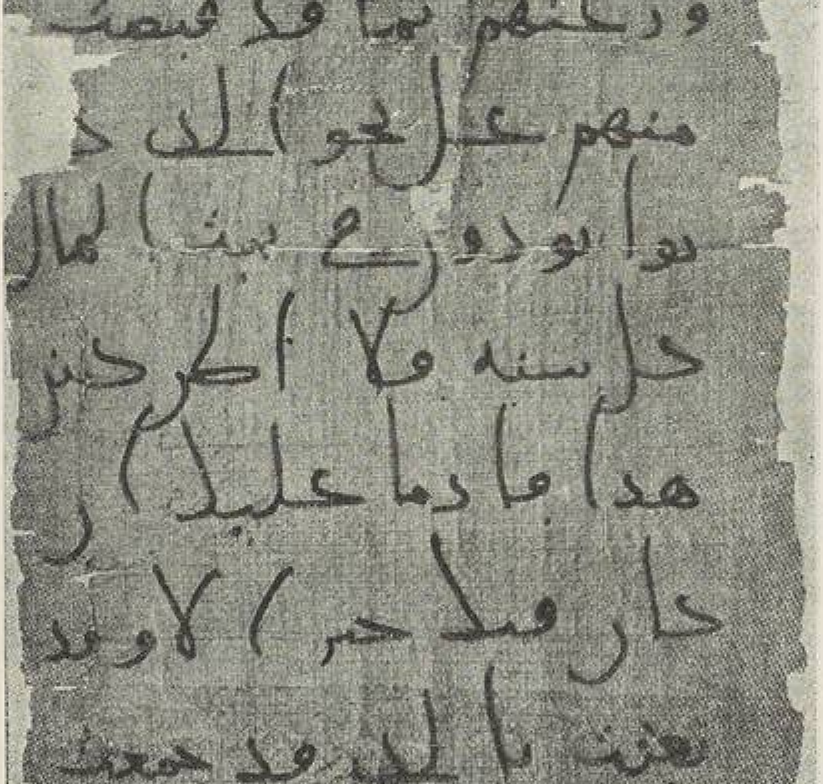
(٦) اليزيدية قديماً وحديثاً للامير اسماعيل جول . نشره الدكتور

قسطنطين زريق — سنة ١٩٣٤

# الجامعة الأميركية في بيروت

## منشورات كلية العلوم والآداب

سلسلة العلوم الشرقية : الحلقة السابعة



قطعة من رسالة على ورق البردي تمثّل الخط النسخي سنة ٩٠ هـ. (اواخر عصر ابن ابي ربيعة) وتُقرأ هكذا: قد جمعت من جزية كور[تك]واردت ان ارفق بهم واتجاوز عنهم بما قد قبضت منهم على نحو الذي [كا] نوا يؤدون في بيت المال كل سنة ولا اظن كتابي هذا قادماً عليك ان كان فيك خير الا وقد بعثت بالذي جمعت من جزية كورتك فا . .

انظر ص ١٣١ من كتابنا هـذا وراجع مقالة مورتز عن الخط العربي في الموسوعة الاسلامية تحت ARABIA ص ٢٨١

Jabbūr, Jibrā᾽īl Sulaimān.

# عمر ابن أبي ربيعة

وهو دراسة تحليلية في ثلاثة أجزاء تبحث في

عصره وحياته وشعره

الجزء الأول

## عصر ابن أبي ربيعة


بقلم

جبرائيل سليمان جبور

أحد أساتذة الدائرة العربية في جامعة بيروت الأميركية


---


المطبعة الكاثوليكية · بيروت ١٩٣٥


[1935]

# فهرس المحتويات

# المقدمة

لست اذكر متى كان اول عهدي بعمر ابن ابي ربيعة ، فقد عرفت بعض اخباره وحفظت بعض اشعار من زمن بعيد ؛ انما اذكر جيّداً ان الفصول القيّمة التي نشرها الدكتور طه حسين منذ نحو تسع سنوات في كتابه حديث الاربعاء عن طائفة من شعراء الغزل في العصر الاموي قد قرّبت عمر اليّ ، او قربتني الى عمر ، وحبّبت اليّ درس حياته وشعره.

وكان ان منحتني الجامعة منذ ست سنوات فرصة سنة مدرسيّة قضيتها في مصر ، وترددت الى بعض معاهدها العليا ، وتعرفت الى الاستاذين طه حسين واحمد امين ، وشهدت اكثر الدروس التي كانا يلقيانها على طلبة كلية الآداب.

ثم عرضت على الدكتور طه فكرتي في درس عمر فشجعني على ذاك ، وشرعت عندئذ في اعداد بعض موادّ هذا الكتاب ؛ ثم عدت الى الجامعة اتابع عملي في دائرة الدروس العربية والاحق درس هذا الموضوع.

ومنذ ذلك الحين وانا اعالجه ، وامنحه من اوقات فراغي ما استطعت ، حتى رضيت له ، فدفعته الى المطبعة اجزاء ثلاثةً ، هذا اولها بين يدي القارئ ، ولي الامل ان لا يفرغ منه حتى تكون المطبعة قد اخرجت الثاني.

ولقد قصرت هذا الجزء الاول على عصر الشاعر ، وحاولت فيه ان اتبيّن المشخصات التي تميّز هذا العصر من العصور الاخرى ، فدرست فيه حياة اهل ذلك الجيل من نواحٍ شتى ، سياسية ، واقتصادية ، واجتماعية ، وعلمية ودينية ، وادبية.

ولست انكر الصعوبة التي يلقاها الباحث في درس هذه الحقبة من تاريخ

العرب ؛ فان اكثر المآخذ التي يمكنه الرجوع او الاستناد اليها قد وضعت بعد منتصف القرن الثاني للهجرة ، اي بعد ان اديل من سطوة بني امية الى قوم كانوا من اشد الخصوم عليهم وابطشهم بهم ، اعني بني العباس ، فقد قهر هؤلاء بني امية في الشرق ، وسلبوا ملكهم ، وتربعوا على عرشهم . ودامت دولتهم طويلاً ، كتبت في غضون حكم رجالها اكثر كتب التاريخ العربي . وكان ان شايعها اكثر المؤرخين وهم تحت سلطانها رهبة منهم لها ، او تزلفاً لرجالها ، وتملقاً لهم ، والتماساً لعطاياهم ، فكادوا خصومها الامويين اهل الدولة السابقة ، ودسّوا عليهم من الشوائب والمفتريات ما شاءوا .

وكان من سوء طالع بني امية ايضاً ان وقعت اكثر الثورات الكبرى في تاريخ الاسلام مدة ملكهم ، فقد ناهضهم بنو هاشم ، وقاومهم عبد الله بن الزبير ، وناوأتهم الخوارج ، وثارت بهم المدينة ، وهاجت مكة ، واطلعت الفتن رؤوسها من العراق . وكان ان قهروا هذه الثورات والفتن بشيء من الشدة والعنف ، فحاربوا علياً ، وقتل عمالهم الحسين ، واستباحوا المدينة ، وفتحوا مكة ، وحملوا على الخوارج فضيقوا الخناق عليهم ، واخضعوا العراق وقتلوا مصعباً ، ومثلوا باخيه عبدالله ؛ فصار من الطبيعي بعد هذا الّا ينصفهم المؤرخون المتأخرون من اشياع هؤلاء الرجال ، او هذه الاقطار والاحزاب ، فلا هم سلموا — كما ترى — من اشياع بني العباس ، ولا هم نجوا من جماعة علي ، وآل الزبير ، والخوارج ، وغيرهم من الاحزاب .

واذاً ، فمن اللازم على الباحث — والحالة هذه — ان يتحفظ ويحتاط قبل الحكم على رجال هذه الدولة الاموية وعصرها ، وان يدقق في الاقوال التي تروى عنه للتثبت من صحتها او بطلانها .

غير ان هذا كله لا يمنع ان يكون بعض هؤلاء الزعماء من بني امية وغيرهم من ابناء اشراف الحجاز ، من هاشميين ومخزوميين وزبيريين وسواهم ، من خصوم واصحاب ، سلكوا — فيما يكاد يُجمع عليه المؤرخون — طرقاً غير تلك التي سنها لهم الاسلام ، فقد كانت هناك عوامل شتى ، اشرت الى بعضها في هذا الكتاب ، يسّرت لامثال هؤلاء سبلاً للهو والعبث .

ولقد جزت مراحل حياة اهل ذلك العصر السياسية بخطى سريعة ، علماً مني بان تفاصيلها الدقيقـة لا تعنينا كثيرًا في مثل هذا البحث ، فلم اعرض لشيء من هذه التفاصيل الا اذا كانت له علاقة بابن ابي ربيعـة ، او رهطه والجماعـة التي كانوا يشايعون ، غير اني اطلت شيئاً ما في درسي للحيـاة الاقتصادية ، لاسيما فيما يتعلق بالحجاز وطن صاحبنا . واوسعت في الكلام عن الحياة الاجتماعية فكانت اطول ابواب الكتاب ، بحثت فيهـا امر اثر الفيء الذي افاءه الله على الجزيرة ، والغناء الـذي نشره الارقاء والسبايا وغيرهم ، والشراب ، والنساء ، وغير ذلك . وخصصت باباً للحياتين العلمية والدينية . وعالجت الحياة الادبية في بضعة فصول كان آخرها خاتمة الكتاب .

ولا يفوتني قبل الفراغ من كلمتي هذه ان اسجل شكري للمرحوم الاستاذ داود قربان ، وللاستـاذ انيس الخوري المقدسي ، والدكتور اسد رستم ، والدكتور قسطنطين زريق ولجميع الذين آزروني في عملي هذا ادبياً او علمياً .

جبرائيل جبور

جامعة بيروت الاميركية

في ٨ ايار سنة ١٩٣٥

# توطئة

في الليلة التي طُعن فيها الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ، بخنجر مولى المغيرة ابن شعبة ، فيروز الفارسي النجار ، وضعت بمكّة ، فيما ذكر الرواة ، امرأة من حمير ، يقال انها سبيّة ، لصحابي قرشي كريم من آل مخزوم ، طفلا سمّي باسم الخليفة المقتول وكني بكنيته : هو عمر ابو الخطاب ابن عبدالله بن ابي ربيعة المخزومي[1].

ونشا هذا القرشي الصغير ، وشبّ ، فاذا به شاعر قريش الذي لا ينازع ، رووا « ان العرب كانت تقر لقريش بالتقدم في كل شيء. الا في الشعر ، فانها كانت لا تقر لها به ، حتى كان عمر بن ابي ربيعة ، فاقرّت لها الشعراء بالشعر ايضاً ، ولم تنازعها شيئاً . »[2]

ولم يكن عمر شاعر قريش فحسب ، بل كان شاعر الحجاز في عصره في الغزل[3] ، حمل لواء الشعر الغزلي ، ونشره ينشد الحبّ والجمال ، وسار وراءه الشعراء الغزلون يقتفون آثاره ، فكان زعيمهم ، وكان امامهم ، وكانت مدرسة غزلية ، خلّفت في الادب العربي اثرًا قيّماً ، وحفظت للاجيال تراثاً عظيماً .

---

١) الاصبهاني ١ : ٣٤ وابن خلّكان ١ : ٥٢٩ و ٢ : ١٥٩ والبغدادي ١ : ٢٤٠ والعيني ١ : ٢١٥ والدّميري ١ : ٢٢٦

٢) الاصبهاني ١ : ٣٥

٣) يذهب طه حسين في كتابه «حديث الاربعاء» الى ابعد من هذا ، فيزعم ان عمر زعيم الغزلين على الاطلاق ، قال : « فعمر اذن زعيم الغزلين الامويين جميعًا لا نستثني منهم احدًا ، ولا نفرق فيهم بين اهل البادية واهل الحاضرة ، بل نحن نذهب الى ابعد من هذا ، فنزعم ان عمر بن ابي ربيعة زعيم الغزلين في الادب العربي كله على اختلاف ظروفه وتباين اطواره منذ كان الشعر العربي الى الآن ٢ : ١٢٧

ومن غريب الصدف ، ان تبدأ حياة هذا الشاعر حين استلام البيت الاموي زمام أمر المسلمين ، اي حين تولى الخلافة عثمان بن عفان الاموي ، بعد موت عمر بن الخطاب ، ثم يقع اول شبابه عند تغلب معاوية على خصومه الهاشميين ، اي حين انتزع الخلافة من ايديهم ، واسس دولةً قويّة لبني امية في دمشق ، جعلها ملكاً له ولبنيه ، ويستمر شباب هذا الشاعر مدة شباب هذه الدولة ، فيعاصر معاوية مدة سلطانه ، ثم يؤرخ موته ، في اواخر القرن الاول للهجرة ، ازهى عصر فيما نرى ، عرفته الامة العربية منذ عرفت في التاريخ حتى هذه الساعة . كان لها في هذا العصر

شرفٌ يُطلحُ السماء برَوْقَيْه وعزٌّ يُقلقـل الاجبالا

كان لها جند ، في اسبانية ، يتحدّر الى اوربة ، وكتائب تجوب مجاهل الهند ، وصوائف وشوات تهدّد بيزنطة معقل الروم .

وجدير بنا الآن ، ان نلقي نظرة عجلى على هذا العصر ، قبل التعرض لشاعرنا ، علّنا نستطيع فهم شيء عن الجوّ الذي عاش فيه ، والحياة التي كان يحياها شباب العرب من معاصريه ، فلقد كان هذا العصر الذي وجد فيه عمر بن ابي ربيعة ، عصر تطوّر سريع ، وانقلاب غريب ، دفعا بالامة العربية من عزلتها في جزيرتها القاحلة الجدباء ، فخرجت منها ، واشتبكت مع امم اخرى لا تزال مرتبطة مع بعضها حتى اليوم .

ولقد بدأ هذا التطور قبل مولد صاحبنا بنحو ربع قرن ، ذلك انه قد ظهر في هذه الجزيرة نبي عربي ، يدعو الى دين جديد ، هو الاسلام ، فالتفّت حوله بمكة جماعة تشد ازره ، ثم ما لبثت ان خوصمت ، ثم اضطهدت ، فهاجرت الى المدينة ، وهناك في يثرب نوصرت ، فاذا بها جيش كثيف ينقضّ كالصاعقة على مكة ، البلد الذي رفض النبيّ ، فيخضعها ، واذا بالجماعة دولة ، تبعث جندها في اطراف الارض فتخضع الشرق والغرب ، وتغلب الفرس والروم ، في ادنى الارض وفي اقصاها وتبسط ظلّها على كثير من ممالك العالم ، فيخيّم غرباً على شمالي افريقية كلها ، والاندلس ، وبعض فرنسة ، وينتشر شرقاً حتى قلب السند والهند ، ويذهب جنوباً فلا يوقفه الا المحيط الخضمّ ، ويندفع شمالاً حتى تكاد

تطأ سنابك خيل الفاتحين عاصمة هرقل ! كل ذلك بمدة لا تزيد عن قرن ، ملأوه فتحاً ونصراً واترعوه ادباً وديناً ، فكان لهذه الدولة الفتية ، جند رابض عند اسوار بيزنطة ، وفي حدود تور ، وجباة يجبون خراج الاراضي المحتلة من شمالي افريقية حتى شرقي فارس ، وكان لها قراء يتلون آيات قرآنها في اقصى الشرق عند حدود الهند ، وشعراء غزلون يتغنون ببدائع منظوم شعرها في قلب الجزيرة ، فيتردد صدى اصواتهم في طليطلة وعلى حدود بيزنطة وسمرقند ، وفي مصر وفارس والشام.

وكان هذا التطور جدّ سريع . فقد كان هذا العصر ، على الفتوحات التي وقعت فيه ، عصر احزاب واضطرابات ، عصر فتن اهلية ، وثورات داخلية ، كانت تندلع السنة نارها بين الحقبة والاخرى ، ويشتد لهيبها ، حتى يكاد يلتهم جسم الدولة . تندلع من الحجاز ، ومن اليمن ، ومن العراق ، حتى يوشك ان يحرق لهبها الشام.

ومن الغريب ، ان هذا العصر قد كان على فتوحاته ، وعلى فتنه وثوراته ، عصر لهو ودعابة ومجون ، لاسيا في الحجاز ، في بلد النبي العربي ، وفي دار هجرته ، حيث ولد شاعرنا ، وحيث شبّ ونشأ ، رفعت فيه للهو راية ، حملها ابناء الاشراف من اولاد الصحابة واحفادهم ، من مهاجرين وانصار وغيرهم ، وقد شجعهم على ذلك بعض الخلفاء والامراء انفسهم ، فضربوا بتعاليم الدين الجديد جانباً ، واعرضوا عن شرائعه ، وخرجوا عن جادّة وصاياه

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا انيسٌ ولم يَسْمَر بمكّة سامرُ

وكان لهذه التطورات المختلفة ، اثر كبير في حياة ابناء ذلك الجيل ، لاسيا الحجازيين ، وبنوع خاص اشراف الحجاز ، نتج عنه تطوّر في الادب. وسنحاول الآن درس هذه التطورات ، علنا نستطيع ان نلمّ ببعضها ، ونتلمس آثارها.

# الحياة السياسية

وربما كان رجوع السلطة الى بني امية ، اول ما يجب ان نلتفت اليه ، ولعل القارئ لا يجهل ، ان هذا البيت الاموي ، كان اشدّ بيوت قريش معارضة للدعوة الجديدة — الاسلام — خاصمها ، لانها حاولت ان تنقص من سطوته في مكة ، وزعامته في قريش ، ولانها كادت تسد في وجهه بعض سبل الرزق ، او الربح ، الذي كان يجنيه من العرب ، زوّار الكعبة قبل الاسلام ، فلقد ظل هذا البيت في معارضته للاسلام ، ولمحمد وجماعته ، حتى اجلوهم عن مكة ، وحتى استطاع النبي ان يجد من اهل المدينة انصاراً له ، فيؤلف منهم بعد ثماني سنوات من هجرته ومن الذين هاجروا معه جيشاً قوياً ، انقض به على مكة ، فسقطت تحت قدميه .

### ابو سفيان زعيم المعارضة

ولم يرَ ابو سفيان ، رئيس هذا البيت الاموي وزعيم المعارضة ، امامه ، الا واحداً من سبيلين ، اما متابعة الحرب واعلان الخصومة حتى النهاية ، والمرجح فيهما هلاكه وهلاك بيته وحزبه ، او الاستسلام ، وقبول الاسلام ، قبول الامر الذي لا بدّ منه .

واحبّ ابو سفيان الحياة ، وآثر البقاء ، فاعتنق هو وحزبه هذا الدين الجديد ، ولعلهم لم يفتهم ان يترقبوا الفرص لاستعادة شيء من سلطتهم وزعامتهم ، وكان النبي جدّ حكيم ، فتألف قلوبهم ، ثم مات النبي ، واستُخلِف ابوبكر ، فاشتركوا مع المسلمين في حروب اهل الردّة ، وفتوح البلدان ، فكان منهم قوّاد ، وكان منهم امراء ، حتى كانت خلافة عثمان بن عفان الاموي ، واذا بالفرصة سانحة ، واذا بالخليفة من بيتهم .

## عثمان بن عفان اول خليفة اموي

وكان عثمان من الرعيل الاول في قبول الاسلام ، وكان قد سبق قومه بني امية في اعتناق الدين الجديد ، فقد اسلم قبل الهجرة ، وتعرّض لسخطهم ، غير انهم، بعد ان أسلموا ، راوا في خلافته مطيّة لاغراضهم ، ورأوا في شخصه ليناً وتساهلاً معهم ، فكان منهم ، فيما يذهب اليه اكثر المؤرخين ، عدد كبير من عمّال الدولة وولاتها ، ويُروى انه قيل لعبد الرحمن بن عوف ، وكان ذا اثر عظيم في انتخابه ورفعه الى كرسي الخلافة : هذا كله فعلك ، فقال : لم اظنّ هذا به ، لكن لله عليّ ان لا اكلمه ابدًا . ومات عبد الرحمن وهو مهاجر لعثمان ، ودخل عليه عثمان عائدًا في مرضه ، فتحوّل الى الحائط ، ولم يكلمه[1] .

ولعل القارئ لاحظ اننا جعلنا خلافة عثمان هذا ، اول الحكم الاموي ، وقد جرى اكثر المؤرخين على ان معاوية هو مؤسس سلطة بني امية ، ضاربين صفحاً عن خلافة عثمان ، لانه من الخلفاء الراشدين . ومهما يكن من الامر ، فليس من شك في ان البيت الاموي ، مدة خلافة عثمان ، كان القابض على زمام الاحكام في اكثر اجزاء الدولة ، منهم الخليفة ، ومنهم الطائفة الكبرى من العمال والولاة[2] .

## استسلامه لخطة آل بيته

واستسلم عثمان لخطة آل بيته ، رووا انه ابتنى البيوت ، وامتلك القرى والمزارع ، وآثر اقرباءه ، فاعطاهم الاموال ، واقطعهم الضياع[3] . وذكروا انه اقطع مروان ابن عمه ارض فدك ، وكانت صدقة ، وبقيت بيد آل مروان حتى خلافة عمر بن عبد العزيز ، فردّها صدقةً كما كانت[4] . وزعموا انه عزل الولاة ، وأمّر صغار اهله على جلّة الاكابر من الصحابة ورجال الاسلام ، وتناول

١) ابن عبد ربه ٢ : ٢٧٢ وابو الفداء ١ : ١٧٥

٢) المسعودي ٤ : ٢٥٧

٣) اليعقوبي ٢ : ١٩١ وابن عبد ربه ١ : ٢٤٧

٤) البلاذري ٣٠ و٣١

مال الفيء ، ففرقه عليهم ، وذكروا انه اعطى مروان المذكور خمس غنائم افريقية ـــ نصف مليون دينار ـــ فسخط الناس ، وقال عبد الرحمن الكندي :

ساحلف بالله جهد اليمين    ما ترك الله امرًا سدى
ولكن خلقت لنا فتنة    لكي نبتلى بك او تبتلى
فان الامينين قد بيّنا    منار الطريق عليه الهدى
فما اخذا درهمًا غيلةً    وما جعلا درهمًا في الهوى
دعوت اللعين فادنيته    خلافًا لسنّة من قد مضى
واعطيت مروان خمس العباد م ظلمًا لهم وحميت الحمى [١]

وتوسع المسلمون في فتوحاتهم مدة خلافة عثمان ، ففتحوا قسماً كبيرًا من شمالي افريقية[٢] ، على يد عبد الله بن سعد بن ابي سرح ، اخي عثمان للرضاعة[٣] . وفتح معاوية جزءًا كبيرًا من ارمينية[٤] . وتوغل شرقاً ، قواد متعددون ، ففتحوا فارس وخراسان ونواحيهما[٤] . ويذكر البلاذري ان عثمان ارسل الى عامله في العراق ، يأمر ان يوجه الى ثغر الهند من يعلم علمه[٥] . وفتح معاوية قبرص[٦] . وغنموا مالًا كثيرًا من كل هذه البلدان التي فتحوها .

واستمر عثمان في خلافته نحو اثنتي عشرة سنة ، استرد الامويون اثناءها شيئاً من سلطتهم قبل الاسلام ، وعاشوا هنيئاً على تلك الاموال التي افاءها الله على الدولة ، حتى انهم امتلكوا المزارع ، وكنزوا الذهب ، وخزنوا الاموال[٧] . بل كان هناك من اتهمه باكثر من هذا ، فقد ورد في خطبة عبيدة بن هلال ، امام عبد الله بن الزبير ، يوم وفد عليه مع نافع بن الازرق ، ان نافعاً ، قال لعبيدة : صف لهذا ( يعني لعبد الله بن الزبير ) امرنا الذي نحن عليه ، والذي ندعو الناس اليه . فخطب مستعرضاً امرهم ، وامر الخلفاء السابقين ، حتى بلغ عثمان ، فقال : « ثم ان الناس استخلفوا عثمان بن عفان ، فحمى الاحماء ، فآثر

١) الطبري I : ٢٨١٨ وابن عبد ربه ٢ : ٢٧٣ وابو الفدا ١ : ١٧٨
٢) الطبري I : ٢٨١٠
٣) البلاذري ١٩٨
٤) البلاذري ٤٠٢-٤٠٨
٥) البلاذري ٤٣٢
٦) الطبري II : ٢٠٥
٧) الطبري I : ٢٨٢٥ و٢٨٦٠ وابن عبد ربه ٢ : ٢٧٣ والسيوطي ٦٠

القربى واستعمل الفتى ، ورفع الـدرة ، ووضع السوط ، ومزق الكتاب ، وحقر المسلم ، وضرب منكري الجور ، وآوى طريد الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، وضرب السابقين بالفضل ، وسيّرهم ، وحرمهم ، ثم اخذ فيْ الله الذي افاءه عليهم ، فقسمه بين فساق قريش ومجّان العرب »[١].

## الفتنة زمن عثمان

وازدادت عوامل السخط على حكومة عثمان . وتحرك الهاشميون وغيرهم من مهاجرين وانصار ، كانوا اقدم عهداً بهذا الاسلام من الامويين ، واكثر اثراً فيه ، واحسن مساعدةً للنبي منهم ، فكانت الفتنة الاولى . وقتل الخليفة عثمان . وتقلصت سطوة بني امية في الحجاز .

## معاوية يطلب بثأر عثمان

وكان معاوية في الشام ، فـانبرى يصرخ من هناك : يا لثارات عثمان[٢] . وكانت فتن وحروب اهلية ، كادت تهدّ دعائم الوحدة التي ثبّتها النبي والخليفتان ، وكان الجرح العميق الذي مرّت عليه القرون ولم يلتئم . روى ابن عبد ربه ، قال : « كان ثمامة الانصاري عاملاً لعثمان ، فلما اتاه قتله ، بكى ، وقال : اليوم انتزعت خلافة النبوّة من امة محمد ، وصار الملك بالسيف ، فمن غلب على شيء أكله . »[٢]

---

١) الطبري II : ٥١٦

٢) قال حسان بن ثابت في قتل عثمان :

ضحّوا باشمطَ عنوان السجود به ... يقطّع الليـل تسبيحاً وقرآنـا

لتسمعنّ وشيكاً في ديـارهم ... الله اكبرُ يا ثاراتِ عثمانـا

ابن عبد ربه ٢ : ٢٧٢

وراجع ايضاً حسان بن ثابت ٢٢ والمسعودي ٤ : ٢٨٥ وابن عبد ربه ٤ : ٣٢٦

وقد ذكر ابن عبد ربه والسيوطي ، ان معاوية كان يحاور ابا الطفيل ، وينعى عليه عدم نصرته لعثمان ، فردّ عليه قائلاً : انت وعثمان ، كما قال الشاعر :

لالفينّك بعد الموت تطلبني ... وفي حياتيَ ما زوّدتني زادا

ابن عبد ربه ٢ : ١٤٤ والسيوطي ٧٧

## خلافة علي وثورة عائشة

وبويع لعلي بالخلافة في الحجاز ، فثارت عليه عائشة ، وثار عليه الزبير وطلحة. وكانت واقعة الجمل التي يروي البعض ان صاحبنا عمر نظم شعراً في رثاء قتلاها كما سيجيء . واخمد علي الثورة.

## اهل الشام واهل الحجاز

ثم نشب النزاع بينه وبين معاوية ، او ان شئت فقل بين اهل الحجاز والعراق ، وبين اهل الشام. ذلك ان كثيراً من العرب اخذوا يشعرون بعصبية جديدة، هي عصبية الاقليم الذي استقروا فيه ، فالذين حلوا الشام واستوطنوها، صاروا شاميين ، وشعروا ان وطنهم الشام ، وكذلك شعر الذين نزلوا العراق ، وكذلك احسّ من بقي في الحجاز ، ولم ترَ هذه الجماعات بأساً في ان تلتفَّ كل منها حول زعيم من اقليمها ، وتسعى في ان تكون لها وحدة سياسية مستقلة عن غيرها من الوحدات ، وربما ذهبت هذه الجماعات في هذه البقاع المختلفة ، الى ابعد من الاكتفاء بوحداتها ، فسعت لان تتنازع ، الواحدة مع الاخرى ، وكانت الخصومة صريحة ظاهرة ، ولعلنا نعود الى بحثها في غير هذا الموضع.

## بنو امية واهل الشام

ويظهر ان الامويين عرفوا كيف يستغلون هذه الظاهرة ، ويستعينون بها . فقد كتب معاوية الى علي في امر اختلافهما ، في بعض كتبه اليه :« وقد ابى اهل الشام الا قتالك ، حتى تدفع لهم قتلة عثمان ، فان فعلت كانت شورى بين المسلمين ، وانما كان الحجازيون هم الحكام على الناس ، والحق فيهم ، فلما فارقوه ، كان الحكام على الناس اهل الشام[1] . » وقال له في الكتاب نفسه : « ولعمري ، ما حجتك على اهل الشام ، كحجتك على اهل البصرة[2] .» وتغلبت سياسة معاوية على سياسة علي ، وخرجت على هذا الخوارج ، فرجع الى العراق

---

١) ابن عبد ربه ٢ : ٢٨٤ ٢) ابن عبد ربه ٢ : ٢٨٤

يحاربها ، وقُتل في الكوفة ، فبويع للحسن ابنه بعده ؛ واستطاع معاوية ان يحمل الحسن على مصالحته ومبايعته .

وقد استعان بنو امية باهل الشام ، في نزاعهم مع خصومهم من اهل الاقطار الاخرى ، واستطاع معاوية بقوة اهل الشام ، ان يثبت ملكاً لبني امية في دمشق ، وان يخضع الاقطار الثائرة ، ويخمد الفتن التي كانت تنشب فيها ، ويقضي على سلطة الهاشميين وغيرهم من المهاجرين والانصار حتى في قلب الحجاز ، وكان اذا اظهرت الفتنة رأسها ، قطعه بالدهاء والحيلة ، او خنقه بالمال ، وكان يخنق معه شيئاً من الحرية الاجتماعية والسياسية[1] .

واستقام الامر لمعاوية ، واستتب الامن ، حتى روي ان زياداً ، عامله على العراق ، كان يقول : « لو ضاع حبلٌ بيني وبين خراسان ، عرفت من اخذ به[2] . » وهكذا ، في مدة لا تزيد عن نصف قرن ، تمّ لهذه الامة العربية ما لم يتم لغيرها في اجيال ، قهرت المرتدين ، واستعمرت الامصار ، وأسست نظاماً جديداً لهذه المملكة الكبرى .

## في ظل معاوية

واتيح لهذه الامة ، بعد هذا التطور السريع ، ان تستريح نحو عشرين عاماً ، في ظل معاوية ، رجل قريش ، في ما ارى ، بعد محمد ، وكانت هذه العشرون سنة نفسها ، سني شباب صاحبنا الشاعر المخزومي عمر . ذلك الشباب الذي قضاه بين مكة والطائف والمدينة ، يسلك سبل اللهو وراء الغانيات في مواسم الحج ، وفيضان العقيق ، ومتنزهات الطائف ، ثم ينشد ذلك اللهو اشعاراً ، تبعث في الحجاز فيرن صداها في خراسان والشام ، وكان في هذا العهد نفسه ، حبه ، وشعره في المحبوبة التي اشتهر بها وعرفت به – الثريا – التي تعرفها كتب الادب بصاحبة عمر[3] او تذكر اسمه مقروناً بذكرها . والتي قضي عليها ان تتزوج من

١) الطبري II : ٨٨ و٨٩ و٩٠ و٩٦ و١٤٤ وابن عبد ربه ٢ : ٣٠٢

٢) ابن عبد ربه ٣ : ٤

٣) الاصبهاني ١٠ : ١٠٢ و١ : ٨٥ و٢ : ١٢٩ وابن خلكان ١ : ٥٢٨

غيره ، فيحرم منها فما تزفّ الى بعلها سهيل حتى تطير ابيات عمر فيهما في الآفاق

ايها المنكحُ الثريّا سهيلًا   عمركَ اللهَ كيف يلتقيانِ
هي شاميّة اذا ما استقلّت   وسهيل اذا استقلّ يمانِ (١

## يزيد بن معاوية

ومات معاوية بعد ان مكّن لابنه يزيد من الخلافة ، فتولاها هذا بعده .
ثم لم يكد يعتلي يزيد عرش المملكة ، حتى اظهرت الفتنة رأسها من جديد ، فاضطربت البلاد العربية ، لاسيا الحجاز ، وعمّ الاختلاف .

## اختلاف كلمة المسلمين

وقد ظهر هذا الاضطراب باشكال مختلفة ، فقد ثار الحسين ، وهبّ الى العراق ، فقطعت عليه الطرق ، وسدّت بوجهه السبل ، ثم قتله رجال بني امية ، وحملوا رأسه الى يزيد . وثارت المدينة ، واجلت الامويين ، فسيّر اليها قائده مسلم بن عقبة ، وكانت كلمته اليه بشأنهم ، فيما يظهر من كلام الرواة ، العنف والشدة ، السيف والمنجنيق ، حتى يبايعوا على انهم خولة ليزيد ، بن معاوية ، يحكم في دمائهم واموالهم واهليهم ما شاء[٢] . وتحركت مكة وقد ثار فيها عبد الله بن الزبير ، فحوصرت ، ورمي البيت الحرام بالمنجنيق ، واحترقت الكعبة ، وقضى الله ان يموت يزيد قبل تحقيق كل احلامه ، فعادت الفتن في العراق والحجاز واليمامة ، وقويت الثورة على بني امية ، واشتد الاضطراب ، وتعددت الوانه ، حتى اختلف بنو امية فيما بينهم ، واختلفت القبائل العربية الموالية لهم فيما بينها ، واندلعت نار الشقاق بين القيسيين واليمنيين ، وانفصمت عرى الوحدة العربية في سائر الاقطار :

وتفرقوا شيعاً فكل جزيرة   فيها امير المؤمنين ومنبرُ

---

١) ابن ابي ربيعة ( ش ) ق ٤٢٩ و( ع ) ٥٨٦ والمبرّد ١ : ٢٢٣ والاصبهاني ١ : ٩٢ وابن خلّكان ١ : ٥٢٨ والنووي ٤٦١ وابن قتيبة ٣٥٢

٢) الطبري II : ٤٠٩ و ٤٢٠ وراجع ايضاً من الجزء نفسه ٤٢٢

روى الطبري انه في سنة ٦٨ هـ. وافت عرفات اربعة الوية ، واحد لابن الحنفية ، وآخر لابن الزبير ، وثالث لنجدة الحروري ، ورابع لبني امية[١].

### معاوية بن يزيد ومروان بن الحكم

وبويع لمعاوية بن يزيد ، فلم يمكث في خلافته طويلاً حتى مات. واستطاع مروان بعده ان يقهر القيسيين الذين كان هواهم مع ابن الزبير ، ثم مات.

### عبد الملك بن مروان وعمرو بن سعيد

فقام بعد مروان ، ابنه عبد الملك ، وفتك بعمرو بن سعيد ، مناوئه على الزعامة ، فقتله غدراً[٢]. وضعفت قوة العرب في الشام ، حتى ثارت الروم ، واستجاشوا على من بالشام من المسلمين ، فاضطر عبد الملك ان يصالح ملك الروم ، على ان يؤدي اليه كل جمعة الف دينار ، خوفاً منه على المسلمين[٣].

### عبد الله بن الزبير خليفة في الحجاز

وقوي امر عبد الله بن الزبير في الحجاز والعراق ، بعد ان بويع له بالخلافة فيهما ، فكانت مكة مركز خلافته ، وكان من اعوانه نفر من بني مخزوم ، منهم الحارث بن ابي ربيعة اخو شاعرنا عمر ، فقد ولاه ابن الزبير بعض العراق ، والتف اكثر المخزوميين حول ابن الزبير. وبقيت الخوارج تعيث في العراق ، رغم ان الحارث هذا استطاع مرة ان يجليهم عن اراضي الكوفة كلها[٤].

### المختار

وظهر المختار ، فقام بثورته المشهورة في العراق ، وقوي نفوذه بالكوفة ، فغلب عليها بينما كان الحارث في البصرة ، واعلن انه يتجرد للانتقام لبعض من اوذوا في سبيل بيت علي ، وللاخذ بالثأر من قتلة الحسين ، فقتل البعض ، وعذب البعض الآخر ، وبلغه مسير عبيد الله بن زياد اليه ، من قبل بني امية ، فسيّر

١) الطبري II: ٧٨٣
٢) الطبري II: ٧٩١
٣) الطبري II: ٧٩٦
٤) الطبري II: ٧٦١

لملاقاته ابن الاشتر ، وكانت معركة خازر في ارض الموصل وقتل ابن زياد وهزمت اصحابه[١] .

## مصعب بن الزبير

وعيّن عبد الله بن الزبير اخاه مصعباً على العراق كله ، فاستعان هذا بالحارث وعيّنه على الكوفة ، وتغلّب مصعب على المختار ، وامر بقتل امرأة المختار الانصارية التي ابت ان تقول في زوجها الا خيراً . وهنا نسمع بصاحبنا عمر ، كأن لم يكن في كل تلك المعارك الدامية ما يثير بنفسه الشعر ، حتى قتلت هذه المرأة الجميلة فتناول ذلك في شعره وقال :

ان من اعظم الكبائر عندي قتلَ حسناء غادةٍ عطبولِ
قُتلت باطلاً على غير ذنب ان لله درَّها من قتيل
كُتب القتلُ والقتالُ علينا وعلى المحصَنات جرُّ الذيول [٢]

ثم تغلب مصعب على ثائر آخر يدعى عبيد الله بن الحر . ودانت العراق له ، وكان شجاعاً ذا بأس وحزم وشدة ، زعموا انه قال لاهل البصرة في خطبته عندما قدم عليهم : يا اهل البصرة ، بلغني انكم تلقبون امراءكم ، وقد سميت نفسي الجزّار[٣] .

## عبد الملك يقمع الثورة

ولم تسترح هذه الامة العربية مرة ثانية ، حتى كان عبد الملك بن مروان قد قضى من سني ملكه تسعاً في تهدئة الفتن واخماد نار الثورات التي اندلعت في اجزاء هذه المملكة المترامية الاطراف[٤] ، استطاع في اواخرها ان يتخلص من آل الزبير اشد خصومه ، فقد سار بنفسه الى قتال مصعب امير العراق ، فصمد له مصعب ، بعد ان تفرّق عنه اصحابه العراقيون ، وابى ان يفرّ او ينزل

---

١) الطبري II : ٧٠٧–٧١٦
٢) الطبري II : ٧٤٤ غير اننا آثرنا نقل الابيات عن ابن ابي ربيعة (ش) ق ٤١٣
٣) الطبري II : ٧١٧
٤) الطبري II : ١١٧٣

على ارادة خصومه ، وجالد حتى قتل هو وابنه عيسى بن مصعب. ثم سيّر عبد الملك الى عبدالله اخي مصعب، الحجاج بن يوسف، فذهب مع جند الى الطائف، ومنها تحدر الى مكة ، وقد امده عبد الملك بمدد ، فحوصر ابن الزبير في مكة نحواً من تسعة اشهر ، اضطرَّ في اواخرها ان يتحصَّن بالكعبة نفسها ، غير ان اهل الشام تغلّبوا عليه ، وفتكوا به ، ثم بعث الحجّاج برأسه الى المدينة فنصب بها ، ثم اخذه معه الى عبد الملك[1].

وكان البأس ، والاقدام ، والشجاعة ، والبسالة ، وشدّة الشكيمة ، التي اظهرها ابناء الزبير ، في معاركهم الاخيرة مع جند بني امية ، مضرب المثل[2]. قالوا : أُتي عبد الملك برأس مصعب ، فنظر اليه ، فقال : متى تغذو قريش مثلك[3] . وقال: هذا سيّد شباب قريش[3].

## بعض عمال عبد الملك

والتفت عبد الملك الى تهدئة الفتن في العراق ، والى ملاحقة الخوارج ، وعيّن عمّالًا على العراق كانوا اشداء على العصاة . ويكفي ان نذكر من هؤلاء العمال خالدًا القسريّ ، والحجاج بن يوسف ، وقد ارسل الاول في بعض كتبه ، يقول لقوم من العراقيين ، كانوا ارتدوا عن قتال الخوارج ، بعد موت بشر بن مروان : « ايها المسلمون اعلموا على من اجترأتم ، ومن عصيتم ، انه عبد الملك ابن مروان، امير المؤمنين الذي ليست فيه غميزة ، ولا لاهل المعصية عنده رخصة، سوطه على من عصى ، وعلى من خالف سيفه ، فلا تجعلوا على انفسكم سبيلا ، فاني لم آلكم نصيحة – عباد الله ارجعوا الى مكتبكم ، وطاعة خليفتكم ، ولا ترجعوا عاصين مخالفين ، فياتيكم ما تكرهون ، اقسم بالله لا اثقف عاصياً بعد كتابي هذا الا قتلته ان شاء الله[4] . »

---

١) الطبري II : ٨٤٤–٨٥٣

٢) ابن ابي حديد ١ : ٢١٤ و٢١٩

٣) الطبري II : ٨١١ وابن عبد ربه ٢ : ٣٢٣

٤) الطبري II : ٨٥٨

## الحجاج بن يوسف

اما الحجاج ، فقد اتى بعد خالد والياً على العراق ، واهل العراق لا يزالون في خوف من محاربة الخوارج ، فقال خطبته المشهورة ، فيما يروون ، تالك التي خيرهم فيها بين الموت ، وبين اللحاق في المهلّب بن ابي صفرة ، لحرب الخوارج . وابى عمير بن ضابئ المسير ، فحقق الحجاج وعيده فيه ، وقتله وهو شيخ ، فارعب العراقيين خوفاً ، وقال احد شعرائهم

تخير فاما ان تزورَ ابنَ ضابئٍ عميرًا واما ان تزورَ المهلَّبا (١

## في ظل عبد الملك

واستراح عبد الملك في الاثنتي عشرة سنة الاخيرة من ملكه ، واستراحت الاقطار العربية من الفتن والثورات . وكانت هذه الحقبة ، عصر راحة وهدوء ، بعد اعياء وتعب ، لاسيا للحجازيين ، الذين عادوا الى الدعة والسكون . ولعل هذه السنين التي ارتاحت بها الامة العربية ، كانت اكثر السنين انتاجاً في حياة العرب الادبية .

## الوليد بن عبد الملك

والتفتت الامة العربية من جديد ، الى التوسع في الفتوحات ، زمن الوليد ابن عبد الملك ، خليفة ابيه ، وبينما كان صاحبنا عمر ، في ايامه الاخيرة ، شيخاً ضعيفاً يمشي متوكئاً على يدي مولى له ، كان جند هذه الدولة قد بلغ الاندلس غرباً ، والسند والهند شرقاً ، وكانت الخلافة العربية في ابان مجدها الذي اشرنا اليه .

---

١) الطبري II : ٨٧٣

# الحياة الاقتصادية

## الحجاز والخط التجاري

لقد كانت شمالي الجزيرة العربية قبل الاسلام، ارضاً مقفرةً جرداء، الا في بعض مواضع معيّنة، وصار ان اتخذتها بعض القوافل التجارية ممرًا لتجارتها، فعمرت على هذا الخط التجاري، بعض المدن او القرى الكبيرة، وكان في الحجاز - القطر الذي يحاذي شاطئ البحر الاحمر الشرقي من الشمال — مدينة من اعظم مدن هذا الخط التجاري شأناً، هي مكة وكان فيه ايضاً، مدينتان أخريان، المدينة والطائف، وكانتا، بعيدتين عن ممرّ الخط التجاري، غير انهما لم تعدما بعض الوسائل التي ساعدت على نموهما، من زراعة في الواحدة، وجودة مناخ وغيرها في الاخرى.

## فقر الحجاز

وكان اهل هذا القطر محصورين الى حدّ كبير في حجازهم هذه، الا بعض عائلات من قريش اتخذت التجارة مهنة لها، منها عائلة صاحبنا عمر، «آل مخزوم»، وكانت لهذه العائلات القرشية رحلات في الشتاء وفي الصيف، الى سوريا او اليمن او الحبشة وما اليها، غير ان هذه القافلات التجارية، لم يكن بوسعها ان تحيي قطرًا كبيرًا كهذا، غير ذي زرع ولا ضرع، فتمنع جدبه، او تزيل بؤسه، وكان من الطبيعي، ان يكون هذا القطر القاحل المجدب، فقيرًا في المال، وفقيرًا في الموارد التي تستجلب المال، وفقيرًا في الحضارة والعمران اللذين يكادان يكونان نتيجة لازمة للغنى والثروة.

وكان اهله فيما يروي بعض الرواة، على خشونة وشظف من العيش، حتى زعم ابن خلدون انه «لم تكن امة من الامم، اسغب عيشاً من مضر، لما كانوا

بالحجاز ، في ارض غير ذات زرع ولا ضرع.» ثم يقول: «وقريباً من هذا ، كانت حالة قريش في مطاعمهم ومساكنهم .»[١]

## الاسلام يخرج الجزيرة من عزلتها

وجاء محمد بالاسلام ، ودان عرب الحجاز بهذا الدين الجديد ، وزحفت جيوشهم تصارع امم الارض ، واحتلوا بلاد فارس والروم وشمالي افريقية ، وورثوا الاكاسرة والقياصرة ، في البلاد التي فتحوها ، فغنموا الغنائم ، وفرضوا الجزية ، وجمعوا الاموال.

## الفيء يسيل الى الجزيرة

وكان فيء عظيم ، افاءه الله على جزيرة جائعة فاشبعها ، وسالت الاموال والمؤن الى الحجاز ، من سوريا ومصر ، ومن العراق والبحرين[٢] . فلقد ذكر البلاذري ان عمر بن الخطاب بعث الى عمرو بن العاص ، بعد فتح مصر ، يعلمه بما فيه اهل المدينة من الجهد ، ويأمره ان يحمل ما يفيض من الطعام في الخراج الى المدينة ، عن طريق البحر ، فكان ذلك يحمل ، ويحمل معه الزيت ويقسم بين الناس بمكيال ، ويذكر البلاذري ان هذا انقطع في الفتنة الاولى ، ثم حُمل في ايام معاوية ويزيد ، ثم انقطع الى زمن عبد الملك بن مروان ، ثم لم يزل يحمل حتى خلافة المنصور[٣].

ويقول السيوطي ان عمر بعث يستغيث عمرًا ويقول :« سلام عليك ، اما بعد ، فلعمري يا عمرو ، ما تبالي ان شبعت انت ومن معك ، ان اهلك انا ومن معي ، فيا غوثاه ! ثم يا غوثاه ! » فاجابه عمرو :« فيا لبيك ! ثم يا لبيك ! هوذا قد بعثت لك بعير ، اولها عندك ، وآخرها عندي ، والسلام[٤] .»

## اهل الحجاز يستغنون

ويقول الطبري ، ان عمرو بن العاص استشار عمر بن الخطاب ، في حفر نهر

١) ابن خلدون ١٧٧
٢) الطبري I: ٢٨٠٨ و٢٨١٤ و ٢٨٦٠
٣) البلاذري ٢١٦
٤) السيوطي(ح) ١: ٦٨ وراجع ابن ابي حديد ٣: ١٠٥

او قناة توصل الى البحر الاحمر ، يسهل بعدها النقل ، ويصير سعر الطعام في المدينة كسعره في مصر ، غير انه يخشى معها انكسار خراج مصر ، فكتب اليه عمر : اعمل فيه وعجل ! اخرب الله مصر في عمران المدينة وصلاحها ، فعالجه عمرو وهو بالقلزم ، فكان سعر المدينة ، كسعر مصر ولم يزد ذلك مصر الا رخاء[1] .

ويذكر الطبري وابو الفداء ، انه لما كتب عمر الى امراء الامصار ، يستغيثهم لاهل المدينة ومن حولها ، ويستمدهم ، كان اول من قدم عليه ابو عبيدة بن الجراح في اربعة الاف راحلة من الزاد ، وقسم عمر ذلك على المسلمين ، حتى رخص الطعام بالمدينة واستغنى اهل الحجاز[2] .

ووفد ابو هريرة من البحرين على عمر ، فسأله عن الناس ، ثم قال له : « ما جئت به ؟ » قال : « جئت بخمس مئة الف » قال : « هل تدري ما تقول ؟ » قال : « مئة الف ومئة الف » ، وعد خمساً . فقام عمر في صبيحة اليوم الثاني ، يخطب في الناس ويقول : « انه قدم علينا مال كثير ، فان شئتم ان نعده لكم عدداً ، وان شئتم ان نكيله لكم كيلاً . »[3]

## مقدار الفيء

ذكر البلاذري ان عبد الله بن ابي سرح ، « صالح بطريقَ افريقيــة ، بعد فتحها ، على ثلاثمئة قنطار من الذهب[4] . » وفي رواية الواقدي التي نقلها البلاذري انها مليونان ونصف من الدنانير[5] . وذكر البلاذري ايضاً ان خراج السواد بلغ ، على زمن عمر بن الخطاب ، مئة مليون درهم[6] . وروى ابن خرداذبه ان عمر امر بمسح السواد ، ثم وضع الجباية عليه ، فكانت مئة وثمانيــةً وعشرين مليون درهم[7] .

١) الطبري I : ٢٥٧٧ وراجع السيوطي (ح) ١ : ٧٦–٧٧
٢) الطبري I : ٢٥٧٦–٢٥٧٧ وابو الفداء ١ : ١٧٣
٣) البلاذري ٤٥٣
٤) البلاذري ٢٢٧
٥) البلاذري ٢٢٧
٦) البلاذري ٢٧٠
٧) ابن خرداذبه ١٤

وكان سعيد بن العاص ، والي الكوفة لعثمان ، يقول : « مـا السواد ( يعني العراق ) الا بستان قريش ، ما شئنا اخذنا وما شئنا تركنا[١] . » قيل ، فقال لـه الاشتر : أتجعل مـا افاء الله علينا بظلال سيوفنا ومراكز رماحنا بستاناً لـك ولقومك ؟[٢]

## نوع الغنيمة ومقدار ما قد يحوزه الفرد

ولعل هذا كله ، لم يكن كثيراً ، اذا قيس بالمال الذي روى الرواة انه صار في حوزة الافراد ، من غنائم مدائن كسرى ، وبلاد الفرس ، وغيرها . فقد روى ابن خلدون ، ان بجار الرفه زخرت لديهم ، حتى كان يقسم للفارس الواحد ، في بعض الغزوات ، ثلاثون الفاً من الذهب او نحوها[٣] . ناهيك بالرقيق والسبايا والمواشي على انواعها ، التي كانوا يغنمونها ويبيعونها اذا شاءوا . روى الطبري عن فتح قتيبة بيكند ، وعما اصابه فيها العرب من الغنائم ، فقال :

« اصابوا فيها من انية الذهب والفضة ما لا يحصى ، فولي الغنـائم والقسم عبد الله بن وألان العـدوي احد بني ملكان ، وكان قتيبة يسميه الامين بن الامين ، واياس بن بيهس الباهلي ؛ فاذابا الآنية والاصنام ، فرفعاه الى قتيبـة ، ورفعا اليه خبث ما اذابا ، فوهبه لهما ، فاعطيا به اربعين الفاً ، فاعلماه ، فرجع فيه وامرهما ان يذيباه ، فاذاباه فخرج منه خمسون ومئة الف مثقال ، او خمسون الف مثقال . واصابوا في بيكند شيئاً كثيراً . وصار في ايدي المسلمين من بيكند شيء لم يصيبوا مثله بخراسان . ورجع قتيبة الى مرو ، وقوي المسلمون ، فاشتروا السلاح والخيل ، وجلبت اليهم الدواب ، وتنافسوا في حسن الهيئة والعـدة ، وغالوا بالسلاح حتى بلغ الرمح سبعين ، وقال الكميت :

ويوم بيكند لا تحصى عجـائبه وما بخاراء مما اخطأ العددُ[٤]

وروى الطبري ايضاً ، ان رجلاً من البراجم قال بعد حرب خوارزم والسغد : « وسلبنا من جيد السلاح ، وكريم المتاع ، ومناطق الذهب ، ودواب فرهة ، فنفلنا

١) الاصبهاني ١١ : ٣٠ وانظر الطبري I : ٢٩١٦ ٢) المسعودي ٤ : ٢٦٣
٣) ابن خلدون ١٧٧ ٤) الطبري II : ١١٨٨

ذلك قتيبة كله » .[١]

وقال شاعرهم يومئذ :

كل يوم يحوي قتيبـة نهباً ويزيد الاموال مالاً جديدا [٢]

## الحجاز لم تعدم حظها من الفيء زمن بني امية

ولم تعدم الحجاز حظها من الفيء زمن بني امية فقد روي عن الوليد بن عبد الملك ، انه حجّ في خلافته ، وقسم بالمدينة رقيقاً كثيراً عجماً بين الناس ، وآنية من ذهب وفضة ، واموالاً[٣] .

وروي ايضاً انه في خلافة ابن الزبير انحلبت عليه الاموال فهدم الكعبة وجدّد بناءها[٤] و« ان مصعب بن الزبير شخص الى مكة في حدود سنة ٧٠هـ. فقدمها باموال عظيمة ، فقسمها في قومه وغيرهم ، وقدم بدواب كثيرة وظهر واثقال ، فارسل الى عبد الله بن صفوان وجبير بن شيبة وعبد الله بن مطيع مالاً كثيراً ، ونحر بدنا كثيرة .»[٥]

## الثروة التي خلفها بعضهم

وهكذا فان هذا الفيء ما زال ينصبّ عليهم ، منذ اول الاسلام ، وما زالوا يجدّون في جمعه ، حتى روى المسعودي ، ونقله عنه ايضاً ابن خلدون في مقدمته ، ان الخليفة عثمان ، كان له يوم قتل ، عند خازنه ، خمسون ومئة الف دينار ، والف الف درهم ، وقيمة ضياعه بوادي القرى وحنين وغيرهما ،ماية الف دينار ، وخلّف خيلاً وابلاً كثيرةً . وانه قد بلغ ثمن ملك الزبير ، بعد وفاته ، خمسين الف دينار ، وخلّف الزبير الف فرس والف عبد والف امة . وان غلّة طلحة من العراق ، كانت في كل يوم الف دينار . وقيل اكثر من ذلك . وبناحية الشراة اكثر مما ذكر ، وانه كان على مربط عبد الرحمن بن عوف الزهري ، ماية فرس ، وله الف بعير ، وعشرة الاف شاة من الغنم . وبلغ بعد وفاته الربع من ماله ، اربعة وثمانين الف دينار . وان زيد بن ثابت حين مات ،

---

١) الطبري II : ١٢٤٣ ٢) الطبري II : ١٢٥٢ ٣) الطبري II : ١٢٣٢

٤) الدينوري ٢٩٦ ٥) الطبري II : ٧٩٦-٧٩٧

خلّف من الذهب والفضة ما كان يكسّر بالفؤس غير مـا خلّف من الاموال والضياع بقيمة مئة الف دينار[1] . وان يعلى بن منبه خلّف يوم مـات خمسماية الف دينار وديوناً على الناس وعقارات وغير ذلك من التركة ، ما قيمته ثلثماية الف دينار . ويقول المسعودي: « وهذا باب يتسع ذكره ، ويكثر وصفه ، فيما تملك من الاموال في ايامه ولم يكن مثل ذلك في عصر عمر بن الخطاب ، بل كانت جادّة واضحة ، وطريقة بيّنة . وحج عمر ، فانفق في ذهـابه ومجيئه الى المدينة ستة عشر ديناراً »[2].

وذكر ابن عبد ربه انه لما قتل طلحة بن عبيد الله يوم الجمل ، وجدوا في تركته ثلثماية بهار من ذهب وفضة. والبهار مزود من جلد عجل[3]. وذكر ايضاً ان عروة بن الزبير تولى تركة ابيه بعد ان قتل يوم الجمل، قال عروة: « ونظرت في دينه فـاذا هو الف الف ومماية الف ، قال : فبعت ضيعة له بالغابة بالف الف وستماية الف ، ثم ناديت من كان له قبل الزبير شيء فليأتنا نقضه ، فلما قضيت دينه ، اتاني اخوتي ، فقالوا: اقسم بيننا ميراثنا ، قلت : والله لا اقسم حتى انادي اربع سنين بالموسم : من كان له على الزبير شيء ، فليـأتنا نقضه . فلما مضت الاربع سنين ، اخذت الثلث لولدي ، ثم قسمت البـاقي فصار لكل امرأة من نسائه ، وكان له اربع نسوة ، في ربع الثمن ، الف الف ، ومئة الف ، فجميع ما ترك ماية الف الف ، وسبعماية الف الف . »[4]

ولربّ معترض يقول ان الواقدي والبلاذري والمسعودي وابن خلدون وابن عبد ربـه ، هم ، او من نقل اليهم هـذه الروايات ، قومٌ قد ضخموا هـذه الارقام ، ثم بالغوا في اقوالهم فيها . ولكن لو سلّمنا بذاك ، انستطيع تجاهل ما يستخلص من هذه الاخبار ؟ الا تدل على ان فيئاً كثيراً قـد افاءه الله على العرب ، وبالاخص في الحجـاز ، فكثرت اموالهم ، وكثر ميلهم لجمع الاموال وخزنها ، والتنعم بها ؟ روى البلاذري ، ان الحجاج بن يوسف وجه محمد بن

---

١) المسعودي ٤ :٢٥٢-٢٥٥ وراجع ابن خلـدون ١٧٨ وابن قتيبـة (م) ٩٤-١٢٦ وليلاحظ فيها الاختلاف في بعض الارقام والنصوص ٢) المسعودي ٤ :٢٥٥

٣) ابن عبد ربه ٢ :٢٧٩ ٤) ابن عبد ربه ٢ :٢٨٠ ويظهر ان الالف الاخيرة زائدة

قاسم الثقفي لفتح الهند والسند ، وانفق عليه الاموال الطائلة ، وذكر انها بلغت ستين مليون درهم ؛ وسار ابن القاسم ، ووفق في غزوته ، ففتح ما احجم العرب عن فتحه ايام عثمان ، وعاد الى الحجاج بفيء كثير ، رووا انه بلغ مئة وعشرين مليون درهم ، فقال الحجاج : شفينا غيظنا ، وادركنا ثأرنا ، وازددنا ستين مليون درهم[١] . ويروي الطبري ان قتيبة صالح اهل سمرقند على مليونين ومئتي الف في كل عام[٢] ، وانه احرق اصنامهم ، فوجدوا من بقايا ما كان فيها من مسامير الذهب والفضة خمسين الف مثقال[٣] . ويذكر الطبري ايضاً خبر بعض الغارات التي شنها المسلمون على الروم ايام عثمان ، فيقول : « فاصاب الناس ما شاءوا من سبي ، وملئوا ايديهم من المغنم ، وافتتحوا بها حصوناً كثيرة »[٤] .

## اثر ذلك الفيء ، وتلك الثروة في عمران الجزيرة

ومهما يكن من الامر كله ، فالذي يهمنا ، هو ان فيئاً كثيراً قد افاءه الله على العرب بعد الاسلام ، فتفرّق فيهم ، وبالاخص في اهل الحجاز ، لاسيما القرشيين ، فاحيي ذلك القطر ، وجعل منه بلداً عامراً ، اجرى فيه انهاراً ، وحفر آباراً ، وصيّر لاشرافه جنائن وبساتين ، لم يعرفوها من قبل ، وليس من شك ان الطائف قد اتسعت رقعة بساتينها القديمة ، وكثرت اشجارها وازدادت اثمارها ، وفي الاغاني ذكر الى انه كانت تبعث منها الفاكهة كل يوم الى اسواق مكة[٥] . وصرنا نسمع فيما يروي لنا ابو الفرج الاصبهاني في اجزاء اغانيه المختلفة ، وغيره ، ان اشترى فلان بستاناً بناحية كذا ، او كان فلان عند بستان كذا يغني ، او باع فلان بستانه بثمن كذا ، او استحضر فلان عملة يعملون له ببستانه في المدينة عام كذا ، او وجد فلان ببستان كذا[٦] . بل قد روى ابن عبد ربه ان الخليفة سليمان بن عبد الملك ، الخليفة الذي الف في دمشق وغيرها من مدن سوريا الجنائن والبساتين[٧] ، قدم الطائف ، فدخل هو ونفر معه ، بستاناً لعمرو

---

١) البلاذري ٤٤٠ ٢) الطبري II: ١٢٤٥

٣) الطبري II: ١٢٤٦ ٤) الطبري I: ٢٨٠٨ ٥) الاصبهاني ١: ٨٥

٦) الاصبهاني ١: ١٠٧ و١٢٦ و١٧: ٩٧ وابن قتيبة (م) ٦٧ و١٠١

٧) ابن عبد ربه ٣: ٢٦٣

ابن العاص ، فجال فيه ساعة ، ثم قال : « ناهيكم بالكم هذا مالًا ، ثم القى صدره على غصن وطلب الطعام[١] . وروى ايضاً ان سليمان هذا ، نظر الى بيادر الزبيب ، فقال : ما تلك الحرار[٢] السود ؟ قيل له : « ليست بجرار[٢] يا امير المؤمنين ، ولكنها بيادر الزبيب . »[٣]

## المزارع والبساتين

واخذ بعضهم يلتفت الى اهمية الزراعة وامتلاك المزارع . روى ابن قتيبة ان سعيد بن عثمان لما عاد من خراسان معزولًا ، اقبل معه برُهُنٍ كانوا في يديه من اولاد الصغد الى المدينة والقاهم في ارض يعملون له بالمساحي[٤] . وذكر الطبري انه لما كانت العرب تفتح بلاد رتبيل شرقي تركية ، احب عبد الله بن ابي بكرة مصالحة القوم على شيء يؤدونه ، فنعى عليه شريح بن هانئ هذه المصالحة ، وعيّره بجبه للمال وجمعه وقال : انما حسبك ان يقال بستان ابن ابي بكرة وحمام ابن ابي بكرة . ومضى يقاتل حتى قتل[٥] . «وسأل معاوية صعصعة ابن صوحان عن احسن المال فقال : ان افضل المال لبرة سمراء في تربة غبراء ، او نعجة صفراء في نبعة خضراء ، او عين خرارة في ارض خوارة . قال معاوية : لله انت فاين الذهب والفضة ؟ قال : حجران يصطكان ، ان اقبلت عليهما نفدا وان تركتهما لم يزيدا . »[٦] ويظهر ان معاوية قد اعتنى في انشاء المزارع والبساتين في بلدته القديمة مكة . فقد روى الازرقي عنه انه حفر اقنيــة وآبارًا ، واقام سدودًا لحفظ المياه ، وأنشأ مزارع وبساتين[٧] . وذكر المسعودي ، ان عثمان اقتنى اموالًا وجنانًا وعيونًا بالمدينة[٨] . وكانت الطائف كما ذكرنا تصدر من فواكهها الى مكة كل يوم فيما يروون[٩] .

---

١) ابن عبد ربه ٣ : ٢٨٥

٢) في الاصل جرار ولعلها محرفة عن حرار جمع حرة راجع ياقوت ٣ : ٤٩٧

٣) ابن عبد ربه ٣ : ٣٦٠

٤) ابن قتيبة (م) ١٠١

٥) الطبري II : ١٠٢٧

٦) ابن عبد ربه ١ : ٣١٢

٧) الازرقي ١ : ٤٤٢–٤٤٣

٨) المسعودي ٤ : ٢٥٢

٩) الاصبهاني ١ : ٨٥

ولعل بعض اهل الحجاز كانوا اذا طلبوا فاكهة ، ولم يجدوها في قطرهم ، استحضروها من الشام . والرواة يحدثوننا ، ان طويساً المغني اتى ضيوفه ذات يوم بفاكهة من الشام[١] .

## الابار والعيون

اما الآبار التي حفرت ، فحدّث عنها ولا حرج ، حتى روى ابن قتيبة ان عبد الله بن عامر اتخذ النباج ، وهي قرية على طريق مكة والبصرة[٢] ، وغرس فيها ، فهي تدعى نباج ابن عامر ، واتخذ القريتين وهي قريبة من النباج[٣] ، وغرس بها نخلاً ، وانبط عيونا تعرف بعيون ابن عامر ، وحفر الحفير ، ثم حفر السمينة ، واتخذ بقرب قباء قصراً ، وجعل فيه زنجاً ليعملوا فيه ، فماتوا ، فتركه واتخذ بعرفات حياضاً ونخلاً ، واحتفر بالبصرة نهرين ، وحفر نهر الابلة ، وكان يقول : لو تُركت لخرجت المرأة في حداجتها ، على دابتها ، ترد كل يوم على ماء وسوق ، حتى توافي مكة . ومات بمكة ودفن بعرفات سنة ٥٩ هـ.[٤] وقد اثنى عليه قوم فيا يروى ، امام ابن عُمَرَ ، بما اتخذ من الحياض بعرفات ، وبآثاره في الارض ، فقال ابن عمر : اذا طابت المكسبة ، زكت النفقة ، وسترد فتعلم[٥] . وروى الازرقي اخباراً كثيرة عن الآبار التي حفرها رجال الاسلام الاول[٦] ، وعن العيون التي اجريت في الحرم ، وعن البساتين التي نشأت اثر ذاك[٧] ، مما يطول شرحه ، ولا يتسع المقام لذكره ، ويكفي ان نشير الى ان معاوية وحده ، فيا يذكر الازرقي ، اجرى عشرة عيون ، لها مشارع و« حيطان » اي بساتين[٨] . وروى ياقوت ان سعيد بن العاص ابتنى بعرصة العقيق ، قصراً واحتفر بيراً ، وغرس النخل والبساتين ، وكان نخل بستانه ابكر نخل بالمدينة[٩] .

---

١) ابن عبد ربه ٣ : ٢٤٢
٢) ابن قتيبة (م) ١٦٤ وراجع ياقوت ٤ : ٧٣٦
٣) ابن قتيبة (م) ١٦٤ وراجع ياقوت ٤ : ٧٧
٤) ابن قتيبة (م) ١٦٤
٥) ابن قتيبة (م) ١٦٤
٦) الازرقي ١ : ٤٤١–٤٤٣
٧) الازرقي ١ : ٤٤٣–٤٤٤
٨) الازرقي ١ : ٤٤٣–٤٤٤
٩) ياقوت ٣ : ٦٤١

## الدور والقصور

كذلك لقد بنى هذا الفيء لهؤلاء الاشراف من العرب الفاتحين دورًا واشاد قصورًا كبعض التي شاموها في البلاد التي فتحوها. ولم يقنع بعضهم بدار واحدة، او قصر واحد، والتفت البعض الآخر الى تزيين البناء، وترقيطه بحجارة مختلفة الالوان، او تجصيصه من الظاهر والباطن. ذكر ابن عبد ربه انه كان لعبدالله بن عامر دور وضياع بالطائف، داعبه في شأنها ذات يوم معاوية بن ابي سفيان، وسأله ان يهبه اياها[1]. وذكر المسعودي[2] ان عثمان ابتنى داره بالمدينة، وشيدها بالحجر والكلس، وجعل ابوابها من الساج والعرعر[3]. وابتنى سعد بن ابي وقاص داره بالعقيق، فرفع سمكها، ووسع فضاءها، وجعل على اعلاها شرفات[4]. وابتنى المقداد داره بالمدينة، في الموضع المعروف بالجرف، على اميال من المدينة، وجعل على اعلاها شرفات، وصيرها مجصصة الظاهر والباطن[5]. وشيد طلحة داره بالمدينة وبناها بالجص والآجر والساج. وكذلك عبد الرحمن بن عوف الزهري فانه ابتنى دارًا له ووسعها[6]. وروى الطبري ان ابا ذر لما رأى البناء في المدينة ازداد حتى بلغ سلعاً، ورأى المجالس في اصل سلع، قال: بشر اهل المدينة بغارة شعواء، واستأذن عثمان في الخروج قائلاً: لقد امرني رسول الله ان اخرج منها متى بلغ البناء سلعاً[7].

وبنى معاوية في مكة دورًا له يقال لها الرقط، اولها من جهة الدار البيضاء، وآخرها دار الحمام، وجعل لها بنائين فرساً من العراق، فكانوا يبنونها بالجص والآجر[8]. وقامت الابنية في الكثير من الساحات العمومية في مكة. روى الازرقي ان ابن عباس قال لابن صفوان: هيهات هيهات تركت والله سنة عمر

---

١) ابن عبد ربه ٢ : ١٥٢ ٢) المسعودي ٤ : ٢٥٣

٣) الساج والعرعر نوعان من الخشب، فالساج فيما يقال لا ينبت الا ببلاد الهند، والعرعر شجر فارسي كالسرو

٤) المسعودي ٤ : ٢٥٤ ٥) المسعودي ٤ : ٢٥٥

٦) المسعودي ٤ : ٢٥٤ ٧) الطبري I : ٢٨٦٠

٨) الازرقي ١ : ٤٤٩–٤٥٢ والاصبهاني ٣ : ٨٦

شأوًا ومغرّبًا ، قضى عمر ان اسفـل الوادي واعلاه مناخ للحاجّ ، وان اجياد وقعيقعان للمريحين والذاهب ، واتخذتها وصاحبك دورًا وقصورًا[١] .

ناهيك بالقصور التي شادوها ، او امتلكوها في الطائف ، مصيف الاشراف في ذلك العصر[٢] . وفي العقيق متنزه اهل المـدينة ، ووادي لهوها . رووا انه كان لسعيد بن العاص قصر بالعرصة تغنى به الشعراء ، وفضّله احدهم على ابواب جيرون بدمشق :

القصر فالنخـل فـالجماء بينهما ... اشهى الى القلب من ابواب جيرون
الى البـلاط فـما حازت قرائنه ... دور نزحن عن الفحشاء والهون[٣]

وقد صار هذا القصر ، بعد وفاة سعيد ، لمعاوية بن ابي سفيان ، ابتاعه من عمرو بن سعيد باحتمال دينه عنه[٤] . وكان لسكينة بنت الحسين في العقيق قصر يقال له البريدي[٥] . وكان لعروة بن الزبير فيه ايضاً قصر مشهور قال فيه لما فرغ من بنائه :

بنينـاه فـاحسنا بناه ... بحمد الله في وسط العقيق
تراهم ينظرون اليه شزرًا ... يلوح لهم على وضح الطريق
فساء الكاشحين وكان غيظًا ... لاعدائي وسرّ به صديقي[٦]

واتسع البناء في العقيق ، حتى كاد يفسد جمال عرصته المشهورة ، فمنع بنو امية البناء فيها ، ضنًا بها ، ومحافظةً على جمالها ، غـير ان بعضهم تمكن من الحصول على اذن خاص من الوليـد بن عبد الملك ، ببناء قصر ، فاقطعـه موضعه ، فبناه .[٧]

وهناك قصور اخرى للكثيرين تجد ذكر بعضها في طبقات ابن سعد[٨] . وهكذا فقد بنى هذا الفيء لهؤلاء العرب ، دورًا وقصورًا ، وكان الامر كما قال الامام عمر بن الخطاب وقد مرّ على بنيان يبنى بآجر وجص . فقال : لمن

١) الازرقي ١ : ٢٩٣ ٢) الاصبهاني ٦ : ٣٠
٣) الاصبهاني ١ : ٧ وراجع الطبري III : ٢٣٢٠ ٤) الاصبهاني ١ : ٧
٥) الاصبهاني ١٤ : ١٧٣ ٦) ياقوت ٤ : ١١٧
٧) ياقوت ٣ : ٦٤١ ٨) ابن سعد ٣ : ١٠٤ و١٧٤ و٢٠٤ و٢٧٩-٢٨٠

هذا ؟ قيل : لعاملك على البحرين . فقال : ابت الدراهم الا ان تخرج اعناقها[١]! نعم ! لقد ابت الدراهم والاموال التي تحدرت الى هؤلاء العرب ، سواء اكانت عن طريق الفيء ، او الوظائف في امور الدولة ، الا ان تخرج اعناقها في هذه الابنية المختلفة ، والبساتين والآبار التي استحدثوها في الحجاز.

وكان الجيل الذي عقب الصحابة اكثر حظاً في الحضارة من سابقيه فلم يقنع بما قنعوا به.

### ارتفاع ثمن الابنية

وارتفع ثمن البناء ، ولا يحدث مثل هذا الا في الرخاء ، حين يتنافس الناس في امتلاك الابنية الفخمة ، فينفقون عن سعة . فقد رووا ان معاوية اشترى داراً بالمدينة بستين الف دينار ، كان صاحبها قد اشتراها فيما يذكرون بزق خمر . ويروون مع ذاك انه قيل لصاحبها : قد غبنك معاوية[٢]. واشترى معاوية نفسه ايضاً فيما يروون ، داراً من حويطب بن عبد العزّى باربعين الف دينار[٣] . وباع آل عقبة بن الازرق قسماً من دارهم قرب المسجد الحرام ، بثمانية عشر الف دينار لابن الزبير[٤]، فحال دون قبضهم ثمنها قتلُ مصعب، وقد حُولوا عليه بالثمن، ثم قتل عبد الله بن الزبير ، وابى الحجاج ان يدفع الثمن عن ابن الزبير[٥].

### قيمة المال في الرخاء

وقلت قيمة المال عند هؤلاء الاشراف ، حتى صارت اعطيات الامراء بالمئات والالوف من الدنانير فيما يروون[٦] . وحتى صار مهر النساء الكريمات اضعاف اضعاف ما كان قبلاً ، حتى روى الرواة ان عمر بن عبيد الله امهر عائشة بنت طلحة مليون درهم[٧]. وان مصعب بن الزبير تزوج عائشة بنت طلحة هذه ، بعد وفاة زوجها الاول ، فامهرها خمسمائة الف درهم واهدى لها مثل ذلك ،

---

١) ابن عبد ربه ١ : ١٨ ٢) ابن قتيبة (م) ١٥٩ ٣) ابن قتيبة (م) ١٥٩
٤) الازرقي ١ : ٤٥٦ ٥) الازرقي ١ : ٤٥٦
٦) الاصبهاني ٢ : ١٣٨ و ١١ : ٧١ وابن عبد ربه ٣ : ٣٢٧
٧) الاصبهاني ١٠ : ٥٨

وسمع اخوه عبد الله بذلك فكتب اليه يؤنبه[١] ، وكذلك تزوج من سكينة بنت الحسين ، فامهرها الف الف درهم ، حتى نقم عليه احد الشعراء ذلك فقال وبعث به الى عبد الله بن الزبير :

ابلغ امير المؤمنين رسالة    من ناصح لك لا يريد خداعا
مهر الفتاة بالف الف كامل    وتبيت سادات الجنود جياعا
لو لابي حفص اقول مقالتي    وابث ما ابثثكم لارتاعا

فلما اخذ الكتاب ابن الزبير ، قال: صدق والله ، لو تقول هذه المقالة لابي حفص ، لارتاع من تزويج امرأة على الف الف ، ثم عزله عن البصرة[٢].

وروي ان الحجاج امهر بنت عبدالله بن جعفر تسعين الف دينار[٣]. وفي بعض الروايات مليونين ونصف درهم[٤].

ومن هنا نستطيع فهم بعض هذه الروايات التي تُذكر عن صاحبنا عمر ، وغناه ، وانه اعطى ، مثلًا ، مئة دينار ، الذي بشَّره بزيارة بنت محمد بن الاشعث الكندية له[٥]. وانه ارسل الى ام الفتاة خمسماية دينار هدية[٦]. وانه اخذ من اخيه الف دينار وسار الى اليمن على ان لا يقول شعرًا ، فطرب هناك وقال الشعر[٧]. وانه قبل هدية من احدى الاميرات بلغت الف دينار ، اشترى فيها طيباً وهدايا ، ثم بعث بها اليها ناشدًا اياها ان تقبلها ، والا فهو يشهرها بين العرب[٨]. وانه كان ابن غنى وثروة انفق كثيرًا منها في سبيل اللهو على المغنين والنساء كما سنرى.

### شباب الحجاز ينعم بالمال

ولم يكن بنو امية ، وهم اصحاب الملك وبيت المال ، يضنّون على اشراف اهل الحجاز ، وشبابه ، بالمال والاعطيات[٩] بل لعلهم كانوا يسعون في ان

---

١) الاصبهاني ١٠ : ٥٦    ٢) الاصبهاني ١٤ : ١٦٨–١٧١ وابن قتيبة (ش) ١٧٢ و(م) ١٢٠
٣) ابن عبد ربه ٣ : ٢٩٢    ٤) ابن عبد ربه ١ : ١٤٦
٥) الاصبهاني ١ : ٤١    ٦) الاصبهاني ١ : ٤١
٧) الاصبهاني ١ : ٤٩    ٨) الاصبهاني ١ : ٦٩
٩) ابن عبد ربه ١ : ١٤٤ و٢ : ١٢٢ و١٢٤ و١٢٥ و٢٠٥ و٣ : ٢٢٧ و٢٢٩ والاصبهاني ١١ : ٧١ و١٣ : ١٠٥ والطبري II : ٤٠٢ و٤٢٢

يحجزوا هذا الشباب من ابناء الصحابة والتابعين ، في الحجاز ، بحيث لا يتعدونها الى موضع آخر ، يحدثون فتنةً فيه ، وكانوا يحرمون اكثرهم من ادارة الاعمال في الدولة ، ويغدقون عليهم العطايا بالوقت نفسه ، ليشغلوهم عن السياسة ، وسرعان ما كان هؤلاء ينفقون هـذه الاموال والاعطيات في سبل اللهو والطرب ، او العبث والمجون ، او الضيافات والكرم ، حتى روى الرواة ان عبدالله بن جعفر ، احد اصدقاء صاحبنا عمر ، كان يُعطى المئة الالف ، فما تبيت عنده وزعموا ان يزيد بن معاوية اعطاه اربعة الاف الف ، فليمَ على ذلك ، فقال : ويحكم ! انما اعطيتها اهل المدينة اجمعين ، فما يده فيها الا عارية[1] . وكان عبد الله هذا يفد الى الشام ويحظى باعطيات بني امية ، فيعود الى الحجاز ، لينفق ما ناله منهم على اهـل المدينة ، لجوده ولهوه ، ناهيك بما كان ياتيه ايضاً من الحجاج بن يوسف واليهم في العراق[2] . نعم لقد كانت هذه الخيرات وهذه العطايا مدعاةً للهو ، حتى زعم الرواة ان عبد الله بن جعفر هذا التقى بعبد الله بن صفوان فقال له هذا : لقد صرت يا ابا جعفر حجة لفتياننا علينا ، اذا نهيناهم عن الملاهي ، قالوا ، هذا ابن جعفر ، سيد بني هاشم ، يحضرها ويتخذها[3] . وقل مثل هـذا عن ابن ابي عتيق ، والحارث بن خالد المخزومي ، وابن ابي ربيعة ، وغيرهم من اشراف ذلك العصر ، فلقـد كان اذن ، لهذا التوسع السياسي ، ومـا استتبعه من الرخاء الاقتصادي ، والسعة والعمران ، اثر كبير في حياة اهل ذلك الجيل الاجتماعية ، فمن الخير الآن ان نفتح باباً جديداً لدرسه .

١) ابن عبد ربه ١ : ١٤٥
٢) ابن عبد ربه ١ : ١٤٦ و١٤٨
٣) ابن عبد ربه ٢ : ١٥٢

# الحياة الاجتماعية

ليس غريباً ان تتطور حياة العرب الاجتماعية في ذلك العصر ، بل الغريب ان لا تتطور ، بعد هذا الانقلاب السياسي العظيم ، وما استتبعه من انقلاب اقتصادي كبير ، حاولنا فيما سبق درس بعض ظواهره . نعم لم يكن طبيعياً ، ألّا يحيا عرب الحجاز ، بعد فتحهم بلاد فارس والروم ، واحتلالهم مصر وشمالي افريقيا ، وبعد احتكاكهم بهذه الامم التي غلبوها ، وتمتعهم بهذا الفيء الذي افاءه الله عليهم ، من مال مصر والعراق وسورية ، وسبايا هذه الاقطار ورقيقها ، اقول لم يكن طبيعياً بعد هذا كله ، الا يحيا عرب الحجاز حياة جديدة ، تختلف عن حياتهم الاولى التي الفوها.

## تغير نظم العيش وارتفاع مستواه

والواقع انه قد كان هناك تطور اجتماعي عظيم في حياتهم ، وفي خلقهم ، وفي سبل عيشهم ، فلقد تغيرت كثير من هذه النظم التي كان الحجازيون قد الفوها ، في مطاعمهم ، ومشاربهم ، وملابسهم ، ومساكنهم ، قبل الاسلام ، فانتقلوا من خشونة العيش وشظفه ، اللذين وصفهما ابن خلدون فيما اخذنا عنه سابقاً ، الى رغده وهنائه وسعته.

وبعيدٌ ما بين وارد رفه    على شربه ووارد خِمس

ذكر الطبري انه لما فتح قتيبة سمرقند ، او بعض كور خراسان ، استخرجوا منها قدوراً عظاماً من نحاس ، فقال قتيبة لواحد من رجاله ، اسمه الحصين ، مداعباً اياه : « يأبا ساسان ، اترى رقاش كان لها مثل هذه القدور ؟ قال : لا ولكن ، كانت لعيلان قدر مثل هذه القدور . فضحك قتيبة وقال ادركت بثأرك[1] » .

---

١) الطبري II : ١٣٤٦

وارتفع مستوى المعيشة ، بوجه عام ، الى حدّ كبير ، فلم يقنع اهل هذا الجيل الاسلامي الاول ، بما كان يقنع به آباؤه من قبل ، من مطعم وملبس ومسكن، ولقد رأيت كيف اظهرت الاموال اعناقها في هذه المساكن التي اخذوا يشيدون في مكة والمدينة والطائف ، وفي هذه البساتين التي اخذوا ينشئون ، وفي هذه الآبار التي شرعوا يحفرون.

## يشتون ويصيفون

بل قد ذهبوا الى ابعد من هذا ، فجعلوا يشتون في موضع ، ويصيفون في موضع آخر ، فيقضي بعضهم شتاءه وربيعه في مكة ، او في العقيق ، في ذلك الوادي البهيج ، جنة المدينة ، ومتنزه لهوها ، في قصر اتخذه فيه ، يستمع الى غناء المغنين ، وينظر الى لهو اللاهين ، حتى اذا جاء فصل الصيف ، انتقل الى الطائف يصيف فيه . ذكر ابو الفرج انه لما تايت عائشة بنت طلحة ، كانت تقيم بمكة سنة ، وبالمدينة سنة ، وتخرج الى مال لها عظيم بالطائف ، وقصر كان لها هناك ، فتتنزه فيه ، وتجلس بالعشيات ، فيتناضل بين يديها الرماة[1] . وكان الشعراء يمرون بها وينشدونها من اشعارهم فتصلهم باعطياتها[2] .

ويذكر النميري في شعر له ، قاله في صاحبته ، ما يشير الى ترف نساء هذه الطبقة الارستقراطية في ذلك العصر :

تشتو بمكة نعمةً ومصيفها بالطائف
احب بتلك مواقفاً وبزينب من واقف
وغريرة لم يغدها بؤس وجفوة حائف
غراء يحكيها الغزال م بمقلة وسوالف[3]

وقال عمر في احدى صاحباته :

بالخيف منزلها ومسكنها وتحلّ مكة ان شتت قصرا[4]

وروى ابو الفرج ، ان سكينة ، ناقلت مالها بالزوراء ، الى قصر في العقيق ،

---

١) الاصبهاني ٦ : ٣٠ ٢) الاصبهاني ٦ : ٣٠
٣) ابن خرداذبه ١٢٤ والاصبهاني ٦ : ٣١ ٤) ابن ابي ربيعة (ع) ٢٦٨

يقال له البريدي ، ويظهر ان بعض الناس قد لامها في هـذا الامر ، او اظهروا لها انها غبنت في هذه المبادلة ، غير ان سكينة كانت تنظر بغير العين التي بها ينظرون ، اذ روى ابو الفرج ، انه لما سال العقيق ، خرجت ، ومعها جواريها ، تمشي حتى جاءت السيل ، فجلست على جرفه ، ومالت برجليهـا في السيل ، ثم قالت : كذا وكذا للمغبون ، والله لهذه الساعة في هذا القصر ، خير من الزوراء[1] .

ولم تنفرد سكينة في حبها للعقيق ، ولقصور العقيق ، ولحياة اللهو والمرح في العقيق ، بل قد شاركها في ذاك كثيرون من شريفات ذلك العصر واشرافـه كما سنرى .

### اثر احتكاك العرب بالامم المغلوبة

وتعلق العرب باسباب من حضارة الامم التي غلبوهـا ، كالفرس والروم ، بعد احتكاكهم بهم في بلادهم واتصالهم بالسبايا والرقيق الذي وزع بينهم ، فلقد بُعث الى الحجاز طائفة كبيرة من السبايا والرقيق ، وزّعت على اهـله ، بحيث قلّ ان يخلو بيت عربي منها ، فقد ذكر البلاذري ، عن الواقدي ، ان سبي قيسارية بلغوا اربعة آلاف رأس ، بعث بهم معاوية الى عمر بن الخطاب ، فقسمهم على يتامى الانصار ، وجعل بعضهم في الكتاب والاعمال للمسلمين[2] . وذكر ايضاً ان المسلمين غنموا يوم المـدائن جواري من جواري كسرى جيء بهن من الآفاق[3] . ولو شئنا تتبع اخبار السبايا والرقيق ، ممن وزّع في الحجاز ، منذ اول الاسلام الى آخر القرن الاول ، لرأينا بينهنّ طائفةً كبيرةً من بنـات الملوك والامراء وعامة الناس يصعب حصرها هنا .

### علاقة السيد برقيقه

غير اننا لا نرى بدّاً من الاشارة الى بعض العلاقات التي كانت بين العرب

---

١) الاصبهاني ١٤ : ١٧٢
٢) البلاذري ١٤٣
٣) البلاذري ٢٦٤

وهؤلاء الارقاء والسبايا من الامم المغلوبة ، ويكفي ان نعلم ان السيد العربي يحق له ان يمتلك ما استطاع من الرقيق ، ولعل القارئ لاحظ هذه الكثرة منهم فيما خلفه من الارث بعض رجال الاسلام الاول ، كأنْ يموت احدهم عن كذا وكذا من الذهب والفضة ، وعن نحو الف امة والف عبد ، وقد كان لصاحبنا عمر ، ولابيه من قبله ، عدد كبير من العبيد والجواري كما سنرى ، منهم من كانت تمالكه هذه العائلة قبل الاسلام ، ومنهم من ملكته بعد الاسلام . ويحقّ للعربي من ناحية ثانية ان يتزوج ممن شاء من السبيات اللواتي يمتلكهن ، فاذا ولدت له احداهن ، حررها وصارت ام ولد ، ولقد قصدنا التوصل الى هذه العلاقة ، لانه روي عن صاحبنا عمر ، انه ابن ام ولد .

## أثر بعض الجواري الاجنبيات

ولقد كان هذا العدد الكبير من السبايا والارقاء ، قد تحدَّر من بلدان مختلفة ، ومن طبقات اجتماعية مختلفة ، فكان بين النساء من كنّ اميرات ، او بنات ملوك ، او بنات علماء ، او بنات غنى وثروة ونعيم ، وكان منهن من كانت على مستوى راقٍ في العيش قبل سبيها ، وكان منهن من نالت حظوة في عيني سيّدها ، فاصبح لها دالة عليه ، بل ربما بلغت احداهن ان تصل الى الخليفة نفسه ، فتسيّر الكثير من امور الدولة ، تولّي وتعزل .

## حبابة وسلامة

نقول هذا ونحن نذكر حَبابة وسلّامة وما كان لهما من الشأن عند الخليفة يزيد بن عبد الملك ، حتى ذكر الرواة انه لما ولي الخلافة يزيد بن عبد الملك ، قال : ما تقر عيني بما اوتيت من الخلافة حتى اشتري سلامة جارية مصعب بن سهيل الزهري وحبابة جارية لاحق المكية ، فاشتريتا له ، فلما اجتمعتا عنده ، قال : انا الآن كما قال القائل :

فالقت عصاها واستقرت بها النوى كما قرّ عيناً بالاياب المسافرُ (١

١) الاصبهاني ١٣ : ١٥٥

## تعلم العرب بشيء من حضارة الامم المغلوبة

فنرى بعد هذا كله ، انه قد كان لاحتكاك العرب بهذه الامم المغلوبة ، واسترقاقهم من رجالها ، وتسريهم من نسائها ، واستخدامهم لهم لاسيا المتعلمين والمتعلمات منهم ، واتصالهم ببعض هؤلاء العبيد والسراري ، والموالي والمواليات الذين حرروهم ، والاختلاط معهم الى حدّ بعيد في شؤون الحياة العامة والخاصة ، اقول كان لهذا كله ، ولما كان يقع تحت انظار العرب من اساليب الحضارة والعمران في سائر البلدان التي فتحوها ، شأن في تطور الحياة الاجتماعية ليس بقليل ، واثر ليس الى انكاره من سبيل . فقد نقل هؤلاء الارقاء والموالي ، وغيرهم من اهالي الاقطار المغلوبة ، من فرس وروم وغيرهم ، الى اسيادهم العرب الغالبين ، اموراً كثيرة من اساليب حياة اقوامهم ، من مطعم ، وملبس ، واثاث ، ورياش ، وغيرها . قال ابن خلدون في مقدمته :

« واهل الدول ابداً يقلدون في طور الحضارة واحوالها الدولة السابقة قبلهم ، فاحوالهم يشاهدون ، ومنهم في الغالب يأخذون ، ومثل هذا وقع للعرب لما كان الفتح ، وملكوا فارس والروم ، واستخدموا بناتهم وابناءهم ، ولم يكونوا لذلك العهد في شيء من الحضارة ، فقد حكي انه قدم لهم المرقق ، فكانوا يحسبونه رقاعاً ، وعثروا على الكافور في خزائن كسرى ، فاستعملوه في عجينهم ملحاً ، ومثال ذلك كثير ، فلما استعبدوا اهل الدول قبلهم ، واستعملوهم في مهنهم وحاجات منازلهم ، واختاروا منهم المهرة في امثال ذلك ، والقومة عليهم ، افادوهم علاج ذلك ، والقيام على عمله ، والتفنن فيه ، مع ما حصل لهم من اتساع العيش ، والتفنن في احواله ، فبلغوا الغاية في ذلك ، وتطوروا بطور الحضارة والترف في الاحوال ، واستجادة المطاعم ، والمشارب ، والملابس ، والمباني ، والاسلحة ، والفرش ، والآنية ، وسائر الماعون والخرثي ، وكذلك احوالهم في ايام المباهاة والولائم ، وليالي الاعراس ، فاتوا من ذلك وراء الغاية »[1] .

---

١) ابن خلدون ١٥٠

## بعض ما نقلوه من حضارة الامم الاخرى

وهكذا ، فقد تعلق العرب باسباب من حضارة الامم التي غلبوها ، وتعرفوا على بعض سبل لهوهم ، وعبثهم وطرق معيشتهم ، وحاكوهم بشيء من عاداتهم واخلاقهم . ذكر البلاذري في خبر تمصير البصرة ان العرب اخذت تبني الحمامات والقصور[١].

وروى ابن عبد ربه ان ابن ابي عتيق دخل على عبد الملك ، فوجده جالساً بين جاريتين قائمتين عليه بميسان كغصني بان ، بيد كل جارية مروحة تروح بها عليه ، وقد كتب في كل منهما شعر بالذهب[٢].

وروى السيوطي عن ابن عساكر « ان اول منكر ظهر بالمدينة حين فاضت الدنيا وانتهى سمن الناس طيران الحمام والرمي على الجلاهقات .»[٣]

وروى ابو الفرج :« ان عبد الحكم بن عمرو بن عبد الله بن صفوان الجمحي ، كان قد اتخذ بيتاً فيه شطرنجات ونردات وقرقات ، ودفاتر فيها من كل علم ، وجعل في الجدار اوتادًا ، فمن جاء علّق ثيابه على وتد منها ، ثم جرّ دفترًا ، فقرأه ، او بعض ما يلعب به ، فلعب به مع بعضهم .»[٤] وينتهي ابوالفرج بحديثه عن هذا البيت ، او ان شئت فقل النادي ، الى ان الاحوص الشاعر المدني ، وهو احد اصحاب عمر في المدينة ، قد زار هذا المكان فعلّق رداءه ، وحلّ ازراره ، ثم اجترّ الشطرنج وطلب من يلعب معه[٥].

وروى ايضاً انه كان لنساء الامراء والاشراف حجلات خاصة[٦] وان اسمعيل ابن يسار النسائي ، كان يبيع النجد والفرش التي تتخذ للعرائس[٧].

وذكر ان بعض النساء كن يستعملن الاسرة ، وروى ان الغريض كان يبكي ويندب في مأتم الثريا ، صاحبة عمر ، وهو واقف بين عمودي سريرها ينوح بشعر عليها[٨].

---

١) البلاذري ٣٥٢-٣٥٥
٢) ابن عبد ربه ٣ : ٢٢٩
٣) السيوطي ٦٤
٤) الاصبهاني ٤ : ٥٢
٥) الاصبهاني ٤ : ٥٢
٦) « ٢ : ١٢٨
٧) « ٤ : ١١٩
٨) « ٢ : ١٣١

وكان بعض هؤلاء الارستقراطيين، من رجال العرب ونسائهم، لا يهملون الالتفات الى معالجة ما قد يعرض لاجسامهم مما يشوه الوجه او يسيء الى صحتهم، وكانوا يرجعون بهذا الى اطباء اخصائيين في الامر، والرواة يحدثوننا ان الفرزدق اصيب بالدبيلة (وهي داء يصيب الفم) فقدم به الى البصرة ليعالج عند رجل متطبب من بني قيس[١].

وهم يحدثوننا ايضاً انه حدث لابن ابي ربيعة في احدى مغامراته الحبية ان اصيب بلطمة، كادت تقلع ثنيتيه، فخاف ان تسقطا، فقدم البصرة، فعولجتا له فثبتتا واسودتا[٢].

بل قد زعم بعضهم ان سكينة بنت الحسين احتملت آلام عملية جراحية كبرى في وجهها، تحت حدقة العين، في سبيل ازالة سلعة، خرجت في اسفل عينها، وكان ان برئت بعد هذه العملية فيما يزعمون، وبقي اثر الحزازة في مؤخر عينها، قالوا: فكان احسن شيء في وجهها من كل حلي وزينة، ولم يؤثر ذلك في نظرها ولا في عينها[٣].

ويروى عن عثمان انه كان شد اسنانه بالذهب[٤]. وروي عن موسى ابن طلحة ايضاً انه كان شد اسنانه بالذهب[٥]. ومثل هذا ايضاً روي عن عبد الملك بن مروان[٦].

ويروي القفطي ان معاوية سيّر ابا الحكم الدمشقي، مع ولده يزيد، طبيباً الى مكة، عندما سيّر يزيد اميرًا على الحج[٧].

وكان للحجاج، فيما يروي القفطي، طبيب خاص، اشتهر في العصر الاموي، اسمه تياذوق، وكان له تلاميذ اجلة تقدموا بعده[٨]. ويروي ايضاً ان للحجاج طبيباً آخر اسمه ثاذون افرد له ترجمة مستقلة[٩].

١) الاصبهاني ١٩: ٤٦ — ٢) الاصبهاني ١: ٩١
٣) « ١٤: ١٧٢ — ٤) ابن قتيبة (م) ٩٦٠ السيوطي ٥٨
٥) ابن قتيبة (م) ١٣٠ — ٦) ابن قتيبة (م) ١٨٣
٧) القفطي ١٧٨–١٧٩ — ٨) القفطي ١٠٥
٩) القفطي ١٠٨، ويذكر ابن عبد ربه ٣: ٢٨٧ طبيباً للحجاج باسم يتادون ونخشى ان تكون هذه الاسماء محرفة، وانه ليس هناك اكثر من طبيب واحد.

## التأنق في الملبس والمطعم والزينة

وصار العرب يتأنقون في الملبس والمآكل ، واخذت بعض النساء العربيات ومولياتهن يلتفتن الى التزين في الثياب والهندام والهيئة ، ورغبن في احراز الحجارة الكريمة ، واللآلي ، وانواع الحلي ، وكن يتزين بها ، ولقد رُوي ان مصعباً اهدى عائشة بنت طلحة مرة ثماني حبات من اللآلي ، قيمتها عشرون الف دينار[١] . وان سكينة كانت تثقل ابنتها من مصعب بالحلي واللآلي ، وانها قالت : ما البستها اياه ، الّا لتفضحه[٢] .

وروى ابن سعد ان عائشة بنت سعد بن ابي وقاص ادركت نساء النبي ، وكانت تدخل عليهن ، وعليها الحلي من قلائد الذهب وفريقيات الذهب ، ولا يعبن ذلك عليها[٣] . وروى ايضاً ان حفصة بنت انس بن مالك كانت تقول : كان ابي يحلّينا الذهب ويكسونا الحرير[٤] .

وقلد بعض امراء بني اميّة النساء . قال ابو الفرج : انما اغلى الجوهر بنو امية ، ولقد كان الوليد بن يزيد يلبس منه العقود ويغيرها في اليوم مراراً كما تغير الثياب شغفاً[٥] فكان يجمعه من كل وجه ويغالي به[٦] .

وبلغ ببعضهن ان ابتدعت موضة خاصة . فقد كانت سكينة بنت الحسين تصفف شعرها بشكل جميل خاص عرف فيما بعد بالجمّة السكينية ، وقد شاعت هذه الموضة بين الرجال والنساء ، وفتنت بعض الناس فيما يظهر ، بحيث انكرها الخليفة عمر بن عبد العزيز كما يروون ، فكان اذا وجد رجلاً يصفف جمته السكينية ، جلده وحلقه[٧] .

## تفنن النساء في الملبس

واخذت النساء تلبس القمص الاسكندرانية الرقيقة ، والثياب القوهية المعصفرة تكاد تشف عن اجسادهن[٨] . واخذن يضعن على وجوههن الحجب ، او

---

١) الاصبهاني ١٠ : ٥٧ ٢) الاصبهاني ١٤ : ١٦٨ ٣) ابن سعد ٨ : ٣٤٣
٤) ابن سعد ٨ : ٣٥٢ ٥) كذا في الاصل ولعلّها « شغفًا » ٦) الاصبهاني ٦ : ١٣٩
٧) الاصبهاني ١٤ : ١٦٥ ٨) الاصبهاني ٧ : ١٤٣ و١٤٤ وابن عبد ربه ٣ : ٢٨٠ و ٢٦٣

الخمر الرقيقة، وانك لترى اثر بعض هذا في شعر اكثر شعراء ذلك العصر، وبالاخص عمر. قال يصف حديثاً بين صاحبته واحدى رفيقاتها:

واشفي البرد عنك له كي تشوقيه اذا نظرا (١

وقال يشير الى حجابها او ستارها الرقيق المصنوع من الحرير القز:

اقول وشف سجف القز عنها أشمس تلك ام قمر منيرُ (٢

وقال في ثوب اخرى:

شفّ عنها رقق جنـدي فهي كالشمس من خلال السحاب (٣

وله ايضاً، واصفاً رقة ثوب حبيبته ونعومة بشرتها:

لو دب ذرّ رويداً فوق قرقرها لاثر الذرّ فوق الثوب في البشر (٤

«ونقل عن معاذ بن جبل انه قال: انكم ابتليتم بفتنة الضراء، واني اخاف عليكم فتنة السراء، وهي النساء. اذا تحلين بالذهب، ولبسن ريط الشام وعصب اليمن، فاتعبن الغني، وكلفن الفقير ما لا يطاق»(٥.

حظ الرجال من اللبس

واخذ بعض الرجال يلبسون القلانس، ورقيق الثياب، ومصبغاتها، وثمينها وصقيلها، وكان لرجال قريش في هذا السبيل الحظ الاكبر، بحيث صار يعرف القرشي من هيئته(٦. ولنا في صاحبنا عمر خير مثال كما سنرى. وقد قال في نفسه:

من المسبغين رقاق البرود م أكسو النعال فضول الازر (٧

وذكر صاحب الاغاني، ان الشعبي دخل مرة على بشر بن مروان، عامل اخيه عبد الملك على الكوفة، فرأى عليه غلالةً صفراء رقيقة، وملاءةً تقوم قياماً من شدة الصقال(٨.

١) ابن ابي ربيعة (ع) ٢٨١ ٢) ابن ابي ربيعة (ع) ٢٨٢
٣) « « « ٧٤ ٤) « « « ٢١١
٥) ابن عبد ربه ٣: ٢٨٣ ٦) ابن عبد ربه ٣: ٢٧٩
٧) ابن ابي ربيعة (ع) (٣٠٠) وراجع اصبهاني ٢٠: ١٦٩ حيث ترى ان جريراً كان يلبس في بعض الاحيان قلنسوة وراجع ابن عبد ربه ٢: ٢٤٤ ٨) الاصبهاني ٢: ١٢٤

وذكر ابن عبد ربه، ان طويساً المغني، كان يلبس ملاءة مصقولة[1].

وذكر الطبري، ان عبيد الله بن زياد قال في خطبته امام اهل البصرة: «والله لقد لبسنا الخز واليمنة واللين من الثياب حتى لقد اجمنا ذلك واجمته جلودنا»[2].

وكان بعضهم لا يقنع في الثوب الواحد، فقد روي، ان مروان بن ابان ابن عثمان، كان يلبس سبعة قمص، كانها درج، بعضها اقصر من بعض، وفوقها رداء عدني بالفي درهم[3].

واخذوا يتأنقون في هندامهم وهيئتهم، حتى روي ان زياداً كان يفرق شعره، ويلبس قباء سندس ومطرف خز[4]. وكان جبير بن مطعم يلبس الطيلسان ويروى انه اول من لبسه بالمدينة[5]. وكان القاسم بن محمد يلبس الخز[6]. وكان عبد الله بن جعفر يهدي الهدايا بينها الكسوة والحرير[7]. ويروى عن عائشة كلام، تشير به الى تغير الحال في الملبس، قالت فيه عن ثوبها زمن النبي: «اما والله! ما كان خزاً، ولا قزاً، ولا ديباجاً، ولا قطناً، ولا كتاناً». ثم سئلت عنه، فقالت: «سداه من الشعر، ولحمته من اوبار الابل»[8]. واشترى بكر بن عبد الله المزني طيلساناً باربع مئة درهم، ثم اخذه الخياط يخيطه له، فاراد الخياط ان يقطعه (يفصّله)، فذهب ليذر عليه تراباً، علامةً لموضع القطع، فقال له بكر: لا تعجل! وامر بكافور فسحق، ثم ذرّه عليه[9]. وكان بكر حسن اللباس، وكانت قيمة كسوته اربعة الاف درهم[10].

### انكر الخلفاء الاول يرغبون عن الحياة الجديدة

ولقد انكر الخلفاء الأُول على بعض عمّالهم ورجالهم، سيرهم وراء الحياة الجديدة، حتى ان الامام عمر بن الخطاب، بعث الى ابي موسى الاشعري يوبخه، ويقول: «وقد بلغ امير المؤمنين، انه فشت لك ولاهل بيتك، هيئة في لباسك

---

١) ابن عبد ربه ٣: ٢٤١
٢) الطبري II: ٤٣٩
٣) الاصبهاني ١٧: ٨٩
٤) الطبري II: ١١٥
٥) ابن قتيبة (م) ٢٧٤
٦) ابن عبد ربه ٣: ٣٤٩
٧) ابن عبد ربه ١: ١٤٧
٨) ابن عبد ربه ١: ٢٩٤
٩) ابن قتيبة (م) ٢٣٢
١٠) ابن قتيبة (م) ٢٣٢

ومطعمك ومركبك ، ليس للمسلمين مثلها»[1].

ولما لقي معاوية عمر بن الخطاب ، عند قدومه الى الشام ، كما يذكر ابن خلدون ، ورأى زيّه من العديد والعدة ، وما هو فيه من ابهة الملك ، استنكر ذلك ، وقال : « اكسروية يا معاوية » ؟ فقال : « يا امير المؤمنين . انّا في ثغر تجاه العدو ، وبنا الى مباهاتهم بزينة الحرب والجهاد حاجة »[2].

وروى ابن ابي حديد ، « انه لما قدم عتبة بن مرثد اذربيجان ، اتي بالخبيص ، فلما اكله وجد شيئاً حلواً طيباً ، فقال : لو صنعت من هذا لامير المؤمنين . فجعل له خبيصاً في منقلين عظيمين ، وحملهما على بعيرين الى المدينة ، فقال عمر : ما هذا ؟ قالوا : الخبيص ، فذاقه ، فوجده حلواً ، فقال للرسول : ويحك ! أ كل المسلمين عندكم يشبع من هذا ؟ قال : لا ! قال : فارددهما ! ثم كتب الى عتبة : اما بعد ، فان خبيصك الذي بعثته ، ليس من كدّ ابيك ، ولا من كدّ امك ، اشبع المسلمين ممّا تشبع منه في رحلك ، ولا تستأثر فان الاثرة شرّ ، والسلام »[3].

ويروى عن عمر انه قال الى نفر من عماله ، وقد دعاهم الى طعامه ، واتاهم بخبز يابس ، واكسار بغير ادام : « لو نشاء لملأنا هذه الرحاب من صلائق وسبائك وصناب ، ولكني رايت الله تعالى نعى على قوم شهواتهم »[4].

ويروى عنه انه قال : « ائتزروا وارتدوا وانتعلوا واحتفوا . . . ودعوا التنعم وزيّ العجم »[5].

### بنو امية وعمالهم يرغبون فيها

غير ان الخلفاء الامويين بوجه عام ، وعمالهم ، كانوا يرغبون في هذه الحياة

١) ابن عبد ربه ١ : ٣٤ ٢) ابن خلدون ١٧٧

٣) ابن ابي حديد ٣ : ١٠١

٤) ابن عبد ربه ١ : ٧ وفيه ان الصلائق شيء يعمل من اللحم ، فنها ما يطبخ ومنها ما يشوى . والسبائك يريد الحوّارى من الخبز ، وذلك انه يسبك فيؤخذ خالصه والعرب تسمي الرقاق السبائك . والصناب طعام يؤخذ من الزبيب والخردل .

٥) ابن عبد ربه ١ : ٦٩

الجديدة ، وكانوا حريصين على ان يظهروا باحسن هندام واجمل زيّ . روي ان معاوية حج مرة ، فدخل المدينــة وخلفه خمس عشرة بغلة شهباء، عليها رحائل الارجوان ، فيهــا الجواري ، عليهن الجلابيب والمعصفرات ، ففتن الناس[١] .

وروي ان عبيد الله بن زياد كان اول من حصل الدواوين ، ومشي بين يديه بالعمد ، ووضع الكراسي وعمل المقصورة ولبس الزيادي[٢] .

وكان بعضهم يابى ان يلبس الرداء مــدة طويلة . ذكر صاحب التاج في اخلاق الملوك ان يزيد بن معاوية ، والوليد بن يزيد ، ويزيد بن الوليد ، كانوا لا يلبسون القميص الا لبسة واحدة ، الا ان يكون القميص نادرًا معجباً غريباً[٣] .

وروى الطبري ان العير كانت تاتي عليها الورس والحلــل من اليمن الى يزيد بن معاوية ، من عامله[٤] .

ويروى عن عبد الملك انه لبس مرة حلة تتلألأ كانها الذهب[٥] .

اما هشام بن عبد الملك ، فقد رووا انه كان مغرماً بالزينة والهنـدام ، حتى زعموا انه لم يكن في بني مروان اعطر ولا البس منــه ، وانه خرج حاجاً ، فحمل ثياب ظهره على ستماية جمل[٦] . بل لقد بلغ به تانقه ، فيما يروي الطبري ، ان كلف رجاله ان يبقروا بطون الماشية عن السخال ، يطلبون الفراء الابيض الناعم ، فيقتلون الف شاة في جلد[٧] . وهو امر ، ربما لم تحلم به اغنى سيّدة او ممثلة او ملكة من غاويات اللبس في هذا العصر .

ورووا عن عمر بن عبد العزيز ، انه كان من احسن الناس لبساً ، واطيبهم ريحاً ، واخيلهم في مشيته ، وذلك قبل ان يستخلف[٨] . وقيل انه كان يشترى له الثوب ، وهو والٍ على المدينة ، باربعمئة ، فيقول : ما اخشنه واغلظه[٩] .

---

١) ابن عبد ربه ٢ : ٢٢٧
٢) ابن عبد ربه ٣ : ٤
٣) الجاحظ (ت) ١٥٤
٤) الطبري III : ٢٧٧
٥) ابن عبد ربه ٤ : ١٤٨
٦) ابن عبد ربه ٢ : ٢٢٨
٧) الطبري I : ٢٨١٦
٨) ابن سعد ٥ : ٢٤٤
٩) ابن سعد ٥ : ٢٤٦

ومدح كثيّر عبد العزيز بن مروان وقومه، فقال :

وانت فلا تفقد ولا زال منكم امام يحيى في حجـاب مسدن
اشم من الغـادين في كل حـلةٍ يميسون في صبغ من العصب متقن
لهم ازر حمر الحواشي بطونهـا باقوامهم في الحضرمي الملسن (١

## تفننهم في المأكل

وامـا المأكل، فقد تفننوا فيه قدر مـا امكنتهم حضارتهم الجديدة، فصاروا يـأكلون، فيما يقول زيدان، السكباج، والفـالوذج، واللوزينج، والجوزاب، والخشاف، والجلاب، وغيرها، وتفننوا بمعالجة اللحوم بالالبان والخضار والتوابل، على اساليب شتى[٢].

وكان بينهم، في ذلك العصر، من كان يصنع طعام العرس، ويبيعه، فيشتريه منه من اراد التعريس من المتجملين، وممن لم تبلغ حاله اصطناع ذلك. وقد روي عن النسائي انه كان يكون عنده طعام العرسيات، فمن طرقه وجده عنده معداً[٣].

وقد حاول الحجاج مرة فيما يروون، وقد اولم في اختتان بعض ولده، ان يقلد مرازبة الفرس في ولائمهم، فاستحضر بعض الدهاقين، واخـذ يسأله عن ولائم الفرس، وقال: «اخبرني باعظم صنيع شهدته! فقال له: نعم ايها الامير: شهدت بعض مرازبة كسرى، وقـد صنع لاهل فارس صنيعاً، احضر فيـه صحاف الذهب، على اخونة الفضة، اربعاً على كل واحد، وتحمله اربع وصائف، ويجلس عليه اربعة من الناس، فاذا طعموا اتبعوا اربعتهم المائدة بصحافهـا ووصائفها، فقال الحجـاج: يا غلام، انحر الجزر، واطعم الناس»[٤]. غير ان الراوة رووا ان الحجـاج كان يقيم الولائم في رمضان، فيضع في كل يوم من ايام رمضان، الف خوان، على كل خوان عشرة انفس، وعشرة الوان، وسمكة مشوية طرية، وارزة بسكر، وكان يدور هو بنفسه على الموائد يتفقدهـا،

١) ابن عبد ربه ١ : ٣٠٢
٢) زيدان (ت) ٥ : ٧٨ ولم يذكر المصدر الذي استند اليه في هذا
٣) الاصبهاني ٤ : ١١٩
٤) ابن خلدون ١٥١

وكان يضع في غير رمضان خمسمئة خوان[١] . وكان بعض عماله يفعل ما يقارب هذا في بعض المدن[٢] . ودعا يزيد بن المهلب يوماً بغذاء لضيوفه ، فاتي بطعام ، ما انكروا منه اكثر مما عرفوا[٣] .

وولي خراسان امية بن عبد الله بن خالد لعبد الملك بن مروان ، فاقام بها مدة ثم كتب الى عبد الملك قائلاً : ان خراج خراسان لا يفي بمطبخي[٤] .

«وقيل للجارود بن ابي سبرة : ماذا تصنعون عند عبد الاعلى اذ كنتم عنده . قال : يشاهدنا باحسن استماع واحسن حديث ، ثم ياتي الطباخ ، فيمثل بين عينيه فيقول ما عندك ، فيقول عندي لون كذا وجَدْيُ كذا ، ودجاجة كذا ، ومن الحلو كذا ، قال : ولِمَ يسأل عن ذلك ؟ قال : ليقصر كل رجل عما لا يشتهي ، حتى ياتيه ما يشتهي ، ثم يأتون بالخوان فيتضايق ونتسع ويقصر ونجتهد .»[٥]

ورووا ان زيد بن عمرو بن عثمان بن عفان ، كان اجمل قرشي ، ومع ذلك فقد ذكروا عنه ، انه حج مرة ، ومعه امرأته سكينة بنت الحسين ، فلم يدع اوزة ولا دجاجة ولا بيضاً ولا فاكهة الا حمله معه[٦] .

وقد كان بعضهم كما ذكرنا يستحضر الفاكهة احياناً من الشام[٧] .

« وروي ، أن الحسن البصري قال لفرقد : بلغني انك لا تأكل الفالوذج ، قال : يا أبا سعيد ، اخاف ان لا اؤدي شكره ، قال : يا لكع ! وهل تؤدي شكر الماء البارد في الصيف ، والحار في الشتاء ، اما سمعت قول الله تعالى : يا ايها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما كسبتم .»[٨] وسمع الحسن ايضاً رجلاً يعيب الفالوذج ، فقال : « لباب البر ، بلعاب النحل ، بخالص السمن ، ما عاب هذا مسلم »[٩] .

وكانت سفرة سليمان بن عبد الملك غنيةً بالوان الطعام ، زعموا انه نزل ضيفاً

---

١) ابن عبد ربه ٣ : ٦ — ٢) ابن خلكان ١ : ١١٥
٣) « « ١ : ١١٥ — ٤) الاصبهاني ١٣ : ٥٦
٥) الجاحظ (ب) ١ : ١٢٢ — ٦) « ١٦ : ١٧٢
٧) ابن عبد ربه ٣ : ٢٤٢ — ٨) ابن عبد ربه ٣ : ٢٨١
٩) « « ٣ : ٢٨١

على شمردل، وكيل عمرو بن العاص في الطائف « فقدّم له جدياً ودجاجاً هندياً، وحريرة ، فأكل ، ثم نادى برئيس طعامه ، فقال : افرغت من غدائي ؟ قال : نعم ! قال : وما هو ؟ قال : ثمانون قدرًا ! قال : ائتني بها قدرًا قدرًا ، قال فـأكثر ما اكل من كل قدر ثلاث لقم ، واقل ما اكل لقمة »[1].

ونقل الابشيهي « ان العرب كانت لا تعرف كثرة الالوان في اطعمتهم ؛ انما كان طعامهم اللحم يطبخ بالماء والملح حتى كان زمان معاوية فاتخذ الالوان »[2].

## بعض قصص الرواة عن هذا التطور

ولعلّ بعض الرواة القدماء ، كانوا يحاولون تصوير هذا التطور ، عندما رووا القصة التالية عن مشاهدات اعرابي في حواضر المسلمين . روى ابن عبد ربه ان « محمد بن يزيد بن معاويـة ، كان نازلًا بجلب على الهيثم بن عدي ، فبعث الى ضيف له من عذرة - اعرابي - فقال له : حدّث ابا عبد الله بمـا رايت في حضر المسلمين من الاعاجيب . قال : نعم ! رايت امورًا معجبة ، منها اني دخلت قرية بكر بن عاصم الهلالي ، واذا انا بدور متباينة ، واذا خصاص بيض ، بعضها الى بعض ، واذا بها ناس كثير مقبلون ومدبرون ، وعليهم ثياب حكوا بها انواع الزهر ، فقلت لنفسي : هذا احد العيدين ، الفطر او الاضحى ، ثم رجع اليَّ مـا عزب من عقلي ، فقلت خرجت من اهلي في عقب صفر ، وقد مضى العيدان قبل ذلك . فبينا انا واقف اتعجب ، اذ اتاني رجل ، فاخذني بيدي ، فادخلني بيتاً ، قد نجد ، وفي وجهه فرش ممهدة ، وعليها شاب ينال فرع شعره كتفيه ، والناس حوله سماطين[3] ، فقلت في نفسي ، هذا الامير ، الذي يحكى لنا جلوسه وجلوس الناس حوله ، فقلت وانا ماثل بين يديه : السلام عليك ايها الامير ورحمة الله ، قال ، فجذب رجل بيدي ، وقال ليس بالامير ، اجلس ! قلت : فمن هو ؟ قال : عروس . قلت : واثكل اماه ! لرب عروس بالبادية ، قد رايته اهون على اصحابه من . . . . . فلم البث ان ادخلت الرجال علينا آنات متدوّرات من خشب ، اما

---

١) ابن عبد ربه ٣ : ٢٨٥ و ٢ : ٢٢٣ وراجع الابشيهي ١ : ١٦٤ تر اختلافاً بين الروايتين
٢) الابشيهي ١ : ١٦٢ ٣) كذا.

ما خفّ منها فتحمل حملًا ، واما ما ثقل فيدحرج ، فوضعت امامنا ، وحلّق القوم عليها حلقاً ، ثم اتينا بخرق بيض ، فالقيت عليها ، فهممت والله ان اسأل القوم خرقة منها ارقع بها قميصي ، وذلك اني رايت لها نسجاً متلاحماً ، لا يتبين له سدى ولا لحمة ، فلما بسط القوم ايديهم ، اذا هو يتمزق سريعاً ، واذا صنف من الخبز لا اعرفه ، ثم اتينا بطعام كثير من حلو وحامض وحار وبارد فاكثرت منه » . . . الخ[1]

ورووا عن اعرابي آخر ، « انه حضر سفرة سليمان بن عبد الملك ، فلما اتي بالفالوذج ، جعل يسرع فيه ، فقال سليمان : اتدري ما تاكل يا اعرابي ؟ فقال : بلى يا امير المؤمنين ! اني لاجد ريقاً هنياً ومزدرداً ليناً ، واظنه الصراط المستقيم الذي ذكره الله في كتابه »[2].

والحق ان الحياة العربية لم تستطع ان تتغلب على حياة الامم المغلوبة ، بل اخذت تخضع لها تدريجياً ، واخذت تنقل عنها بعض مظاهرها ، فكانت نتيجة هذا الفتح والاحتكاك ، كما اسلفنا ، انتصار المغلوب بكثير من عاداته ، واخلاقه وترفه ، واسباب حضارته ، واساليب لهوه ، على الغالب ، بينما ظل خاضعاً لخصمه العربي هذا الذي غلبه ، فصار بحكم الفتح نفسه سيده في غير هذه الامور .

## الغناء

وقد حمل هذا المغلوب معه اسباباً كثيرة للهو والترف والحضارة غير ما ذكرنا ، وكان من اهم ما نقله الغناء .

### الغناء القديم

ليس هنا مجال البحث المطول في مصدر هذا الغناء ، وفي الشيء الذي كانت تعرفه منه عرب الحجاز قبل الفتوحات الاسلامية ، اذ يكاد لا يختلف المؤرخون الآن ، في ان هذا الغناء الذي عرفه العصر الاموي كان غير غناء الجاهلية .

١) ابن عبد ربه ٢ : ١٢٦ ٢) ابن عبد ربه ٢ : ١٢٧

وذلك لا يعني ان العرب لم تكن تعرف شيئاً من الغناء ، فقد كان لليمن حظٌ من الحضارة والتمدن قبل الاسلام ، لم تعرفه الحجاز ، وخضعت اليمن لوقت ما ، لكل من سلطتي الاحباش والفرس ، قبل خضوعها لسلطة الاسلام ، فكان من الطبيعي ان يعرف فيها شيءٌ من الغناء . والرواة يروون لنا ان اعشى بني قيس بن ثعلبة ، كان يزور نجران ، ويمدح اساقفتها وملوكها ، ويقيم عندهم ، يسقونه الخمر ، ويسمعونه الغناء الرومي[١] . ويحدثوننا ايضاً ، ان امرأ القيس ، كان يسير في احياء العرب ، ومعه اخلاط من شذاذهم ، فاذا صادف غديراً او روضة او موضع صيد ، اقام ، فذبح لمن معه في كل يوم ، وخرج الى الصيد فتصيد ، ثم عاد ، فاكل ، واكلوا معه ، وشرب الخمر ، وسقاهم ، وغنته قيانه[٢] .

بل هناك اخبار تشير الى ان اهل المدينة — وبين اهل المدينة واليمن علاقة لا تنكر — كانوا يحبون الغناء ، ويعجبهم الغزل ، ويروى ان النبي العربي قال لعائشة : اهديتم الفتاة الى بعلها ؟ قالت : نعم ، قال : فبعثتم معها من يغني؟ قالت : لا ، قال : او ما علمت ان الانصار قوم يعجبهم الغزل ، الا بعثتم معها من يقول :

اتيناكم اتيناكم فحيونا نحييكم
ولولا الحبة السمراء لم نحلل بواديكم[٣]

ويروون انه كان عند حسان بن ثابت ، زمن النبي ، جارية تغنيه بزهرها[٤] وانه كان عند جبلة بن الايهم الغساني مغنيات روميات ، يغنين بالرومية بالبرابط ، ومغنيات اخريات ، يغنين غناء اهل الحيرة ، وانه كان يفد اليه من يغنيه من العرب من مكة وغيرها[٥] .

ويروي القفطي ان الحرث بن كلدة ، الطبيب العربي الجاهلي ، كان يضرب العود ، وقد تعلم ذلك من فارس واليمن ، ويقال انه ادرك الاسلام[٦] .

١) الاصبهاني ٦ : ٧٣
٢) الاصبهاني ٨ : ٦٨
٣) ابن عبد ربه ٣ : ٢٢١
٤) « ١٠ : ١٦٩
٥) الاصبهاني ١٦ : ١٥
٦) القفطي ١٦٣

وذكر ابن عبد ربه شيئاً عن اصل الغناء ومعدنه فقال: «وانما كان اصل الغناء ومعدنه في امهات القرى من بلاد العرب ظاهرًا فاشياً، وهي المدينة والطائف وخيبر ووادي القرى ودومة جندل واليمامة، وهذه القرى مجامع اسواق العرب»[1].

نعم! لسنا نشك في ان العرب كانت تعرف الغناء، وانه كان للحجاز بعض الحظ منه، ولكنّ هذا الغناء، فيما يظهر من اخبار الرواة، لم يكن واسع الانتشار، كما صار في صدر الدولة الاموية، ولا كان متقناً كالغناء الذي اشرنا اليه في اول الكلام، فان هذا غناء جديد، ادرك المؤرخون جدّته، واهميته، ورقته، واثره، وسرعة انتشاره. حدث خارجة بن زيد عن غناء شهده حسان بن ثابت، فقيل لخارجة: كان يكون هذا الغناء عندكم؟ قال: يكون في العرسان، ولم يشهد بما يشهد به اليوم من السعة[2]. وقال ابن عبد ربه: ان اول من غنى في الاسلام الغناء الرقيق، طويس، وقد علّم ابن سريج والدلال ونوْمة الضحى[3].

## مصدر الغناء الجديد

ويظهر ان هؤلاء الرواة والمؤرخين قد ادركوا ان مصدر هذا الغناء الجديد، في العصر الاموي، كان من غير الجزيرة، فقد روى ابو الفرج ان اول من غنى هذا الغناء العربي بمكة، ابن مسجح، مولى بني مخزوم، وذلك انه مرّ بالفرس، وهم يبنون المسجد الحرام، فسمع غناءهم بالفارسية، فقلبه في شعر عربي، وهو الذي علّم ابن سريج والغريض[4]. وذكر في موضع

١) ابن عبد ربه ٣: ٢٤١

٢) الاصبهاني ١٦: ١٥ ٣) ابن عبد ربه ٣: ٢٤١

٤) الاصبهاني ٣: ٨٤ وراجع الاصبهاني ١: ١٥١ وفيه «ان ابن محرز، كان يسكن المدينة مرة، ومكة مرة، فاذا اتى المدينة، اقام بها ثلاثة اشهر، يتعلم الضرب من عزة الميلاء، ثم يرجع الى مكة، فيقيم بها ثلاثة اشهر، ثم يشخص الى فارس، فيتعلم الحان الفرس، وغناءهم، ثم صار الى الشام، فتعلم الحان الروم، واخذ غناءهم، فاسقط من ذلك ما لا يستحسن من

آخر ، ان ابن مسجح هذا ، رأى الفرس يغنون بالفارسية ، وهم يبنون دور معاوية ، فاشتق غناءه على ذلك[1] . وفي الموضع نفسه ، انه اول من غنى الغناء العربي المنقول عن الفارسي . ويقول عنه في موضع قبل ذلك : « انه نقل غناء الفرس ، الى غناء العرب ، ثم رحل الى الشام ، واخذ الحان الروم والبزنطية والاسطوخوسية ، وانقلب الى فارس ، فاخذ بها غناء كثيراً ، وتعلم الضرب ، ثم قدم الى الحجاز ، وقد اخذ محاسن تلك النغم ، والقى منها ما استقبحه ، من النبرات والنغم التي هي موجودة في نغم الفرس والروم ، خارجة عن غناء العرب ، وغنى على هذا المذهب ، فكان اول من اثبت ذلك ، ولحنه وتبعه الناس »[2] .

وهناك رواية اخرى ، في كتاب ابي الفرج نفسه ، تشير الى ان اول من عمل العود بالمدينة ، وغنى به ، سائب خاثر ، مولى بني ليث ، واصله من فيء كسرى ، وانه اخذ عن اماء ناتجات ، اتي بهن الى المدينة ، وعن رجل فارسي يسمى نشيطاً ، كان يغني بالفارسية . فصنع مثل غنائه بالعربية[3] .

وقد ذكر ابن رشيق شيئاً عن انواع الغناء عند العرب ، فوصف الاوجه التي كان عليها قبل الاسلام ، من حداء وغيره ثم قال : « قال اسحق [ ويعني به اسحق بن ابرهيم الموصلي ] هذا كان غناء العرب ، حتى جاءهم الله بالاسلام ، وفتحت العراق ، وجلب الغناء الرقيق من فارس والروم ، فغنوا الغناء المجزأ المؤلف ، بالفارسية والرومية ، وغنوا جميعاً بالعيدان والطنابير والمعازف والمزامير . »[4]

وروى ابو الفرج ، ان ابن خرداذبه نسب الى اكثر الخلفاء غناء تغنوا به ، وذكر بينهم عمر بن الخطاب ، ثم انتقد ابو الفرج رواية ابن خرداذبه ، لاسيا في ما يتعلق بعمر ، فقال : « فاما عمر بن الخطاب ، فلو جاز هذا ، (اي الغناء) ان يروى عن كل احد ، لبعد عنه ، وانما روي ، انه تمثل بهذا البيت ، وقد ركب

---

نغم الفريقين ، واخذ محاسنها ، فزج بعضها ببعض ، والف منها الاغاني التي صنعها في اشعار العرب ، فاتى بما لم يسمع مثله ، وكان يقال له صناج العرب . »

١) الاصبهاني ٣ : ٨٦ ٢) الاصبهاني ٣ : ٨٤

٣) « ٧ : ١٨٨ ٤) ابن رشيق ٢ : ٢٤١

ناقةً ، فاستوطأها ، لا انه غنى به ، ولا كان الغناء العربي عرف في زمانه ، الا ما كانت العرب تستعمل من النصب والحداء ، وذلك جارٍ مجرى الانشاد ، الا انه يقع بتطريب وترجيع يسير وترفيع للصوت »[١].

وذكر المسعودي ، ان في ايام يزيد ، ظهر الغناء ، بمكة والمدينة ، واستعملت الملاهي[٢].

## الغناء الجديد بنقل بعد الفتح

نستخلص من هذا كله ، ان هذا الغناء الذي نشير اليه ، هو غناء جديد ، انتشر في الحجاز اول الامر ، بعد احتكاك العرب بالامم المغلوبة ، وبعد استرقاقهم هذه الالوف من الرقيق ، واستخدامهم العدد الكبير من هؤلاء العمّال الاجانب في مشاريعهم المختلفة في الحجاز.

## انتشار الغناء واثره

وهكذا فقد كان الغناء من اهم الامور التي نقلها المغلوب الى الغالب. نقلها ، كما قلنا ، الارقاء والموالي — من الرجال والنساء — الذين صاروا بحكم الفتح والدين الجديد ، عنصراً مهماً في هذه الدولة الجديدة ، لهم علاقات وثيقة مع اسيادهم. وما ان احتكّ هذا الجيل ، من السبايا والرقيق ، عبيداً وموالي ، باسيادهم الارستقراطيين ، من رجال العرب ونسائهم ، حتى اخذت النظم الاجتماعية لهؤلاء العرب انفسهم ، تتغير شيئاً فشيئاً. وصرنا نرى مجالس اللهو والغناء ، لم تألفها الحجاز من قبل ، وصار هذا الغناء فنّاً منظماً يقصد اليه ، له انظمته ، وله حدوده ، وله رجاله واصحابه ومعلموه ، ولم يكن كذلك من قبل. واخذ يسير مع الترف جنباً الى جنب ، وانتشر في الحجاز انتشاراً عظيماً ، لاسيا في بلد النبي ، وفي دار هجرته ، وملك على شباب العرب قلوبهم وعقولهم فاحبوه وشغلوا به ، بحيث نرى الآن كتب الادب القديمة مشحونة باخباره وانتشاره واثره في نفوس اهل ذلك الجيل.

---

١) الاصبهاني ٨ : ١٤٩ ٢) المسعودي ٥ : ١٥٧

## اعرابي يحضر عرساً في بلد

حدث اعرابي بما رأى في حاضر المسلمين يوم عرس ثم قال في آخر حديثه: « وكان معنا في البيت شاب لا آبه له ، فعلت الاصوات بالثناء عليه والدعاء ، فخرج فجاء بخشبة ، عيناها في صدرها ، فيهـا خيوط اربعة ، فاستخرج من خلالهـا عوداً ، فوضعه خلف أذنه ، ثم عرك آذانها وحركها بخشبة في يده فنطقت ورب الكعبة ، واذا هي احسن قينة رأيتها قط ، وغنى عليها فاطربني حتى استخفني من مجلسي ، فوثبت فجلست بين يديـه ، وقلت : بابي انت وأمي ، ما هذه الدابة ؟ فلست اعرفها للاعراب ، وما اراها خلقت الا قريباً ، فقال : هذا البربط ، فقلت: بابي انت وأمي ، فما هذا الخيط الاسفل ؟ قال : الزير ، قلت : فالذي يليه ؟ قال : المثنى ، قلت : فالثالث ؟ قال : المثلث ، قلت : فالاعلى ؟ قال: البم ، فقلت : آمنت بالله اولاً ، وبك ثانياً ، وبالبربط ثالثاً ، وبالبم رابعاً ! »[1]

ايمان جديد ، بشيء جديد ، لم يعرفه هـذا الاعرابي للاعراب ، ولم يره خلق الا قريباً .

## احد ولاة المدينة والغناء

ورواية أخرى ، تشير الى اثر هـذا الغناء في نفوس اهل ذلك الجيل ، رواها المبرد في كامله ، وابو الفرج في اغانيه ، قال الاخير : « لما قدم عثمان ابن حيان المري المدينة والياً عليها ، قال له قوم من وجوه الناس : انك قد وليت على كثرة من الفساد ، فان كنت تريد ان تصلح ، فطهرها من الغنـاء والزنا ، فصاح في ذلك واجل اهلها ثلاثاً يخرجون فيها من المدينة ، وكان ابن ابي عتيق غائباً ، وكان من اهل الفضل والعفاف والصلاح ، فلما كان آخر ليلة من الاجل ، قدم ، فقـال : لا ادخل منزلي حتى ادخل على سلامة القس ، فدخل عليها فقال : مـا دخلت منزلي حتى جئتكم اسلم عليكم ، قالوا ما

١) الاصبهاني ١٢ : ٢٦ وراجع ابن عبد ربه ٢ : ١٢٧

اغفلك عن امرنا ، واخبروه الخبر ، فقال : اصبروا الى الليلة ، فقالوا : نخاف ان لا يمكنك شيء ، وتنكص ، قال: ان خفتم شيئاً فاخرجوا في السحر. ثم خرج فاستأذن على عثمان بن حيان ، فاذن له ، فسلّم عليه ، وذكر له غيبته ، وانه جاءه ليقضي حقه ، ثم جزّاه خيرًا على ما فعل من اخراج اهل الغناء والزنا ، وقال : ارجو ان لا تكون عملت عملاً هو خير لك من ذلك ، قال عثمان : قد فعلت ذلك ، واشار به عليَّ اصحابك ، فقال : قد اصبت ، ولكن ما تقول امتع الله بك ، في امرأة ، كانت هذه صناعتها ، وكانت تكره على ذلك ، ثم تركته واقبلت على الصلاة والصيام والخير ، واني رسولها اليك تقول : اتوجه اليك ، واعوذ بك ان تخرجني من جوار رسول الله صلى الله عليه وسلّم ومسجده ، قال : فاني ادعها لك ولكلامك ، قال ابن ابي عتيق : لا يدعك الناس ، ولكن تأتيك ، وتسمع من كلامها ، وتنظر اليها ، فان رأيت ان مثلها ينبغي ان يترك ، تركتها ، قال : نعم ، فجاءه بها ، وقال لها : اجعلي معك سُبحةً ، وتخشعي ، ففعلت ، فلما دخلت على عثمان حدثته واذا هي من اعلم الناس بالناس ، واعجب بها ، وحدثته عن آبائه واموره ، ففكه لذلك ، فقال لها ابن ابي عتيق : اقرأي للامير ، فقرأت له ، فقال لها : احدي له ، ففعلت ، فكثر تعجبه ، فقال : كيف لو سمعتها في صناعتها ، فلم يزل ينزله شيئاً فشيئاً ، حتى امرها بالغناء ، فقال لها ابن ابي عتيق : غنّي ، فغنّت :

سددن خصاص الخيم لما دخلنه بكل لبان واضح وجبين

فغنته ، فقام عثمان من مجلسه ، فقعد بين يديها ، ثم قال : لا والله ما مثل هذه تخرج ، قال ابن ابي عتيق : لا يدعك الناس ، يقولون اقرَّ سلامة واخرج غيرها ، قال فدعوهم جميعاً ، فتركوهم جميعاً »[1].

## الاشراف والغناء

ورووا ان الغريض ، مغنّي ابن ابي ربيعة ، ورفيق لهوه ، انشد الحارث بن خالد المخزومي ، والي مكة لعبد الملك بن مروان :

١) الاصبهاني ٨ : ١٠ والمبرد ١ : ٢٧٦ وفيه « الرثاء » بدل « الزنا »

عفت الديار فما بها اهل    حزّانها ودماثها السهلُ

« فقال له الحارث : يا غريض ! لا لوم في حبك ، ولا عذر في هجرك ، ولا لذة لمن لا يروح قلبه بك ، يا غريض ! لو لم يكن لي في ولايتي مكة حظ الا انت ، لكان حظاً كافياً وافياً ، يا غريض ! انما الدنيا زينة ، فازين الزينة ما فرّح النفس ، ولقد فهم قدر الدنيا على حقيقته من فهم قدر الغنا.»[1].

ورووا ايضاً ان الحسن بن علي بن ابي طالب ، خرج يوماً على بغلته الى العقيق ، وقد سال الوادي ، فرأى ابن عائشة المغني ، فارغمه على ان يغني مئة صوت ، واندفع ابن عائشة يغني ، ويفتن بصوته قلوب الناس . زعموا انه ما رُؤي يوم احسن من ذلك اليوم ، تركوا به اعمالهم وصرفهم ابن عائشة عن كل شيء ، فما رفعت اصواتهم الا باحسنت والله ! احسنت والله ! وتبادروا اليه من المدينة ، وما حولها ، حيث بلغهم الخبر لاستماع غنائه ، ثم انصرفوا حوله يزفونه الى المدينة زفاً[2].

ولما ولي ابان بن عثمان بن عفان المدينة لمعاوية ، جاءه طويس ووقف بين يديه ، وغناه فاطربه ، فصفق ابان بيديه ، ثم قام عن مجلسه ، فاحتضنه ، وقبّله بين عينيه ، وقال : يلومونني على طويس[3].

ونمي الى عبد الملك بن مروان ، ان سعيد بن مسجح المغني ، افسد فتيان قريش ، وانفقوا عليه اموالهم ، فكتب الى عامله ان اقبض ماله وسيّره اليَّ ، ففعل . واحتال ابن مسجح ، قبل ظهوره امام عبد الملك ، في ان استعان باحد القرشيين في دمشق ، وحدا في بيت هذا القرشي المجاور لقصر عبد الملك ، وكان القرشي عند عبد الملك ، فسأله عن صاحب هذا الصوت ، قال : حجازيٌّ ، قدم عليَّ ، قال : احضره ، فاحضره ، وقال له : احد مجدًا ، ثم قال له : هل تغني غناء الركبان ؟ فغناه ، فقال له : هل تغني الغناء المتقن ؟ قال : نعم . قال :

---

١) الاصبهاني ٣ : ١٠٧

٢) « ٢ : ٦٣ – ٦٤ وراجع طبعة دار الكتب من الجزء نفسه ص ٢٠٦ وابن عبد ربه ٣ : ٢٤٥

٣) ابن عبد ربه ٣ : ٢٤١

غنه ! فتغنى ، فاهتز عبد الملك طرباً ، ثم قال : اقسم ان لك في القوم لاسماً عظيماً ، من انت ويلك ؟ فقـال سعيد : انا المظلوم ، المقبوض ماله ، المسيّر عن وطنه ، سعيد بن مسجح . فتبسم عبد الملك ثم قال له : لقد وضح عذر فتيان قريش في ان ينفقوا عليك اموالهم . وامنه ، ووصله ، وكتب الى عامله برد ماله عليه ، وان لا يعرض له بسوء[1].

## عامة الناس والغناء

ورواية أخرى تشير الى نظر هؤلاء القدماء الى الغناء ، واثره في عامة الناس. زعموا ان جميلة المغنية ، رأت حلماً ، فازعجها وافزعها ، فدعت بالناس، وجلست لهم مجلساً عاماً ، ثم ذكرت لهم حلمها ، واظهرت لهم فزعها ، ورعبها ، وخوفها من قرب اجلها ، وعزمهـا على ان تترك الغناء كراهة ان يلحقها منه شيء عند ربها ، فقـال قوم منهم : وفقك الله ، وثبّت عزمك ، وقال آخرون : بل لا حرج عليك في الغناء . وكان هناك شيخ ، ذو سن وعلم ، وفقه وتجربة ، فقام وخطب خطبة ، ان لم تكن حقاً قد صدرت عن رجل في مناسبة مثل تلك ؛ فهي تمثل نظر هؤلاء الحجازيين الى الغناء ، او على الاقل ، تمثل نظر الرواة الى الغناء ، من حيث الأمر الذي كان يتركه في نفوس الحجازيين ، في ذلك الزمن ، وهي على كل حال ، تعطينا صورة ، لا بأس بها ، من رأي الرواة في الغناء ، ودرجة رقيه في هذه العصور العربية الاولى. قال :

« قال الشيخ : قد تكلّمت الجماعة ، وكل حزب بما لديهم فرحون ، ولم اعترض عليهم في قولهم ، ولا شركتهم في رأيهم ، فاستمعوا الآن لقولي ، وانصتوا ولا تشغبوا الى وقت انقضاء كلامي ، فمن قبل قولي ، فالله موفقه ، ومن خالفني ، فلا بأس عليه ، اذ كنت في طاعة ربي. فسكت القوم جميعاً ، فتكلم الشيخ ، فحمد الله ، واثنى عليه ، وصلّى على محمد النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : يا معشر اهل الحجاز ، انكم متى تخاذلتم فشلتم ، ووثب عليكم عدوكم ، وظفر بكم ، ولا تفلحوا بعدها ابدًا ، انكم قد انقلبتم على اعقابكم لاهل

1) الاصبهاني ٣ : ٨٧ .

العراق وغيرهم ممّن لا يزال ينكر عليكم ما هو وارثه عنكم ، لا ينكره عالمكم ولا يدفعه عابدكم ، بشهادة شريفكم ووضيعكم ، يندب اليه كما يندب جموعكم وشرفكم وعزكم ، فاكثر ما يكون عند عابدكم فيه الجلوس عنه لا للتحريم لكن للزهد في الدنيا ، لأن الغناء من اكبر اللذات ، واسرّ للنفوس من جميع الشهوات ، يحيي القلب ، ويزيد في العقل ، ويسرّ النفس ، ويفسح في الرأي ، ويتيسّر به العسير ، وتفتح به الجيوش ، ويذلل به الجبّارون حتى يمتهنوا انفسهم عند استماعه ، ويبرئ المرضى ومن مات قلبه وعقله وبصره، ويزيد اهل الثروة غنى ، واهل الفقر قناعة ورضا باستماعه ، فيعزفون عن طلب الاموال . من تمسك به كان عالماً ، ومن فارقه كان جاهلاً ، لانه لا منزلة ارفع ولا شيء احسن منه ، فكيف يستصوب تركه ولا يستعان به على النشاط في عبادة ربنا عز وجل . وكلام كثير غير هذا ذهب على المحدّث ، قال : فما ردّ عليه احد ، ولا انكر ذلك منهم بشرٌ ، وكل عاد بالخطأ على نفسه واقر بالفضل ، ثم قال لجميلة : اوعيتِ ما قلت ، ووقع من نفسك ما ذكرت ؟ قالت : اجل ! وانا استغفر الله ! قال لها : فاختمي مجلسنا وفرقي جماعتنا بصوت فقط ! فغنت :

افي رسم دار دمعك المترقرق سفاها وما استنطاق ما ليس ينطقُ

فقال الشيخ : حسن والله ! امثل هذا ينزل فيه مشاهد الرجال ، لا والله ! لا ينزل هذا ولا كرامة لمن خالف الحق . ثم قام ، وقام الناس معه ، وقال : الحمد لله الذي لم يفرّق جماعتنا على اليأس من الغناء ، ولا جحود فضيلته ، وسلام عليك ورحمة الله يا جميلة »[١] .

هذا قليل من كثير ، مما شغل صفحات عديدة من كتاب الاغاني وغيره من كتب الادب والتاريخ ، فلقد اثر هذا الغناء كثيراً في نفوس فتيان العرب من اهل ذلك الجيل ، فغيّر من خلقهم ، ولطف من مزاجهم ، ورقق من طباعهم ، فعمدوا الى اللهو ، واخذوا باسبابه ، واستطاع المغنون والمغنيات من مواليهم ، ان يحدثوا بعض التأثيرات في الغناء الاجنبي كما رأيت[٢] ، بحيث يستسيغه الذوق العربي الجديد الذي اخذ يتطور بدوره مع التطورات التي مرت بها الامة العربية .

١) الاصبهاني ٧ : ١٤٢-١٤٣ ٢) الاصبهاني ٤ : ١٥١ وابن عبد ربه ٣ : ٢٤٦

## الشعراء والغناء

ولقد كان الشعراء اولى الناس في ان يؤثر في حياتهم هذا الغناء، والواقع كان كذلك، فكان الشعراء اقرب الناس الى المغنين، وكان كل من الفريقين محتاجاً الى صاحبه، راغباً في التمتع بلذة فنه، كل شاعر طروب، وكل مغنٍّ يرغب في الرقيق من الشعر، لقد كان شاعرنا ابن ابي ربيعة يسمع غناء جميلة كما سنرى، فيطرب حتى يكاد يسقط مغشياً عليهِ فيما يزعمون، وكان الحرث بن خالد المخزومي الشاعر يقول، كما اشرنا: لقد فهم قدر الدنيا من فهم قدر الغناء .

ووفد جرير على المدينة، فانشده بعض مغنيها غناء في بعض شعره، فاعجب بذاك، فقال له بعض اهل المجلس: فكيف لو سمعت واضع هذا الغناء؟ قال: وان له لواضعاً غير هذا؟ فقالوا: نعم! هو ابن سريج المكي، فاخذ على نفسه الا يفارق الحجاز حتى يسمعه، وسار يطلبه في مكة، وسمعه، فزاد اعجابه بالغناء، وقال: «يا اهل مكة، ماذا اعطيتم! والله لو ان نازعاً نزع اليكم، ليقيم بين اظهركم، فيسمع هذا صباح مساء، لكان اعظم الناس حظاً ونصيباً، فكيف ومع هذا بيت الله الحرام، ووجوهكم الحسان، ورقة السنتكم، وحسن شارتكم، وكثرة فوائدكم»[1].

وكان المغنون يدركون قيمة الشعر الجميل فيلحون على الشعراء في ان ينظموا لهم الاشعار، وكان ابن سريج والغريض المغنيان الكبيران في العصر الاموي، من اصحاب عمر، وكانا كثيري الملازمة له كما سنرى، فلا تكاد تقع له حادثة حب او واقعة غرام، حتى ينظم فيها الشعر، وما يكاد يفرغ من نظم هذه الاشعار، حتى يلتقطاها ويضعا عليها الالحان، ويذيعاها في الناس، فتنتشر في كل الاقطار العربية، وما اجمل الشعر الرقيق ينشده المغني المطرب بلحن عذب جميل، وقد قرن شعر عمر بلحن ابن سريج فكان فتنة قريش، حتى قيل: اذا اعجزك ان تطرب القرشي فغنه بشعر ابن ابي ربيعة ولحن ابن

---

١) الاصبهاني ١: ١١٧

سريج ، فانك ترقصه ترقيصاً[١] . وهكذا ، فقد كان ابن ابي ربيعة ورفاقه من شعراء الغزل ، من اهم العوامل التي ساعدت على تشجيع الغناء ، وتغذيته بالمنظومات الخاصة ، كما كان الغناء بدوره عاملاً على تنمية هذا الفنّ الجديد من الشعر .

### الحجاز مهد الغناء

والمهم ان نعلم ان مهد هذا الغناء الجديد كان الحجاز لا الشام ، حتى ولا العراق[٢] . وكانت المدينة اكثر مدن الحجاز حظاً منه ، حتى عرفت فيما بعد بالغناء ، كما عرف العراق بالشراب . روى ابن عبد ربه ان الزهري قال : « قال لي ابو يوسف القاضي ، ما اعجب امركم يا اهل المدينة في هذه الاغاني ، ما منكم شريف ولا دنيء يتحاشى عنها ، قال فغضبت ، وقلت : قاتلكم الله يا اهل العراق ، ما اوضح جهلكم ، وابعد من السداد رأيكم ، متى رأيت احداً سمع الغناء ، فظهر منه ما يظهر من سفهائكم هؤلاء الذين يشربون المسكر ، فيترك احدهم صلاته ، ويطلق امرأته ، ويقذف المحصنة من جاراته ، ويكفر بربه ، فاين هذا من هذا ؟ »[٣]

ويظهر ان هذا الامر ظلّ مشهوراً معروفاً ، وبلغ الاندلس ، فقال احد ادبائها في القرن الثالث :

دينُنا في السماع دين مـديني (م) وفي شربنا الشراب عراقي[٤]

ولم يفت بعض طلّاب اللهو ممن اتيحت لهم فرصة القدوم الى المدينة ، ان يطلبوا الاستمتاع بلذة سماع الغناء فيها ، وقد روي عن الفرزدق ، حين قدم المدينة ، انه نزل على الاحوص الشاعر ، فسأله هـذا عمّا يشتهيه ، فقال شواء وطلاء وغناء ، فاخذه الاحوص الى قينة وغنته[٥] .

---

١) الاصبهاني ١ : ١١٢ وابن عبد ربه ٣ : ٢٥٥

٢) ابن عبد ربه ٣ : ٢٤٠ وفيه « اختلف الناس في الغناء فاجازه عامة اهل الحجاز وكرهه عامة اهل العراق »

٣) ابن عبد ربه ٣ : ٢٣٣ ٤) جبور ١٧ ٥) الاصبهاني ٧ : ٤١

### رقي الغناء

ويظهر ان الغناء قد بلغ في ذلك العصر من الرقيّ مبلغاً كبيراً ، ومن يطالع كتب « فارمر » و« ريبيرا » المستشرقين اللذين عنيا بدرس غناء العرب وموسيقاهم يستوثق مما نذهب اليه.[١]

وفي الكتب العربية اخبار كثيرة تدل على ازدهار الغناء ، او كثرة الطلب على سماعه ، بحيث اتخذت له اندية خاصة ، فيها مغنون اخصاء ، وعُقدت له اجتماعات خاصة ، منها ما قصر على تكريم مغنٍّ ، كما فعلت سكينة ، حينما وفد حنين على المدينة ، فدعته الى منزلها ، واذنت للناس اذناً عاماً ، فلم يُرَ يوم كان اكثر حشراً ولا جمعاً من يومئذ[٢] ، ومنها ما كان لغير ذاك . ولقد وصف ابو الفرج حفلة خاصة اقامتها جميلة لطائفة من مغنّي الحجاز ، اشترك فيها جميعهم . فغنى كل واحد بدوره ، وقرظت كل واحد بدوره ، ثم دنا الغداء ، فاولمت لهم ، واتتهم بالوان من الاطعمة وانواع من الفاكهة ، ثم ما زالوا يومهم ذلك باطيب مجلس واحسن حديث ، حتى جنّهم الليل ، فدعت بالشراب ، ثم دعت لكل واحد منهم بعود ، واخذت هي عوداً ، فضربت ، ثم قالت : اضربوا ، فضربوا عليها بضرب واحد ، ثم غنّت بشعر لامرئ القيس ، « فما سمع السامعون بشيء احسن من ذلك ، ثم قالت : تغنوا جميعاً بلحن واحد ! فغنوها هذا الشعر والصوت بعينه كما غنته ، وعلم القوم ما ارادت بهذا الشعر ، فقال ابن عائشة : جعلت فداك ، نرجو ان يدوم مجلسنا ، ويؤثر اصحابنا المقام بالمدينة ، فنواسيهم من كل ما غلكه ، قال ابو عباد : وكيف بذاك ، ثم باتوا بانعم ليلة واحسنها . قال اسحق : قال ابي : قال لي يونس : قال ابو عباد : لا اعرف يوماً واحداً مذ عقلت ، ولا ليلة عند خليفة ولا غيره ، مثل ذلك اليوم ، ولا احسبه يكون بعد ، قال يونس : ولا ادركنا نحن مثل ذلك اليوم ولا بلغنا . قال اسحق : ولا انا ، ولا احسب ذلك اليوم يكون بعد[٣] ».

---

١) راجع جبور ١٢–١٤ ٢) الاصبهاني ٢ : ١٢٧
٣) الاصبهاني ٧ : ١٢٨–١٢٩

## جميلة وحفلاتها — المغنون يلبسون لباساً خاصاً

وكانت جميلة هذه تقيم بالمدينة حفلات الغناء لعبد الله بن جعفر وابن ابي عتيق وعمر بن ابي ربيعة وصحبهم من الشعراء وطلاب اللهو[1] . وكانت في بعض الحفلات تتخذ لباساً خاصاً ، وتلبس من كان عندها من المغنين مثل ذاك[2] .

## مدرستها

وكان عندها ، فيما يروي ابو الفرج ، مدرسة للغناء تعلم الجواري فيها ، وعنها اخذ معبد وابن عائشة وحبابة وسلامة وعقيلة العقيقية والشماسيتان خليدة وربيحة[3] .

## عزة الميلاء

وشيء يقرب من هذا بلغته عزة الميلاء في المدينة ايضاً ، بحيث زعموا انها فتنت رجالها ونساءها . ورووا ان امير المدينة بعث رسولاً اليها يقول لها : دعي الغناء ، فقد ضج اهل المدينة منك ، وذكروا انك فتنت رجالهم ونساءهم ! غير ان ابن جعفر وابن ابي عتيق كانا حاضرين معها ، فارجعا الرسول ورداه الى اميره خائبا ، وقالا لها : لا يهولنك ما سمعت وهاتي فغنينا[4] .

## المستمعون كأن على رؤوسهم الطير

ورووا انها كانت اذا جلست جلوساً عاماً ، فكأن الطير على رؤوس اهل مجلسها ، من تكلم او تحرك نقر رأسه[5] .

## اين ينشد الغناء

وكان الغناء اكثر ما ينشد في مثل هذه الحفلات التي ذكرنا ، وفي الولائم ، وفي الاعراس ، وفي حفلات الختان ، وحلقات اللهو ، والمتنزهات كوادي العقيق وغيره ، كما وان المغنين كانوا يطربون الحجاج على طريق مكة ، وفي مكة نفسها ايام الحج .

---

١) الاصبهاني ٧ : ١٢٩–١٣٥ و١٤٥–١٤٦ ٢) الاصبهاني ٧ : ١٤٢–١٤٤
٣) « ١٢٤ : ٧ ٤) « ١٦ : ١٩–٢٠
٥) « ١٦ : ١٤

روت امرأة قالت : سمعت ابن سريج على اخشب منى غداة النفر يغني :

جدّدي الوصل يا قريب وجودي لمحبّ فراقه قد المّا
ليس بين الحياة والموت الا ان يردوا جمالهم فتزما

قالت : فما تشاء ان تسمع من خباء ولا مضرب حنيناً ولا انيناً الا سمعته[1] . بل روى الرواة انه كان ، في اطراف مكة ، دار ياتيها ابن سريج والغريض المغنيان ، في كل جمعة ، ويجتمع لها ناس كثير ، فيوضع لكل واحد منهما كرسي يجلس عليه ، ثم يتناقضان الغناء ، ويترادانه[2] . وكان لبعضهم دار بقعيقعان بمكة يجتمع فيها مغنو البلدة[3] . وقد انتشر في الحجاز كما راينا ثم صار يصدر منها الى سائر الاقطار الاسلامية .

الخلفاء والغناء

ولم يفت بعض الخلفاء الامويين المتقدمين ، ان يستمعوا الى هذا الغناء ، سواء اكان ذلك في الشام او في الحجاز ، والرواة يذكرون ، انه لما قدم عبد الله ابن جعفر وافداً على معاوية ، انزله في داره ، فسمعت امرأة معاوية فاختة غناء عند ابن جعفر ، فشكت ذلك الى معاوية ، فجاء ، وحضر وسمع شيئاً حركه واطربه ، وقال : والله اني لاسمع شيئاً تكاد الجبال تخر له ، وما اظنه الا من تلقية الجن[4] . وهم يذكرون ايضاً ان معاوية استمع على يزيد ذات ليلة ، فسمع عنده غناء اعجبه ، فلما اصبح ، قال : من كان ملهيك البارحة ؟ قال : سائب خاثر ! قال : فاكثر له من العطاء[5] . وتروى عن معاوية قصص اخرى عن استماعه للغناء وطربه له[6] .

اما يزيد ابنه ، فكان اكثر حظاً منه في هذا السبيل ، وكذلك قل عن عبد الملك بن مروان . واذا تعديتهما الى بعض الخلفاء المتأخرين ، الفيت اقبالاً على الغناء ، وتشجيعاً للمغنين . حتى سليمان بن عبد الملك فانه روي عنه انه حينما حج سبّق بين المغنين ببدرة[7] . وكان البعض كيزيد بن عبد الملك ، والوليد ابنه ،

---

١) الاصبهاني ١ : ١١٥ ٢) الاصبهاني ١ : ١٠٨ ٣) الاصبهاني ١ : ٢٨
٤) ابن عبد ربه ٣ : ٢٢٧ ٥) ابن عبد ربه ٣ : ٢٥٤
٦) « « ٣ : ٢٢٧ ٧) الاصبهاني ١ : ١٢٦

يستحضرون المغنين من الحجاز ، ويغدقون عليهم العطايا[١] . وقد تقدم ذكر شيء من شأن حبابة المغنية ورفيقتها سلامة مع يزيد بن عبد الملك ، واما الوليد فقد رووا عنه انه ارسل الى المدينة فحملوا له المغنين[٢] . وله قصص مع بعضهم تشير الى انه فاق اباه في الاندفاع في هذا السبيل[٣] .

وقد روى الجاحظ خبراً يفيد — ان صح — ان اكثر خلفاء بني امية اتخذوا المغنين ، وشجعوا الغناء ، وسننقله بحرفه قال :

« قلت لاسحاق بن ابرهيم : هل كانت الخلفاء من بني امية تظهر للندماء والمغنين ؟ قال : اما معاوية ومروان وعبد الملك والوليد وسليمان وهشام ومروان بن محمد ، فكان بينهم وبين الندماء ستارة ، وكان لا يظهر احد من الندماء على ما يفعله الخليفة ، اذا طرب للمغنى والتذّ ، حتى ينقلب ويمشي ويحرك كتفيه ويرقص ويتجرّد حيث لا يراه الا خواص جواريه ، الا انه كان اذا ارتفع من خلف الستارة صوت ، او نعير طرب ، او رقص ، او حركة بزفير تجاوز المقدار ، قال صاحب الستارة : حسبك يا جارية ! كفي ! انتهي ! اقصري ! يوهم الندماء ان الفاعل لذلك بعض الجواري . »

« فاما الباقون من خلفاء بني امية ، فلم يكونوا يتحاشون ان يرقصوا ، ويتجردوا ، ويحضروا عراةً بحضرة الندماء والمغنين . وعلى ذلك لم يكن احد منهم ، في مثل حال يزيد بن عبد الملك ، والوليد بن يزيد ، في المجون والرفث بحضرة الندماء والتجرد ما يباليان ما صنعا . »

« قلت : فعمر بن عبد العزيز ؟ قال : ما طنّ في سمعه حرف غناء منذ افضت الخلافة اليه ، الى ان فارق الدنيا ، فامّا قبلها وهو امير المدينة ، فكان يسمع الغناء ، ولا يظهر منه الا الامر الجليل ، وكان ربما صفق بيديه ، وربما تمرّغ على فراشه وضرب برجليه وطرب ، فامّا ان يخرج عن مقدار السرور الى السخف فلا . »[٤]

---

١) الاصبهاني ٣ : ٩٨ وابن عبد ربه ٣ : ٢٥٢ والاصبهاني ٦ : ١١٥ و١٢٢

٢) ابن عبد ربه ٢ : ٣٤٢ ٣) الاصبهاني ٢ : ٧٢

٤) الجاحظ (ت) ٣٢

ومهما يكن من امر رواية الجاحظ هـذه ، فليس من شك في ان بعض خلفاء بني امية ، قد شجعوا الغناء ، وساعدوا على ازدهـاره في دمشق آخر القرن الاول ، غير ان الحجاز ظلت طيلة القرن الاول اعظم موطن للغناء وافسح ميدان للمغنين .

**المنافسة بين المغنين**

وكثر المقبلون على السماع في حواضر الحجاز ، فاخذت المنافسة تلعب دورها بين المغنين ، حتى روي ان ابن صفوان سبّق بمكة بين المغنين جائزة[1] . وان سكينة اقامت للمغنين حفلة عامة ، اذنت فيها للناس اذناً عاماً ، وكان في بيتهـا من المغنين يومئذ ابن سريج والغريض ومعبد وحنين الحيري[2] . وان جميلة المغنيـة اضافت نخبةً من اشهر مغني ذلك العصر ، فعقـدت لهم حفـلاً تباروا فيه ، وكانت ليلة زعموا انه لم يرَ انعم او احسن منها[3] .

ثم تناولت بعض مدن الحجـاز ، وظهرت الخصومة الموسيقيـة بين اشهر مدينتين - مكة والمدينة - فصنع معبد ( مغني المدينة ) الحانا سبعة ، تاه بها وفضلها على المـداين التي افتتحهـا قتيبة في حروبه في بلاد الفرس . فلحقت المكيين غيرة شديدة ، واجتمعوا وعرضوا الحان مغنيهم ، فاختاروا من غناء ابن سريج سبعةً ، اكثر اشعارها لابن ابي ربيعة صاحبنا ، فجعلوها ازاء سبعة معبد ، ثم خايروا اهل المدينة فانتصفوا منهم[4] .

## الشراب

**حظرهم منه**

ولقد سار مع هذا الغناء ، ضرب آخر من اللهو ، هو الشراب ، ويظهر ان بعض الشباب في ذلك العصر ، كانوا يجمعون بين هـذين الضربين من اللهو ، فيسمعون ويشربون ، او يشربون ويسمعون ، غير ان امر هـذا الشراب يختلف

---

١) الاصبهاني ١ : ٢١
٢) الاصبهاني ٢ : ١٢٧
٣) « ٧ : ١٢٩
٤) الاصبهاني ٨ : ١٤٢ و ٩١

عن الغناء ، فالغناء بشكله الجديد امر حديث كما رايت ، لم يكن في القدم لشباب العرب منه حظ كبير ، امر تعرفوا اليه بعد الفتوحات ، فاحبوه ، واخذ يتسرب الى بلادهم عن طريق هؤلاء الغرباء من فرس وروم وغيرهم ، واخذ ينشره بينهم هؤلاء الارقاء والموالي من رجال ونساء صاروا بحكم الفتح والدين عنصراً هاماً في هذه الدولة الجديدة ، اما الشراب فقد الفه بعض شباب العرب قبل الاسلام ، بل قد عرفه رجال الاسلام الاول ، وسكر به الكثيرون منهم ، قبل ان ينهى الاسلام عن تعاطيه[1].

## الاسلام ينهى عن الخمر

وفرق آخر بين الاثنين ، هو أن الشراب قد منعه الدين الجديد ، وكان المنع فيما يظهر تدريجياً ، ذلك انا نرى في القرآن آياتٍ معدودات ، فيها اشارات صريحة الى امر المسكر ، جاءت اولاها في سورة النحل ، وهي مكية ، تنص على طيب ما يتخذ من ثمرات النخيل والاعناب. « ومن ثمرات النخيل والاعناب تتخذون منه سكرًا ورزقاً حسناً انّ في ذلك لآية لقوم يعقلون »[2]

ووقعت الثانية في سورة البقرة ، وهي مدنيّـة ، مشيرةً الى ان في الخمر اثماً ونفعاً ، ولكنّ اثمها اكثر من نفعها ، « يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثمٌ كبيرٌ ومنافعُ للناس واثمهما اكبرُ من نفعهما »[3].

ووردت الثالثة في سورة النساء ، وهي مدنيّة ، تنهى عن ان يقرب المؤمنون الصلاة ، وهم سكارى. « يا أيها الذينَ آمنُوا لا تقرَبُوا الصَّلوةَ وانتم سُكارى حتَّى تعلَمُوا ما تقُولونَ »[4] . . .

وهناك آيتان متتابعتان في سورة المائدة ، وهي ايضاً مدنيّة ، فيهما نص صريح بمنع الخمرة . « يا أيُّها الذينَ آمنوا انما الخمرُ والميسرُ والأنصابُ والأزلامُ رِجسٌ من عملِ الشيطانِ فاجتنبوهُ لعلَّكم تُفلِحُون * إنَّما يُريدُ الشيطانُ ان يُوقعَ بَينَكمُ العَداوةَ والبَغضاءَ في الخمرِ والميسِرِ ويَصُدَّكم عن

١) البيضاوي ١ : ٢١٠
٢) القرآن – النحل – ٦٩
٣) القرآن – البقرة – ٢١٦
٤) « – النساء – ٤٦

ذكر الله وعن الصلاة فهل انتم منتهون ...»[1]

ويظهر — كما اشرنا — ان هذه الايات، قد نزلت على الترتيب الذي اوردناه، فقد قال البيضاوي في تفسير «يسألونك عن الخمر والميسر» ما نصه: «روي انه نزل بمكة قوله تعالى ومن ثمرات النخيل والاعناب تتخذون منه سكرًا، فاخذ المسلمون يشربونها، ثم ان عمر ومعاذًا ونفرًا من الصحابة قالوا: افتنا يا رسول الله في الخمر فانها مذهبة للعقل، فنزلت هذه الآية، فشربها قوم وتركها آخرون، ثم دعا عبد الرحمن بن عوف ناسًا منهم، فشربوا وسكروا، فأمّ احدهم، فقرأ: قل يا ايها الكافرون اعبد ما تعبدون، فنزلت لا تقربوا الصلوة وانتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون، فقلّ من يشربها، ثم دعا عتبان بن مالك سعدَ بن ابي وقّاص في نفر، فلما سكروا افتخروا وتناشدوا فانشد سعد شعرًا فيه هجاء الانصار، فضربه انصاري بلحي بعير فشجه، فشكا الى رسول الله صلعم، فقال عمر: اللهم بيّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا! فنزلت انما الخمر والميسر الى قوله: فهل انتم منتهون، فقال عمر: انتهينا يا رب.»[2]

## الغناء من اللهو المباح

امّا الغناء فهو من اللهو المباح، اذ ليس في القرآن كلّه فيما اعلم، نص بتحريمه، او بعدم جواز الاستماع اليه، ويصعب ان نعلم هل ورد في الحديث ما يشير الى تحريمه، بل يصعب ان نطمئن الى مثل هذا الحديث ان وجد، لاننا نرى فيما روي عن النبي ما ينفي ذاك. وقد احتج من اباح الغناء واستحسنه، بما روي عن النبي في هذا السبيل. روى ابن عبد ربه ان من المسلمين من احتج في اباحة الغناء واستحسانه ببعض ما روي عن النبي قال: «قال لعائشة: أهديتم الفتاة الى بعلها؟ قالت: نعم! قال: فبعثتم معها من يغني؟ قالت: لا! قال: او ما علمت ان الانصار قوم يعجبهم الغزل؟ الا بعثتم معها من يقول:

اتيناكم اتيناكم فحيونا نحييكم

---

١) القرآن — المائدة — ٩٢ و٩٣

٢) البيضاوي ١: ١١٥ وراجع الطبري (ج) ٢: ٢٠٠–٢٠٤

ولولا الحبة السمراء لم نحلل بواديكم

واحتجوا بحديث عبد الله بن اويس ابن عم مالك، وكان من افضل رجال الزهري، قال: مرّ النبي صلى الله عليه وسلم بجارية في ظل فارع وهي تغني:

هل عليَّ ويحكم ان لهوت من حرج

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لا حرج ان شاء الله!»[1]

وروى البخاري باسناد عن عائشة «ان ابا بكر، دخل عليها، والنبي صلى الله عليه وسلم عندها يوم فطر او اضحى، وعندهـا قينتان تغنيان بما تقاذفت الانصار يوم بُعاث، فقال ابو بكر: مزمار الشيطان – مرتين – فقال النبي صلى الله عليه وسلم: دعهما يا ابا بكر، ان لكل قوم عيداً وان عيدنا هـذا اليوم.»[2]

وهكذا فان الكثيرين من اهل ذلك الجيل، لم يروا بأساً في سماع الغناء، ولم يلفوا فيه مـا يخالف سيرة المتقدمين من رجال الاسلام، فصار الشائع والمعروف عند اهل هذا الجيل الذي ندرس، لا سيما الحجازيين، انه لا بأس على السامع، ولا بـأس على الملحن، ولا بأس على المغني[3]. وقد استمع الى الغناء كثير من الفقهاء والائمة الاول، ولم يروا في ذلك بأساً.[4]

روى ابن عبـد ربه ان ابن جريج سئل عن الغناء، فقال: لا بأس به، شهدت عطاء ابن ابي رباح في ختان ولده، وعنـده ابن سريج المغني، فكان اذا غنى لم يقـل له اسكت، واذا سكت لم يقل لـه غنّ، واذا لحن ردّ عليه.[5]

وروى ان عبد الله بن عمر دخـل على عبـد الله بن جعفر، وكان يحبه، وعنده جارية تغنيه، ومعها عود، فقال له ابن عمر: ما هذا؟ قال: وما تظن به يا

١) ابن عبد ربه ٣: ٢٢١
٢) البخاري ٤: ٢٤٧ وراجع ايضاً البخاري ٣: ٢٠٩
٣) ابن عبد ربه ٣: ٢٢٠–٢٢٥
٤) الاصبهاني ٨: ١٠ وابن عبد ربه ٣: ٢٢١ و٢٢٢ ٢٢٢ و٢٢٤ و٢٢٥
٥) ابن عبد ربه ٣ : ٢٢٢

ابا عبد الرحمن ، فان اصاب ظنك ، فلك الجارية ، قال : ما اراني الا قد اخذتها ، هذا ميزان رومي ! فضحك ابن جعفر ، وقال : صدقت ، هـذا ميزان يوزن به الكلام ، والجارية لك ، ثم قال : هات ! فغنت :

ايا شوقاً الى البلد الامين    وحي بين زمزم والحجون

ثم قال له : هل ترى بأساً ؟ قال : هل غير هذا ؟ قال : لا ! قال : فما ارى بهذا بأساً » [1]

## عود الى الشراب

اذاً فالشراب يختلف عن الغناء . وفي تعاطيه خروج على الـدين الجديد . وقد شربه الكثيرون من شباب ذلك العصر ، وخرجوا على الدين .

## الشباب بين امرين

والحق ان كثيراً من شبان هذا الجيل الجديد ، قد وقعوا بين امرين مهمين متناقضين ، وكان موقفهم للتخلص منهما دقيقاً جداً . هنا الاسلام ، هذا الدين الجديد ، بما فيه من شرائع وحدود يقيد بها اتباعه الذين لم يألفوا ان يتقيدوا بمثلها ، وهناك حالة تعددت فيها العناصر ، منها ميلٌ الى الرجعة ، الى الحياة القديمة التي ابطل بعضها الاسلام ، من عادات واخلاق ومراسيم ، ومنها التأثر بما صاروا اليه ، والاخذ مما حمله هـذا الفتح من امور غريبـة ، والتعلق باسباب جديدة للمعيشة ، تلذ لمثلهم ، رأوها عند الامم التي احتكوا فيها ، والرقيق الذي غنموه واستعبدوه ، ومنها ايضاً كثرة هذا المال بين ايديهم ، وازدياد هذا الفيء الذي افاءه الله عليهم ، بعد فتحهم البلدان المختلفة ، والمـال يدفع في اكثر الاحايين الى الترف واللهو .

فانت ترى ان هذا النزاع لم يكن نزاعاً بين القديم والحـديث فحسب ، ولم يكن نزاعاً بين عاملين مستقلين ، بل كان نزاعاً تعـددت فيـه العوامل ، ولعلنا ، اذا حاولنا تحديده بكلمة وجيزة على وجـه الاجمال ، لا نخطئ اذا

---

١) ابن عبد ربه ٣ : ٢٢٣

قلنا ، هو نزاع بين الاسلام كما فهموه ، وبين الخروج عنه ، ولم يكن طبيعياً لهذه الطبقة من الناس ان يرتدوا عن هذا الدين الجديد ، وهو الدين الذي اعزّهم ، وهو الدين الذي تدين به حكومتهم وخلافتهم ، وهو الدين الذي جاهد بعضهم في سبيل نصرته ، وهو الدين الذي رفع مركزهم في السياسة والاجتماع والاقتصاد ، واعلى شأنهم في الاولى وفي الآخرة ، ولم يكن من الطبيعي بالوقت نفسه ، ان ينقطعوا كل الانقطاع عن كل قديمهم وعاداتهم التي الفوها قبل الاسلام ، او الفها اباؤهم ، او ان لا تؤثر فيهم هذه العوامل الجديدة التي طرأت على الحياة العربية بعد هذا الفتح . اتريد ان يكون هذا الامتزاج العظيم ، بين العرب وغيرهم من الامم التي فتحوا ارضها وسبوا من نسائها واسترقوا من رجالها وتسرّوا من فتياتها ، اتريد ان يكون هذا الامتزاج ، وهذا الرخاء والسعة ، وهذه الحياة الجديدة بالوانها المختلفة ، ولا يكون لها اثر كبير في خلق العربي وطبعه وحياته ؟ واذاً ! فما الذي يفعله ابناء هذا الجيل ؟ واي حياة يحيون ؟ هم لا يريدون ان يتركوا الاسلام ، وهم لا يستطيعون بالوقت نفسه ان يعتزلوا هذه الحياة الجديدة . واذاً فليكونوا مسلمين ، وليأخذوا من هذه الحياة الجديدة ما استطاعوا ان يأخذوا ! فليقيموا هذه الفروض التي فرضها الاسلام عليهم ، وليخرجوا عن بعض تعاليمها متى فرغوا من اقامتها ! وان لم يستطيعوا ان يجمعوا بين هذه المتناقضات ، فليقيموا من هذه الفرائض ما تيسر ، وليحيوا هذه الحياة الجديدة الطيبة ، وليعيشوا هذا العيش الجديد الرغد . والواقع ان النزاع بين هذين العاملين ، كان في اكثر الاحيان سجالاً ، يوم لهذا ويوم لذاك ، او ان شئت فقل كان النصر فيه لكلا الطرفين . فالدولة مسلمة ، والحياة في كثير من اقسامها خروج عن مبادئ الاسلام . وهذا النفر من الشباب الارستقراطي مسلم ، وحياة الكثيرين من افراده لا يقرها الاسلام . هم يحجون ، ولكنهم بعد حجهم يلهون . وهم يصلون ، ولكنهم بعد صلاتهم يعبثون . وهم يصومون ، غير انهم بعد صومهم يشربون ويطربون . وهكذا فقد كان الكثيرون منهم مسلمين بالاسم ، وخارجين على الاسلام بالفعل .

## الخلفاء الاول والشراب

ولقد سعى الخلفاء الاول في قمع هـذه الروح ، ووفقوا بعض التوفيق لا كله . فقد ذكر لنا الرواة انه على كل ما اتخذه الخلفاء من الحيطة لقهر هذه الروح ، كان كثير من الشبان يجنحون الى ما منعه الاسلام . وما قولك في ان يشرب الخمرة ، في عهـد عمر بن الخطاب نفسه ، ابناؤه عبـد الرحمن وعاصم وعبيد الله ، وقد حدّوا في شربها[1] ، وان يشربها الصحابي قدامة بن مظعون ، فيحدّه عمر نفسه[2] ، والصحابي نعمان بن عدي[3] ، وكان عامل عمر على البصرة ، فيسوء عمله هذا عمر ويعزله عنها ؟ زعموا انه قال في شربه :

من مبلغ الحسناء ان خليلها ... بميسان يسقى في زجاج وحنتم
اذا شئت غنتني دهـاقين قرية ... وصناجة تجـذو على كل منسم
لعلّ امير المؤمنين يسوءه ... تنادمنا بالجوسق المتهـدم

فلما بلغت ابياته هذه عمر ، قال: اي والله ، انه ليسوءني ذلك ، وعزله[4] .

وشربها ايضاً الاسود بن عوف ، اخو عبد الرحمن بن عوف ، فوجده عمر بمكة شارباً ، فامر به ، فجلده الحد[5] .

بل قد روي عن صحابي ، اسمه نعيان ، كان ممن شهـد بدراً ، انه كان يشرب حتى في زمن النبي ، وان النبي جلده في الخمر اربع مرات[6] .

وكذلك شرب الخمرة في عهـد عثمان بن عفان ، اخوه لامه وعامله على الكوفة الوليد بن عقبة ، فشهد عليه اهل الكوفـة انه صلى بهم الصبح ثلاث ركعات ، وهو سكران ، ثم التفت اليهم فقال : ان شئتم زدتكم ! فجلده علي ابن ابي طالب بين يدي عثمان[7] . وقد زعم البعض انه تقيأ في المحراب ، وهو يصلي بالقوم سكران ، وقرأ بهم ، وهو رافع صوته :

علق القلب الربابـا ... بعد ما شابت وشابا

١) ابن عبد ربه ٣ : ٤٠٧ ٢) ابن عبد ربه ٣ : ٤٠٧
٣) في النويري ٤ : ١٣٥ النعمان بن علي بن نضلة
٤) البلاذري ١ : ٢٨٥ وابن هشام ٢٠٥ وابن عبد ربه ٣ : ٤١٦
٥) ابن قتيبة (م) ١٢١ ٦) ابن قتيبة (م) ١٦٨
٧) ابن عبد ربه ٣ : ٤٠٦ وراجع الاصبهاني ٤ : ١١ وابن عبد ربه ٢ : ٢٧٢

وكان هناك محمق فظن ان هذا قرآن ، فقال: صدق الله ورسوله[1] . وهو القائل :

اي ساع سعى ليقطع شربي حين لاحت للصابح الجوزاء
واستقل العصفور كرها مع الضب واوفى في عوده الحرباء

وقد رووا انه لما تولى الكوفة بعده سعيد بن العاص ، امر بعض الناس من اهلها بغسل منبرها وتطهيره من رجاسة الوليد بن عقبة ونجاسته[2] . وكان للوليد بن عقبة نديم يشرب معه الخمر احياناً ، هو الوليد بن عثمان بن عفان ، ابن الخليفة الذي قتل مكباً على القرآن ، ورووا انه كان يصاب بالخمار ، حتى خيف عليه ، وشقت عليه النساء الجيوب.[3] وشيء مثل هذا قد روي ايضاً عن عبد الرحمن بن سيحان ، وانه كان ينادم ابن عثمان هذا وابن عقبة[4] . وقد حدَّ مروانُ ابنَ سيحان ، فبعث معاوية يوبخه ، لان ابن سيحان كان حلفه[5] .

وروي ان ابن سيحان دخل على ابن عم له يقال له الحارث بن سريع ، فوجده يشرب نبيذ زبيب ، فجعل يعظه ويأمره بشرب الخمر ، وقال له : « يا ابن سريع ! إن كنت تشربه على ان نبيذ الزبيب حلال ، فانك احمق ، وان كنت تشربه على انه حرام ، تستغفر الله منه ، وتنوي التوبة ، فاشرب اجوده ! فان الوزر واحد ».[6] وابن سيحان هو القائل :

انا لنشربها حتى تميل بنا كما تمايل وسنان بوسنان[7]

وكان في المدينة شاعر ، هو السري بن عبد الرحمن ، عرف بالشرب ، وكان شركاؤه في الشراب وندماؤه فيه جماعة ذكرهم في شعره ، قال :

اذا انت نادمت العتير وذا الندى جبيراً ونازعت الزجاجة خالدا
امنت بأذن الله ان تقرع العصا وان ينبهوا من نومة السكر راقدا[8]

ويحدثنا ابن عبد ربه في باب خاص افرده في عقده لمن حُدَّ من الاشراف في الخمر وشهر بها ، فيقول في بعض حديثه : وممن شهر بالشراب ، عبد الرحمن

١) الاصبهاني ٤: ١٧٨ و١٨٠
٢) الاصبهاني ٤: ١٨٦
٣) الاصبهاني ٢ : ٨٠
٤) « ٢ : ٨٠ و٨١
٥) « ٢ : ٨٤ و٨٧
٦) « ٢ : ٨٦
٧) « ٢ : ٨٧
٨) « ١٨ : ٦٧

ابن عبد الله الثقفي القاضي بالكوفة ، ومنهم ابو محجن الثقفي ، وكان مغرماً بالشراب ، حدّه سعد بن ابي وقاص في الخمر مراراً ، وشهد القادسية مع سعد وابلى فيها بلاء حسناً ، وهو القائل :

اذا مت فادفني الى ظلّ كرمة تروي عظامي بعد موتي عروقها
ولا تدفنني في الفلاة فانني اخاف اذا ما مت ان لا اذوقها (١

هذا ، واكثر هؤلاء لهم صلة ببعض الخلفاء الراشدين ، الذين لم يعرف عنهم انهم ذاقوا الخمرة بعد نهي القرآن عنها ، وقد عاشوا في عهد كان اقرب العهود الى النبي وعصر الصحابة الاول ، واكثر العهود تمسكاً بشرائع الاسلام ، فكيف اذا اعتبرنا الامر في خلافة بني امية ، وقد انتقلت الخلافة الى الشام ، وتُرِك الحجاز يسوسه امير منهم ، او عامل لهم ، واكثرهم من نعرف ، ممن لم يتقيدوا بشرائع الاسلام ، لاسيا فيا يتعلق بالخمر والسكر . ولعلك لاحظت كيف ان معاوية عاتب مروان بن الحكم لحدّه ابن سيحان[٢] . وزعموا ان عمرو بن سعيد اشار على ابيه عندما كان والياً لمعاوية على المدينة ، ان يضرب ابن سيحان مئتي سوط ، فلم يفعل خوفاً من معاوية[٣] .

## خلفاء بني امية والشراب

ولقد شجع الخلفاء انفسهم الناس على هذا بشربهم ، فقد روى الجاحظ في اخبار من سكر منهم قال :

« وكان من ملوك الاسلام من يدمن على شربه ، يزيد بن معاوية ، وكان لا يمسي الا سكران ولا يصبح الا مخموراً ، وكان عبد الملك بن مروان يسكر في كل شهر مرة ، حتى لا يعقل أفي السماء هو او في الماء ، ويقول : انما أقصد في هذا الى اشراق العقل ، وتقوية منة الحفظ ، وتصفية موضع الفكر . غير انه كان اذا بلغ آخر هذا السكر ، افرغ ما كان في بدنه ، حتى لا يبقى في اعضائه منه شيء ، فيصبح خفيف البدن ، ذكي العقل والذهن ، نشيط النفس ،

١) ابن عبد ربه ٣ : ٤٠٧
٢) الاصبهاني ٢ : ٨٤
٣) الاصبهاني ٢ : ٨٧-٨٨

قوي المنة . وكان الوليد بن عبد الملك يشرب يوماً ويدع يوماً . وكان سليمان ابن عبد الملك يشرب في كل ثلاث ليالٍ ليلةً . ولم يشرب عمر بن عبد العزيز منذ افضت اليه الخلافة الى ان فارق الدنيا ، ولا سمع غناء . وكان هشام يسكر في كل جمعة . وكان يزيد بن الوليد ، والوليد بن يزيد ، يدمنان اللهو والشرب . فاما يزيد بن الوليد ، فكان دهره بين حالين ، بين سكر وخمار ، ولا يوجد ابدًا الا ومعه احدى هاتين . وكان مروان بن محمد يشرب ليلة الثلثاء وليلة السبت . »[1]

ولم يتفرد الجاحظ في ذكر مثل هذه الامور عن بعض خلفاء بني امية ، بل جاراه كثير من المؤرخين والادباء القدماء . فقد روى ابو الفرج الاصبهاني اخبارًا كثيرة عن خلفاء بني امية ، وسكرهم ، وهو سبط واحد منهم ، وحاول ان يدافع عن بعضهم بشكل اشار فيه الى ان البعض الآخر قد شرب وسكر ، فقد اورد رواية فيها ان هشام بن عبد الملك ، دعا حمّادًا واستنشده شعرًا ، ثم امر الجارية ان تسقيه خمرًا ، فسقته ثلاثاً ، غير انه علق عليها بقوله : « وهذا لفظ حمّاد عن ابيه ، ولم يقل احمد بن عبيد انه سقاه شيئاً ، ثم يقول : وهذا هو الصحيح لان هشاماً لم يكن يشرب ، ولا يسقي احدًا بحضرته مسكرًا ، وكان ينكر ذلك ويعيبه ويعاقب عليه . »[2] غير ان ابا الفرج نفسه لم يدافع عن امرأة هشام ام حكيم ، بل حدثنا انها كانت منهومة بالشراب ، مدمنة عليه ، لا تكاد تفارقه ، قال : « وكاسها الذي كانت تشرب فيه مشهور عند الناس ، وهو في خزائن الخلفاء حتى الآن . »[3] ولعلنا بغنى عن سرد الروايات التي في الاغاني عن شرب اكثر الخلفاء الذين ذكرهم الجاحظ للمسكر .

كذلك ذكر ابن عبد ربه بعض من شرب المسكر من خلفاء بني امية ، قال : « ومنهم عبد الملك بن مروان ، وكان يسمى حمامة المسجد لاجتهاده في العبادة قبل الخلافة ، فلما افضت اليه الخلافة ، شرب الطلا ، وقال له سعيد بن المسيب : بلغني يا امير المؤمنين انك شربت بعدي الطلا ، فقال : اي والله !

١) الجاحظ (ت) ١٥١

٢) الاصبهاني ٥ : ١٦٧

٣) الاصبهاني ١٥ : ٥٠

وقتلت النفس.»[١]

وقال ايضاً: ومنهم الوليد بن يزيد[٢]، ذهب به الشراب كل مذهب، حتى خلع وقتل[٣]. ومنهم يزيد بن معاوية، وكان يقال له يزيد الخمور[٤].

وقد ذكر النويري اكثر اخبار هؤلاء الذين ذكرنا فلتراجع فيه[٥].

## بعض الاشراف والشراب

وكان غير هؤلاء نفر من رجال الدولة وعمالها يشربون، كحارثة بن زيد، وكان مقدماً عند زياد بن ابيه، فقيل له: ان هذا قد غلب عليك، وهو رجل مستهتر بالشراب، فما سمع لهم[٦]، وعبد العزيز بن مروان[٧]، وقد حدّه في الشراب عمرو الاشدق[٨]، وامية بن عبد الله بن اسيد[٩]، وعبد الله بن عروة ابن الزبير[١٠]، وكثيرين آخرين[١١].

وقد رووا ان الاقيشر أخرجه الحارث بن ابي ربيعة، لحرب اهل الشام، وكان ماجناً سكيرًا، فركب حماره، وانسلّ بين الناس، وأفلت من الجند ومال الى خمّار، فباع حماره، وشرب به خمرًا[١٢].

وروي ان الفرزدق وفد على ابن شبرمة، فقال: اسقوني: فقالوا له: وما تريد ان نسقيك؟ فقال: اقربها الى الثمانين. يعني حدّ الخمر[١٣].

وليس هنا موضع ذكر اختلاف الناس فيما هو المحرم من المشروب، واجتهاد البعض في مسألة ان شرب النبيذ ليس بحرام، انما يهمنا ان نقول انه ربما كان هنـاك في ذلك العصر من شرب النبيذ على انه غير محرّم، وفي

---

١) ابن عبد ربه ٣: ٤٠٨

٢) في الاصل يزيد بن الوليد وهو خطأ فيما نرى. راجع ابن عبد ربه ٢: ٢٤٣ و٣٤٣ و٣٤٤

٣) ابن عبد ربه ٣: ٤٠٨ و٤٠٠

٤) ابن عبد ربه ٣: ٤٠٦

٥) النويري ٤: ١١٢-١٢٦

٦) ابن عبد ربه ٣: ٤٠٥و٤٠٣

٧) ابن عبد ربه ٣: ٤٠٢

٨) ابن عبد ربه ٣: ٤٠٧

٩) « « ٣: ٤٠٢

١٠) النويري ٤: ١١٢

١١) ابن عبد ربه ٣: ٤٠٠و٤١٥

١٢) الاصبهاني ١٠: ٩٦

١٣) « « ٣: ٤٠٠

رسالة الامام عمر بن عبد العزيز الى الامصار في امر الانبذة، ما يشير الى شيء من هذا الاختلاف في الامر ، ويظهر وجهة نظر الامام عمر نفسه الى الانبذة والخمر ، ويدل على شيوعهما زمنئذ . « اما بعد ، فان الناس كان منهم في هذا الشراب المحرم امر ساءت فيه رغبة كثير منهم ، حتى سفه احلامهم ، واذهب عقولهم ، فاستحل به الدم الحرام ، وفرج الحرائر ، وان رجالاً منهم ممن يصيب ذلك الشراب يقولون شربنا طلاء ، فلا بأس علينا في شربه ، ولعمري ، ان فيما قرأت مما حرم الله بأساً ، وان في الاشربة التي احل الله من العسل والسويق ، والنبيذ من الزبيب والتمر ، لمندوحة عن الاشربة الحرام ، غير ان كل ما كان من نبيذ العسل والتمر والزبيب ، فلا ينبذ الا في اسقية الادم، التي لا زفت فيها ، ولا يشرب منها ما يسكر » . . .[١]

ومهما يكن من الامر كله ، فالذي لا شك فيه ، ان كثيرين من شباب العرب في ذلك العصر ، شربوا الخمرة المحرمة ، وكثيرين شربوا انواعاً من النبيذ ، مما اختلف في تحريمه . وكان لهذه الخمرة اثر في حياتهم الاجتماعية وادبهم .

ولم يقتصر امر هذه الخمرة على قطر ، كما لاحظت ، ولا على فئة خاصة من الناس ، فقد تناول نصيبهم منها اهل العراق واهل الشام واهل الحجاز . ولعل شيوعها كان من العوامل التي شجعت رجلاً مثل الاخطل الشاعر النصراني ان يدخل على الخليفة عبد الملك بن مروان ، فيما يذكرون ، ولحيته تنفض خمراً[٢] ، بل قد روى الرواة ان الاخطل تجرأ مرةً ، فسأل الخليفة ان يسقيه خمراً ، ولما ابى عليه الخليفة ذاك ، خرج من عنده فلقي من يسقيه[٣] .

## اثرها في ادبهم

وكان لهذه الخمرة اثر في ادبهم ، اودّ لو يسعى احد الادباء في درسه ، ومقابلته بخمريات العصر العباسي الاول . ولا بدّ لي هنا من ذكر بعض الابيات من شعر عبد الرحمن بن ارطأة بن سليمان ، وقد كان معاصراً لمعاوية ، ليدرك القارئ وجه المشابهة بينه وبين ابي نواس .

١) ابن عبد ربه ٣ : ٤١١   ٢) الاصبهاني ٧ : ١٧٦-١٧٩   ٣) الاصبهاني ٧ : ١٧٥

قال عبد الرحمن بن سيحان في حادثته مع ابن عمه التي ذكرنا:[1]

دع ابن سريع شرب ما مات مرة وخذها سلافًا حية مزة الطعم
تدعك على ملك ابن ساسان قادرًا اذا حرّمت قراؤنا حلب الكرم
فشتان بين الحي والميت فاعتزم على مزة صفراء راووقها يحمي
فان سريعاً كان اوصى بحبها بنيه وعمي جاوز الله عن عمي
ويا رب يوم قد شهدت بني ابي عليها الى ان غاب تالية النجم
حسوها صلاة العصر والشمس حية تدار عليهم بالصغير وبالضخم
فماتوا وعاشوا والمدامة بينهم مشعشعة كالنجم توصف بالوهم

ولعبد الرحمن ايضاً :

اصبح نديمك من صهباء صافية حتى يروح كريماً ناعم البالِ
واشرب هديت ابا وهب بجاهرة واختل فانك من قوم اولي خالِ

وله ايضاً ، وقد حاولوا ان يحدّوه فيها :

لا تعدميني نديماً ماجدًا انفاً لا قائلاً قاذفاً خلقاً ببهتان
اغرّ راووقه ملآن صافية تنفي القذى عن جبين غيرخزيان
سبيئة من قرى بيروت صافية عذراء او سبيت من ارض بيسان
انا لنشربها حتى تميل بنا كما تمايل وسنان بوسنان

وله من ابيات قالها في الوليد بن عتبة ، وكان ينادمه :

بات الوليد يعاطيني مشعشعة حتى هويت صريعاً بين اصحابي
لا استطيع نهوضاً ان هممت به وما اخنه من حسو وتشرابِ
حتى اذا الصبح لاحت لي جوانبه وليت اسحب نحو القوم اثوابي
كانني من حمياً كاسه جملٌ صحّت قوائمه من بعد اوصابِ[2]

هذا ، وقد كان عبد الرحمن معاصرًا لمعاوية وابنه ، فكيف اذا اعتبرت الامر آخر العصر الاموي . ولعلّ الوليد بن يزيد اولى شعراء الخمرة في هذه الحقبة بالذكر هنا ، وهو القائل :

اصدع نجي الهموم بالطرب وانعم على الدهر بابنة العنب
واستقبل العيش في غضارته لا تقف منه آثار معتقب
من قهوة زانها تقادمها فهي عجوز تعلو على الحقب
اشهى الى الشرب يوم جلوتها من الفتاة الكريمة النسب

---

١) راجع صفحة ٦٧ من كتابنا هذا
٢) الاصبهاني ٢ : ٨٦-٨٧

فقد تجلت ورق جوهرها حتى تبدّت في منظر عجب
فهي بغير المزاج من شرر وهي لدى المزج سائل الذهب
كأنها في زجاجها قبس تذكو ضياء في عين مرتقب
في فتية من بني امية اهل المجد والمأثرات والحسب
ما في الورى مثلهم ولا بهم مثلي ولا منتمٍ لمثل ابي

قال ابو الفرج معلقاً على هذه الابيات: «وهذا من بديع الكلام ونادره، وقد جوّد فيه منذ ابتدأ الى ان ختم، وقد نقلها ابو نواس والحسين بن الضحاك في اشعارهما[1]». وقال ابو الفرج في موضع آخر: «وللوليد في ذكر الخمر وصفتها اشعار كثيرة، قد اخذها الشعراء فادخلوها في اشعارهم، سلخوا معانيها، وابو نواس خاصة، فانه سلخ معانيه كلها، وجعلها في شعره، فكررها في عدة مواضع، ولولا كراهة التطويل، لذكرتها هنا، على انها تنبئ عن نفسها»[2].

## النساء

### الحرة والامة

بقي امر ثالث، كان في كثير من الاحيان متمماً للهوهم في الغناء والشراب، وربما كان هذا من اهم العوامل في حياة اهل ذلك الجيل الاجتماعية والادبية، كما وانه لا يزال عاملاً عظيماً في حياة الرجل في كل العصور. ذلك العامل هو المرأة.

ونريد قبل كل شيء ان نشير الى الاختلاف الكبير الذي كان في ذلك العصر، بين المرأة العربية الحرة، وبين المرأة الاجنبية التي ملكها العربي في الفتوحات وبعدها، فصارت امته، يتزوج منها اذا شاء، او يبيعها، او يهبها، او يمن عليها بالعتق، فتكون مولاة له.

ولقد اشرنا بفصل سابق الى كثرة هؤلاء السبيّات، والممنا بشيء من علاقاتهن باسيادهنّ، ولكننا لم نعرض الى درس اثرهن في حياة اهل ذلك الجيل الاخلاقية.

١) الاصبهاني ٦ : ١١٠ ٢) الاصبهاني ٦ : ١١٠

### السبيات والعبث

ويظهر لنا ان هذا السيل الجارف منهن ، من روميات ، وفارسيات ، وغير ذلك ، قد كان داعياً لافساد الاخلاق ، ودافعاً الى ان ينغمس العربي من شباب ذلك العصر الغني المترف ، بالعبث واللهو . فقد كان بامكان مثلـه ان يتزوج ممن تستطيع عينه ان تملك من السبيّات ، سواء اكان قد غنمهن في الحرب ، او اشتراهن بالمال . وكانت النخاسة امرًا شائعاً ، فكان تجار الرقيق يعلمونه ويدربونه وينقلونه من بلدٍ الى بلد ، ومن قطر الى قطر . وقد نأى هذا الرقيق عن بلده ، وانفصل عن اهله وذويه ، فكانت صدمة عنيفة ، تفككت اثرها عرى حياة السبيات الاجتماعية ، ولم يعـد هناك من رادع ، او وازع ، او زاجر اخلاقي يمنعهن من المنكر او المجون والعبث ، لا سيما عندمـا يكون في حوزة رجل واحد ، مثلاً ، مئات منهن . كما ان طباع العربي اخذت تتطور حينما كثر لديه المال ، واخذ باطراف الحضارة ، واتصل بسبل لهو الامم المغلوبـة ، وتقلب على بساط الترف ، ففشا العبث ، واللهو ، والمجون ، وظهر في بعض الاوساط فساد اخذ يذيع بين الناس ، فضعفت الغيرة ، وهتكت العفة ، بحيث استطاع الرواة ان يذكروا لنـا انه ظهر في ذلك العصر طبقة من الناس ، عرفوا بالمخنثين ، كانوا يفسدون الناس ويجمعون بين الرجال والنساء ، ويتوسطون بينهم بالباطل[1] .

### سلطانه بعضهن

وكان من امر بعض هؤلاء السبيّات المتفننات في اساليبِ اللهو ، من غناء وغير ذلك ، اللواتي كنّ على قسط من الجمال ، انهن فتنّ النشء الجـديد من شباب ذلك الجيل ، ففيّرن من خلقـه وطبعه ، فشغف باللهو والعبث ، وملكن عليه عقله ، فعلق بهن ، وخضع لسلطانهن ، بحيث استطاعت المغنية حبابة ان تخضع لسلطانها ، فيما يذكر الرواة ، رجلاً مثل يزيد بن عبد الملك ، وقد كانت بيده مقاليد امور المسلمين ، فتعزل ، وتولّي ، وتفعل مـا تشاء .

رووا انها لما صارت عند يزيد هـذا ، ظلت تعمل لعمر بن هبيرة في العراق

١) الفالي ٢ : ٢١٢ والاصبهاني ١ : ١٥٦ و ٦ : ٨٥ و ٩٠ و ١٠ : ١٤١ و ١٦ : ٦٠ و ١٩ : ٥٥ و ٦٤

حتى وليها ، ورفعت مكانة ابن هبيرة عند الخليفة ، واعلت منزلته ، حتى كان يدخل عليه في اي وقت شاء[1].

### بعض اخبار حبابة

وتزوج يزيد من سعدة حفيدة عثمان بن عفان ، ثم خطب الى اخيها خالد بنت اخ له ، « فقال : اما يكفيه ان سعدة عنده ، حتى يخطب اليَّ بنات اخي ؟ وبلغ يزيد، فغضب، فقدم عليه خالد يسترضيه، فبينا هو في فسطاطه ، اذ اتته جارية لحبابة في خدمها ، فقالت له : ام داود (وهي كنية حبابة) تقرأ عليك السلام ، وتقول لك : قد كلمت امير المؤمنين فرضي عنك. فالتفت ، فقال: من ام داود ؟ فاخبره من معها ، انها حبابة ، وذكر له قدرها ، ومكانها من يزيد ، فرفع رأسه الى الجارية ، فقال : قولي لها ، ان الرضا عني بسبب لستِ به . فشكت ذاك الى يزيد ، فغضب ، وارسل الى خالد ، فلم يعلم بشيء ، حتى اتاه رسول حبابة ، فيمن معه من الاعوان ، فاقتلعوا فسطاطه ، وقلعوا اطنابه ، حتى سقط عليه وعلى اصحابه ، فقال : ويلكم ما هذا ؟ قالوا : رسل حبابة ! هذا ما صنعت بنفسك ، فقال : ما لها اخزاها الله ! ما اشبه رضاها بغضبها »[2].

والغريب ، ان تكون احدى نساء يزيد ، هي التي اشترت هذه الجارية حين علمت تعلقه بها ، وهو امير ، واهدتها اليه حينما صار خليفة ، حتى تسترضيه[3].

### يزيد وحبابة

وازداد كلفه بحبابة حين صارت اليه فقال لها يوماً فيما يروون: « قد استخلفتك على ما ورد عليَّ ، ونصبت لذاك مولاي فلاناً ، واستخلفيه لاقيم معك اياماً ، واستمتع بك ، قالت : فاني قد عزلته ؛ فغضب عليها ، وقال : قد استعملته وتعزلينه ! وخرج من عندها مغضباً ، فلما ارتفع النهار ، وطال عليه هجرها ،

---

١) الاصبهاني ١٣ : ١٥٧ ٢) الاصبهاني ١٣ : ١٥٦

٣) الاصبهاني ١٣ : ١٥٥-١٥٦

دعا خصياً له ، وقال : انطلق ، فانظر اي شيء تصنع حبابة . فانطلق الخادم ثم اتاه ، فقال : رأيتها بازار خلوقي ، قد جعلت له ذنبين ، وهي تلعب بلعبها، فقال : ويحك ، احتل لها حتى تمر بها عليّ . فانطلق الخادم اليها ، فلاعبها ساعة ، ثم استلب لعبة من لعبها وخرج ، فجعلت تحضر في اثره ، فمرت بيزيد ، فوثب وهو يقول قد عزلته ، وهي تقول قد استعملته ، فعزل مولاه وولّاه وهو لا يدري »[1] . « وغنته حبابة ذات يوم :

ألا لا تلمه اليوم ان يتبلدا فقد غلب المحزون ان يتجلدا

فطرب ، وشق حلته ، وقال لها : اتأذنين ان اطير ؟ قالت : والى من تدع الناس ؟ قال : اليك[2] . وغنته مرة :

لعمرك انني لاحب سلعاً لرؤيتها ومن بجنوب سلع

ثم تنفست تنفساً شديداً ، فقال لها : ما لك ؟ انت في ذمّة ابي ، لئن شئت لانقلنه اليك حجرًا حجرًا[3] .

وقال يزيد ذات يوم لحبابة وسلامة : ايتكما غنتني ما في نفسي ، فلها حكمها ، فغنت سلامة ، فلم تصب ما في نفسه ، وغنته حبابة :

حلق من بني كنانة حولي بفلسطين يسرعون الركوبا

فاصابت ما في نفسه ، فقال : احتكمي ! فقالت سلامة تهبها لي وما لها ، قال : اطلبي غيرها ، فابت ، فقال : فانت اولى بها ومالها ، فلقيت سلامة من ذلك امرًا عظيماً ، فقالت لها حبابة : لا ترين الا خيرًا . فجاء يزيد فسالها ان تبيعه اياها بحكمها ، فقالت : اشهدك انها حرة ، واخطبها اليّ الآن حتى ازوجك مولاتي . وقيل من رواية اخرى انه عندما جزعت سلامة ، قالت لها حبابة : لا تجزعي فانما الاعبه . »[4]

١) الاصبهاني ١٣ : ١٥٦

٢) « ١٣ : ١٦٠ ابن الطِقطَقى ١٥٦ يضيف الى هذا ان يزيد قبل يدها فخرج بعض خدمه وهو يقول : سخنت عينك فما اسخفك . وراجع الطبري II : ١٤٦٥

٣) الاصبهاني ١٣ : ١٦٢ ٤) الاصبهاني ١٣ : ١٦٢-١٦٣

وذهب الرواة الى ان يزيد هذا ، لما ماتت حبابة ، اقام ثلاثة ايام لا يدفنها ، حتى انتنت ، وهو يشمها ويرشفها ، فعاتبه ذوو قرابته ، حتى اذن لهم في غسلها ودفنها . وامر فاخرجت في نطع ، وخرج معها لا يتكلم حتى جلس على قبرها ، وما اقام الا خمس عشرة ليلة حتى دفن الى جنبها[1] .

وقد بلغ بابنه الوليد بن يزيد مع احدى جواريه من التهتك ما يقارب هذا ، اذ قد روى ابن عبد ربه ، ان الوليد بعث احدى جواريه لتصلي بالناس متلثمةً وهي سكرى . . . .[2]

وليس فيما اعلم من اخبار العرب ، وكلفهم بجواريهم ، وتهتكهم معهن ، ما يفوق هذا الشأن .

## اهل الحجاز وحبابة

ولم يكن يزيد وحده مولعاً بحبابة ، فقد كانت فتنة الحجاز ، حتى زعموا انه لما اراد الخروج بها ، قال فيها الشعراء فاكثروا ، وغنى في اشعارهم المغنون من اهل مكة والمدينة[3] .

## الجواري واثمانهن

وازداد ولعهم بالجواري ، حتى ازدادت اثمان الجميلات منهن ، رغم كثرتهن . رووا ان موسى شهوات الشاعر عشق جارية بالمدينة ، وشغف بها ، وساوم مولاها في ثمنها ، فاستام بها عشرة الاف درهم ، فجمع كل ما يملكه ، واستماح اخوانه ، واستنجد باصحابه ، فاتمها له واشتراها[4] . وقد روي ان الذلفاء الجارية المشهورة كان شراؤها على سعيد بن عبد الملك الف الف درهم[5] . وروي ان رسل يزيد بن عبد الملك قدمت الحجاز فاشتروا سلامة المغنية من آل رمانة بعشرين الف دينار[6] .

١) الاصبهاني ١٣ : ١٦٥ وابن عبد ربه ٢ : ٢٢٩
٢) ابن عبد ربه ٢ : ٢٤٥
٣) « ١٣ : ١٥٦
٤) الاصبهاني ٣ : ١١٨
٥) ابن عبد ربه ٣ : ٢٦٣
٦) « ٨ : ١٠

## الجواري والرغبة في امتلاكهن

ولم يحتشم الرواة في ان يذكروا عن عبد الملك انه ارسل الى عامله الحجاج يسأله ان يسيّر اليه الجواري الجميلات ، وان الحجاج دعا بالنخاسين ، وسيّرهم الى كل الجهات يطلبون ضالة عبد الملك[1] . وانه كان يفاضل بين الجواري ، فيقول الرومية تصلح لكذا ، والفارسية لكذا ، والبربرية لكذا[2] .

وروى الجاحظ عن عبد الملك ايضاً ، ان صاحب افريقية اهدى اليه جارية تامة المحاسن ، فاخذ عبد الملك يفحص جمالها وحسن قامتها ، ثم قال لها ، وقد اعجبته : انت والله امنية المتمني . وكانت اول جارية دعا بها بعد انتصاره على ابن الاشعث[3] . وذكر الطبري ان الناس كانت تسأل في زمن الوليد عن البناء ، فصارت تسأل في زمن سليمان بن عبد الملك عن التزويج والجواري[4] .

## الفسق والفساد

ولم يكتف بعض شباب ذلك الجيل بهذا النوع من اللهو والعبث ، ولم يقتصروا على هذه الطرق التي توصلهم الى المرأة ، بل تعدوها الى ما منعه الشرع والدين منعاً باتاً ، فسلكوا سبل الفسق والاثم المنكر ، بحيث استطاع الرواة ، كما اشرنا سابقاً ، ان يذكروا انه كان هناك اناس اتخذوها صناعة لهم ان يجمعوا بين اهل الفسق ، ويتوسطوا بين الفاسقين والفاسقات .

وكان للجواري حظ كبير في التوسط بين العشاق ، فكن يحملن الرسائل ، ويغرين النساء ، ويصلحن بين المتجافين ، وينتحلن الاعذار ، وكان لعمر عدد منهن ممن كان يرسلهن الى معشوقاته ، برع بعضهن في هذه المهنة ، حتى صرن موضوع احاديث الناس ، وقد قال في احداهن :

فاتتها طبّة عالمة ... تخلط الجد مرارًا باللعب
تغلظ القول اذا لانت لها ... وتراخي عند سورات الغضب
لم تزل تصرفها عن رأيها ... وتأناها برفق وادب

قيل : فانشدها امام ابن ابي عتيق ، فقال له : « الناس يطلبون خليفة في صفة

---

١) الابشيهي ٢ : ١٠٥
٢) الابشيهي ٢ : ٢١٢
٣) الجاحظ (ت) ١٥٧
٤) الطبري II : ١٢٧٣

قوّادتك هذه ، يدبّر امورهم ، فما يجدونه »[1].

وأنشدت الابيات امام الوليد بن يزيد، فقال لحماد: «ويحك ، اطلب لي مثل هذه ارسلها الى سلمى »[2].

## المواطن التي فشا فيها اللهو وموقف الزعماء

ولقد فشا هذا المنكر في حواضر الحجاز ، والعراق ، والشام ، كالمدينة ، ومكة ، والطائف ، والبصرة ، ودمشق ، وغيرها . وقد هال بعض الخلفاء والعمال انتشار هذا الفسق ، فسعوا الى اصلاح القوم ، فنهم من نبه الناس الى هذا الاثم ، ومنهم من تهدد الفساق ، ومنهم من عاقب وجلد ، وزياد بن ابيه ، عامل معاوية ، وقفة في البصرة ، تعرض فيها الى امر هؤلاء الفساق . روى ابن عبد ربه ان زياداً قدم البصرة والياً لمعاوية ، والفسق بالبصرة ظاهر فاش ، فخطب خطبته البتراء[3] . واليك بعضها : « اما بعد ، فان الجهالة الجهلاء ، والضلالة العمياء ، والعمى الموفي باهله على النار ، ما فيه سفهاؤكم ، وتشتمل عليه حلماؤكم ، من الامور العظام ، ينبت فيها الصغير ، ولا يتحاشى عنها الكبير ، كأنكم لم تقرأوا كتاب الله ، واستمعوا بما اعد الله من الثواب الكريم لاهل طاعته ، والعذاب العظيم لاهل معصيته ، في الزمن السرمدي الذي لا يزول ، اتكونون كمن طرفت عينه الدنيا ، وسدت مسامعه الشهوات ، واختار الفانية على الباقية ، ولا تذكرون انكم احدثتم في الاسلام الحدث الذي لم تسبقوا اليه ، من تركّكم هذه المواخير المنصوبة ، والصفقة المسلوبة ، في النهار المبصر ، والعدد غير قليل ، الم يكن منكم نهاة ، تمنع الغواة عن دلج الليل ، وغارة النهار . . . كل امرئ منكم يذب عن سفيهه ، صنيع من لا يخاف عاقبة ، ولا يرجو معاداً ، ما انتم بالحلماء ، ولقد اتبعتم السفهاء . . . »[4]

وبعث الامام عمر بن عبد العزيز برسالة الى اهل الامصار ، في امر الخمرة ، تشير الى ان هذه الخمرة ، كانت تقود الناس الى الفسق والفجور وانتهاك الاعراض[5] .

---

١) الاصبهاني ١ : ٥٩—٦٠ ٢) الاصبهاني ١ : ٥٩ ٣) ابن عبد ربه ٢ : ١٨٢

٤) ابن عبد ربه ٢ : ١٨٢ ٥) « « ٣ : ٤١١

### بعض الفساق

ولا يتسع المقام لذكر الشواهد الكثيرة التي اوردها الرواة دلالة على فساد بعض هؤلاء الشباب الارستقراطيين في ذلك العصر ، لاسيا هؤلاء الذين كانت تربطهم بنخبة الصحابة امتن القرابات والصلات ، غير اننا نكتفي بذكر بعض الاخبار عن امثال هؤلاء ممن ركبوا شرّ سبيل في هذا المضمار .

روى المبرّد والاصبهاني عن سعد بن مصعب بن الزبير انه اتهم في امرأة، في ليلة مناحة او عرس ، وكان زوجاً لبنت حمزة ابن عمه (عبد الله بن الزبير) ، فذاع امره ، فقال الاحوص الشاعر فيه ، وكان في المدينة رجل يقال له سعد النار :

وليس بسعد النار من تذكرونه ... ولكن سعد النار سعد بن مصعب
الم ترَ ان القوم ليلة جمعهم ... بغوه فالفوه لدى شرّ مركب
فما يبتغي بالشر لا در درّه ... وفي بيته مثل الغزال المربّب [١]

### الاحوص

والغريب ، ان هذا الشاعر الذي نعى على ابن مصعب فسقه قد كان من افسق الرجال[٢] . وقد زعم ابو الفرج الاصبهاني ان ابن سلام وضعه في الطبقة السادسة من الشعراء ، لما وضع به الاحوص نفسه من دنيء الاخلاق والافعال . ويذكر الرواة عنه اخبارًا في منتهى الفسق والخلاعة ، حتى انهم زعموا انه كان يراود الغلمان عن انفسهم ، ويذكرون خبر وفوده على الوليد بن عبدالملك، وتصديه لغلمان الخبازين في قصره ، وقد جُلد الاحوص ، وصبّ على رأسه الزيت ، واقيم على البلس[٣] .

### العرجي

ومن هؤلاء الفساق العرجي ، وهو سبط عثمان بن عفان ، وقد كان فارساً جوادًا ، وقد رووا عنه قصصاً كثيرة في الخلاعة والتهتك والفسق

١) المبرّد ١ : ٣٩٣ الاصبهاني ٤ : ٤٧ ٢) الاصبهاني ٤ : ٤٤
٣) الاصبهاني ٤ : ٤٤–٤٨

المنكر[١] . وقد جنى عليه طيشه ، وغزله ، وتصديه لذكر بعض النساء ؛ فضرب بالسياط ، واقيم على البلس ، وصب على رأسه الزيت كصاحبه الاحوص، وسجن حتى مات في سجنه[٢] . وهو القائل في سجنه :

اضاعوني واي فتى اضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر (٣

## الوليد بن عقبة وآخرون

ومن هؤلاء ايضاً الوليد بن عقبة ، اخو عثمان لامه ، وقد كان فيما يروون زانياً ، فاسقاً ، شريب خمر[٤] . ومنهم السري بن عبد الرحمن بن عتبة بن عويم بن ساعدة الانصاري ، وكانت لجده صحبة بالنبي ، وكان السري من شعراء اهل المدينة ، وكان من الغزلين والمنادمين على الشراب ، وكان يتنادم هو وعتير بن سهل بن عبد الرحمن بن عوف ، وجبير بن ايمن ، وخالد بن ابي ايوب الانصاري ، وفيهم يقول السري :

اذا انت نادمت العتير وذا الندى جبيرًا ونازعت الزجاجة خالدا
امنت باذن الله ان تفزع العصا وان ينبهوا من نومة السكر راقدا (٥

وهو القائل :

ليتني في المؤذنين نهارا انهم يبصرون من في السطوح
فيشيرون او يشار اليهم حبذا كل ذات جيد مليح (٦

غير انه فيما نرى لم يبلغ مبلغ الذين تقدم ذكرهم . فهو من هؤلاء الشبان الذين لم يصلوا في لهوهم مع النساء الى مثل هذا الدرك الذي ذكرنا . وقد التبس الامر على بعض الرواة في هؤلاء ، فاتهمهم نفر ، وبرأهم نفر آخر ، ولعل ظرفهم ، وحبهم للفكاهة والعبث ومحادثة النساء ، كانا من الامور التي جعلت البعض يتهمونهم ، فقد روي عن ابن ابي عتيق ، وهو احد اصدقاء

١) الاصبهاني ١ : ١٥٧
٢) الاصبهاني ١ : ١٦١ و١٦٣ و١٦٤
٣) « ١ : ١٦٥
٤) « ٤ : ١٧٧–١٧٨
٥) « ١٨ : ٦٥
٦) « ١٨ : ٦٧

عمر، انه كان صالحاً عفيفاً[١]، ومع ذاك، فقد ذكروا ان زوجته عاتكة بنت عبد الرحمن المخزومية هجته، فقالت:

ذهب الاله بما تعيش به وقمرت ليلك ايما قمر
انفقت مالك غير محتشم في كل زانية وفي الخمر[٢]

وقد روي عن صاحبنا عمر، كما سنرى، انه كان عفيفاً، يصف ويعف، ويحوم ولا يرد[٣]. وروي من ناحية اخرى انه كان فاسقاً، يتعرض للنساء الحواج في الطواف، وانه كثير الوقائع والمجون والخلاعة، سئل عن فسقه فاقرّ واستغفر الله[٤].

والحق، انه كان هناك بون شاسع، وفرق كبير، بين هذين مثلاً، وبين بعض من تقدم ذكرهم آنفاً.

ومها يكن من ذاك، فقد كان في حدود الدين، وسطوة الخلفاء الاول وعمالهم، ما اوقف تيار هذا اللهو اول الامر، غير انه لما زالت خلافة الراشدين، وتحول زمام الامر الى ايدي بني امية في دمشق، فترت الروح الدينية، وزال شيء كثير من دهشتها، واصبح من العسير على زعماء بني امية، بعد هذا التطوّر الغريب، والانقلاب الكبير، ان يكبحوا جماح هؤلاء الشباب، او ربما لم يرغبوا في التعرض لكبح هذه الروح التي فشت في الحجاز وغيرها، لعلهم في ذاك يوطدون نفوذهم ويلهون خصومهم.

## المرأة العربية

اما المرأة العربية في ذلك العصر، فقد كانت تختلف عن الاماء كل الاختلاف في هذا السبيل، ولست انكر ان بعضاً من رشاش هذا المجون والفساد الذي فشا بين الاماء قد اصاب بعض العربيات، فقد روي انه كان لمروان بن الحكم قريبة، كانت هي ورفيقة لها، من اجن النساء،

١) الحصري ١: ٢٩١ والمبرد ١: ٢٧٤ ٢) الجاحظ (ت) ١٣١
٣) الاصبهاني ١: ٥٢ و٩٣ والحصري ١: ٢٩٢ و٢٩٨
٤) ابن قتيبة (ش) ٣٤٨ وابن خلكان ١: ٥٢٨ والاصبهاني ١: ٦٧

وكان يلازمهما دلال المخنث ، وكانتا تخرجان ، فتركبان فرسين ، فتستبقان عليهما ، حتى تبدو خلاخيلهما ، وان معاوية كتب الى مروان يقول: اكفني بنت اخيك[1].

وروي انه كان في الحجاز امرأة من ولد عتاب بن اسيد ، يقال لها ديباجة الحرم ، وكان يزورها بعض شباب ذلك العصر ، وانها بعثت مرة وراء زيد بن عمرو زوج سكينة ، فوافاها الى الابطح ، وكانت قد افترشت فيه بساطاً ، وطرحت النمارق ، ووضعت حشايا ، وعليها انماط ، فجلست عليها ، فلما طلع زيد قامت ، فتلقته ، واحفت بقدومه ، وان سكينة انكرت على زوجها هذا الامر[2]. وكانت ديباجة الحرم هذه من اللواتي تشبب بهن عمر بن ابي ربيعة[3].

وروي ايضاً عن كلٍّ من عبد الرحمن بن حسان وعبد الرحمن بن الحكم انه كان يختلف الى امرأة صاحبه ، حتى فضحتا[4].

## اللهو البريء

ولكن هذا اللهو الذي قضاه شباب ذلك العصر مع المرأة العربية ، وبنوع خاص الارستقراطية ، كان او كاد يكون بوجه عام لهوًا بريئاً ، حُفظت فيه للمرأة مكانتها ، وصينت عفتها ، وكان في اغلب الاحيان ، اذا احب احدهم فتاة عربية ، سعى فتزوج منها ، ومن لم يستطع من الرجال ان يحظى بمن احبها كزوجة له ، او من لم يكن يقصد الى ذاك ، منعته حرمة المرأة العربية ، وآدابها ، ومقامها ، لاسيما اذا كانت من الشريفات ، ان يطمح في اكثر من ان ترضى عنه ، او ان تعرف حبه لها على الاقل.

رووا ان الحارث بن خالد المخزومي ، والي مكة لعبد الملك بن مروان ، استهيم بحب عائشة بنت طلحة ، وكان مسهباً بها ، وكانت ذات جمال ومكانة وشرف ، وحجت عام ولايته ، فارسلت اليه تسأله ان يؤخر الصلاة حتى

---

١) الاصبهاني ٤: ٦٤
٢) الاصبهاني ١٧: ٩٣
٣) » ١٧: ٩٣-٩٤
٤) » ١٣: ١٥٠

تفرغ من طوافها ، فامر المؤذنين ، فأخروا الصلاة حتى فرغت من طوافها ، ثم اقيمت الصلاة ، فصلى بالناس ، وانكر اهل الموسم ذلك من فعله ، واعظموه ، فعزله عبد الملك ، وكتب اليه يؤنبه فيا فعل ، فقال: ما اهون والله غضبه ، اذا رضيت ؛ والله ، لو لم تفرغ من طوافها الى الليل ، لاخرت الصلاة الى الليل. فلما قضت حجها ، ارسل اليها يقول: يا ابنة عمي ، الِمّي بنا ، او عدينا مجلساً نتحدث فيه . فقالت: في غدٍ افعل ذلك . ثم رحلت من ليلتها ، فقال فيها :

| | |
|---|---|
| ما ضرّكم لو قلتم سددًا | ان المطايا عاجل غدها |
| ولها علينا نعمة سلفت | لسنا على الايام نجحدها |
| لو تممت اسباب نعمتها | تمت بذلك عندنا يدها |

رووا ان الغريض لحقها بهذه الابيات في كتاب من الحارث اليها ، فلما قرأت الكتاب ، قالت : ما يدع الحارث باطله[1].

وللحارث فيها حين تزوج منها مصعب ورحل بها الى العراق :

| | |
|---|---|
| ظعن الامير باحسن الخلق | وغدا بلبّك مطلع الشرق |
| في البيت ذي الحسب الرفيع ومن | اهل التقى والبرّ والصدق |
| فظللت كالمقهور مهجته | هذا الجنون وليس بالعشق |
| اترجّة عبق العبير بها | عبق الدهان بجانب الحق |
| ما صبّحت احدًا برؤيتها | الا غدا بكواكب الطلق[2] |

## مكانة المرأة العربية

ولعلّ هنا خير موضع لذكر المكانة والحرية اللتين كانت تتمتع بهما المرأة العربية الشريفة في ذلك العصر ، كعائشة ام المؤمنين ، وسكينة بنت الحسين ، وفاطمة بنت عبد الملك ، وعاتكة بنت يزيد ، وعائشة بنت طلحة ، والثريا بنت علي بن عبد الله ، وزينب بنت موسى الجمحية ، وغيرهن.

فقد روى الرواة ان سكينة كانت حين تزوجت من زيد بن عمرو بن عثمان احلفته ان لا يمنعها سفرًا ، ولا مدخلًا ، ولا مخرجاً ، وقد بلغت بها

---

١) الاصبهاني ٣ : ١٠٢–١٠٤

٢) الاصبهاني ٣ : ١٠٢–١٠٤

مكانتها ونفوذها ان منعت زيداً مرة من زيارتها بالطائف ، حيث اقامت ببيت لها ، وحوّطت من ورائها بحيطان ، ومنعت زيداً ان يدخل عليها[١].

واستأذنها مرة في ان يحج ، لان الخليفة سليمان بن عبد الملك حاجّ في ذلك العام، ولا يمكنه التخلف عن الحج معه ، وكان لزيد في العرج جوارٍ ، فاعلمته انها لا تأذن له الا ان يخرج اشعب خادمها معه ، فيكون عيناً لها عليه ، ومانعاً له من العدول الى العرج ومن اتخاذ جارية لنفسه ، واستطاع زيد ان يغري اشعب بالمال ، وينسل الى العرج ، ولما عاد الى سكينة اقرّ بما فعل ، واهداها الجواري لتبيعهن او تعتقهن[٢].

وكانت عائشة – كسكينة – ذات مكانة كبرى ، حفظت هي وصاحبتها سكينة مكانة المرأة العربية في ذلك العصر ، ورفعتا مقامها وشأوها ، ولعلنا لا نخطئ اذا قلنا ان المكانة التي كانت تحرزها المرأة العربية في ذلك العصر لم تصل الى مثلها حتى الآن.

وقد روي عن عاتكة بنت يزيد بن معاوية انها غضبت مرة على زوجها عبد الملك بن مروان ، وهو خليفة ، وكان بين غرفته وغرفتها بابٌ ، فحجبته، واغلقت ذلك الباب ، فشق غضبها على عبد الملك ، وشكا امره الى رجل من خاصته ، حتى يحتال له في رضاها[٣].

وروي عن عائشة بنت طلحة انها غضبت على زوجها مصعب بن الزبير ، فهجرته ، وقعدت في غرفة ، وهيأت فيها ما يصلحها ، فجهد مصعب ان تكلمه، فابت ، حتى بعث اليها ابن قيس الرقيات يستعطفها[٤]. وفي رواية اخرى انه بعث اشعب ، فقال له : ما لي ان رضيت ؟ قال : حكمك ! قال : عشرة الاف درهم قال : هي لك ! فانطلق ، حتى اتى عائشة ، فقال : جعلت فداءك ، قد علمت حبي لك ، وميلي قديماً وحديثاً اليك ، من غير منالة ، ولا فائدة ، وهذه حاجة عرضت ، تقضين بها حقي ، وترتهنين بها شكري . قالت : وما عناك ؟ قال : قد جعل لي الامير عشرة الاف درهم ان رضيت عنه.

١) الاصبهاني ١٧ : ٩٣ ٢) الاصبهاني ١٤ : ١٦٧-١٦٨

٣) « ٢ : ١٢٩ ٤) « ١٠ : ٥٤

قالت: ويحك! لا يمكنني ذلك! قال: بابي انت، فارضي عنه، حتى يعطيني، ثم عودي الى ما عودك الله من سوء الخلق. فضحكت منه، ورضيت عن مصعب[١].

ودخل عليها مصعب يوماً، وهي نائمة متصبحة، ومعه ثمان لؤلؤات، قيمتها عشرون الف دينار، فانبهها، ونثر اللؤلؤ في حجرها، فقالت له: نومتي كانت احبَّ اليَّ من هذا اللؤلؤ[٢].

وكانت احدى بنات النعمان عند روح بن زنباع، وكانت ذات مكانة ومقام تأبى معهما ان تخضع له في كل ما يريد[٣]. وكذلك كان شأنها او شأن اختها مع الحجاج فيما يروون[٤].

ومما يشير الى مكانة المرأة في ذلك العصر انها لم تكن تنكر التشبيب بها، ولا تتأثر او تغضب اذا ذكرها الشعراء، بل كان من النساء الشريفات من كنّ يرغبن في ان يذكرن في شعر هؤلاء الشعراء، ولا يخشين لوماً، وقد روي عن ام البنين، امرأة الوليد بن عبد الملك، انها كانت تريد ان يشبب بها الشعراء، رغم تهديد زوجها لها[٥].

ويروى عن فاطمة بنت عبد الملك انها ارادت الحج، فكتب الحجاج بن يوسف الى عمر بن ابي ربيعة يتوعده ان ذكرها بشعره، او عرض باسمها، وكانت تحب ان يقول فيها شيئاً، وتتعرّض لذلك، فلما قضت حجها، خرجت، فمرّ بها رجل، فقالت له: من انت؟ قال: من اهل مكة. قالت: عليك وعلى أهل بلدك لعنة الله! قال: ولِمَ ذاك؟ قالت: حججت، فدخلت مكة، ومعي من الجواري ما لم ترَ الاعين مثلهن، فلم يستطع الفاسق ابن ابي ربيعة ان يزودنا من شعره ابياتاً نلهو بها في الطريق في سفرنا. قال: فاني لا اراه الا قد فعل. قالت: فأتنا بشيء ان كان قاله، ولك بكل بيت عشرة دنانير[٦].

وكانت عائشة بنت طلحة تسير مرةً على بغلة لها بمكة، فلقيها عمر بن ابي

---

١) الاصبهاني ١٠: ٥٤ ٢) الاصبهاني ١٠: ٥٧
٣) ابن عبد ربه ٣: ٢٨٩ والاصبهاني ٨: ١٤٠
٤) الاصبهاني ٨: ١٣٨-١٣٩ والابشيهي ١: ٥١-٥٢
٥) الاصبهاني ٦: ٢٧ ٦) الاصبهاني ٢: ١٢٨

ربيعة ، فقال لها : قفي حتى اسمعك ما قلت فيك . فلم تغضب ، ولم ترفض، بل داعبته بقولها : أوَ قد قلت يا فاسق ! فقال : نعم ! فوقفت ، وانشدها :

يا ربة البغلة الشهباء هل لك في ان تنشري ميتاً لا ترهقي حرجا
قالت بدائك مت او عش تعالجه فما ترى لك فيما عندنا فرجا
قد كنت حملتنا غيظاً نعالجه فان بعدنا فقد عنّيتنا حججا
حتى لو استطيع مما قد فعلت بنا أكلت لحمك من غيظ وما نضجا

فقالت : لا وربّ هذه البنية ، ما عنّيتنا طرفة عين قط ، ثم قالت لبغلتها : عدس ، وسارت[1] . وكانت الثريا تسرّ بشعر عمر فيها ، بل كان من النساء من كنّ يزين الجمال ان يذكرن في شعر بعض هؤلاء الشعراء الغزلين ، حتى زعموا انه لما قال عمر في رملة :

وجلا بردها وقد حسرته نور بدرٍ يضيء للناظرين

سمعت الثريا هذا الشعر — وكانت رملة جهمة الوجه ، عظيمة الانف ، حسنة الجسم — فقالت تعيب على عمر استحسانه لوجهها :

افّ له ما اكذبه ! أوَ ترتفع حسناء ، بصفته لها ، بعد رملة ؟[2]

ومما يشير الى مكانتها ايضاً ، لاسيما مكانة تلك التي كانت من نساء الطبقة الارستقراطية ، ذوات المولد الكريم ، من قريش ، وغير قريش ، حياتها الادبية الراقية ، واحاديثها في مجالسها ، ومواكبها اذا سارت الى حج ، ومهرها اذا تزوجت ، وحريتها في الزواج ممن تشاء ، او على الاقل ، مشاورتها في امر زواجها . وقد روي عن بعضهن في ذلك العصر انهن كن لا يفتات عليهن ، فاذا جاء خاطب ، خطب المرأة الى نفسها[3] . ومنهنّ من عُرض عليها الزواج من احد كبار رجال ذلك العصر ، فابت ، لان ذلك الزوج لا يوافق هوى نفسها ، وقد روي ان عمر بن الخطاب خطب ام كلثوم ، اخت عائشة ام المؤمنين ، وكانت صغيرة ، فارسل الى عائشة في ذاك ، فلما ذكرت ذلك عائشة لام كلثوم ، قالت لها : لا حاجة لي فيه . فقالت عائشة : اترغبين عن امير المؤمنين ؟ قالت : نعم ! إنه خشن العيش ، شديد على النساء[4] . وخطب

١) الاصبهاني ١ : ٨١
٢) الاصبهاني ١ : ٨٧–٨٨
٣) ابن عبد ربه ٣ : ٢٨٠
٤) ابن عبد ربه ٣ : ٢٧٥

عبد الملك بن مروان ابنة عبد الرحمن بن الحرث بن هشام ، فابت ان تتزوجه ، وقالت : والله لا تزوجني ابو ذباب ، وتزوجت من يحيي بن عبد الحكم[1] . وخطب عائشة بنت طلحة بشر بن مروان ، فرفضته ، وتزوجت من ابن عمها[2] .

واما عن مهورهن فالاحاديث جمة ، وقد بلغ مهر بعضهن ، فيما يروى ، مليون درهم . هكذا رووا عن مهر سكينة وعائشة بنت طلحة من مصعب[3] ، بل قد رووا ايضاً ان عائشة نالت من عمر بن عبيد الله بن معمر مثل مهرها من مصعب[4] .

ورووا ان الحجاج تزوج من بنت عبد الله بن جعفر على مليونين ونصف[5] . وفي بعض الروايات على تسعين الف دينار[6] .

وسنعرض لحياة المرأة الادبية عند درسنا الحياة الادبية في ذلك العصر .

وكان بعض النساء يجلسن لخطابهن[7] ، ويتحدثن معهم ليختبرنهم ، وكثيراً ما كان يؤول مثل ذلك الاجتماع الى رفض الخاطب[8] .

وكانت مكانة الوالدة رفيعة عزيزة ، وفي حديث عبد الله بن الزبير مع امه اسماء بنت ابي بكر ، واستشارته لها ، ونصيحتها له ، ما يؤيد هذا . وكان طلحة الطلحات براً بامه ، وفارقها مرة الى سجستان ، وزارها رسول منه ، ثم عاد اليه ، فسأله عنها ، فقال : بأحسن حالة . قال : انظر كيف تقول ! قال : هذا كتابها . قال راوي الخبر : فعرف الشواهد والعلامات ، وسأله الرسول ان يقرأ كتاب وصيتها ، فاجابه طلحة : ويحك ! الم تأتني بسلامتها ؟ حسبك ! وامر له بخمسين الف درهم[9] .

---

١) ابن عبد ربه ٣ : ٢٨١

٢) الاصبهاني ١٠ : ٥٨ وراجع ابن عبد ربه ٣ : ٢٩٢-٢٩٣ حيث ترى اخبار غير هؤلاء ممن رفض بعض النساء الزواج منهم

٣) الاصبهاني ١٠ : ٥٦

٤) الاصبهاني ١٠ : ٥٨

٥) ابن عبد ربه ١ : ١٤٦

٦) ابن عبد ربه ٣ : ٢٩٢

٧) « ٣ : ٢٨١ و ٢٩٥

٨) ابن عبد ربه ٣ : ٢٨٠ و ٢٨٣

٩) ابن عبد ربه ٣ : ٢٧٩

ويحكى عن عبد العزيز بن مروان انه قال: لا اعطي شاعراً شيئاً، حتى يذكر ليلى امي في مدحه، لشرفها، فكان الشعراء يذكرونها باسمها في اشعارهم[١].

## السفور والحجاب

ويظهر انه كان هناك كثيرات ممن كن يبرزن للرجال، حتى من نساء الامراء، وقد روي عن عائشة بنت طلحة، وهي عند مصعب، انها كانت لا تستر وجهها من احد[٢].

ويروى عن هند بنت النعمان بن بشير، انها كانت تشرف على وفد عند زوجها سافرة[٣].

وكانت امرأة عبد الملك العبشمية ام الوليد وسليمان، تسفر[٤].

ويروي ابو الفرج عن سكينة انها كانت عفيفة، سلمة، برزة من النساء، تجالس الاجلة من قريش، وتجتمع اليها الشعراء، وكانت ظريفة مزاحة[٥].

ويروى عن عمرة صاحبة ابي دهبل الجمحي انها كانت امرأة جزلة، تجالس الرجال، وتحادثهم، وهي سافرة[٦].

وهناك اخبار كثيرة عن نساء من غير الشريفات، كن يبرزن للرجال سافرات، لا سيا في بعض المواسم الخاصة، كحفلات الغناء، او مسيل العقيق. ويروى عن الاحوص، وكثير، ورفيق لهما، انهم ساروا غب يوم امطرت فيه السماء يطلبون العقيق، ليمتعوا فيه ابصارهم، فلبسوا، وتزينوا، وركبوا، حتى اتوا العقيق، فجعلوا يتصفحون، ويرون بعض ما يشتهون، حتى رفع لهم سواد عظيم، فاموه حتى اتوه، فاذا وصائف، ورجال من الموالي، ونساء بارزات، فحلفنهم ان ينزلوا، فنزلوا، ولهوا عندهن بسماع الغناء[٧].

١) الاصبهاني ١: ١٣٦
٢) الاصبهاني ١٠: ٥٤ والحصري ١: ٣٠٢ والنويري ٤: ٢٨٩
٣) ابن عبد ربه ٣: ٢٨٩
٤) ابن عبد ربه ٣: ٢٨٩
٥) الاصبهاني ١٤: ١٦٥
٦) الاصبهاني ٦: ٢٥٥
٧) « ١: ١٤٢

وكان النساء في الطواف يتعرضن للظهور، فيرى الرجل وجوههن، فكان يسهل على الشباب الاتصال بالنساء والتحدث اليهن. وسنرى في اخبار صاحبنا عمر انه استطاع ان يرى كثيرات من الجميلات وقت الطواف.

ويقال عنه انه رأى عائشة بنت طلحة وهي ترمي الجمار سافرة، فبهت. ويروى انها قالت له: هذا مقام لا بدّ فيه مما رأيت[1]. ويروي الازرقي باسنادٍ عن عطاء انه كره ان تطوف المرأة بالكعبة وهي متنقبة وعن غيره ايضاً انه كان يكره للنساء التنقّب في الطواف[2].

وكنّ في الاعياد يتزيّن، فيما يروى، ويبدو بعضهنّ لبعض، ويظهرن للرجال[3]. ويروى عن جميل، اول ما احب بثينة وعشقها، انه رآها في عيد، فرأى منها منظرًا اعجبه[4].

ولعل الجميلات منهن كنّ يأنفن ان يسترن جمالهن بقناع، وقد قيل انه لما ليمت عائشة على سفورها، قالت: ان الله تبارك وتعالى، وسمني بميسم جمال، احببت ان يراه الناس، ويعرفوا فضله عليهم، فما كنت لاستره. ووالله! ما فيّ وصمة يقدر ان يذكرني بها احد[5].

ويذكر المبرّد الشماخ، قوله: «اطارت من الحسن الرداء المحبّرا»، ثم يشرحه بقوله: «هي مدلة بجمالها، فلا تختمر، فتستر شيئاً عن الناظر، لانها تبتهج بكل ما في وجهها ورأسها، وقد كشف هذا المعنى عمر بن ابي ربيعة المخزومي حيث يقول:

فلما تواقفنا وسلّمت اقبلت     وجوه زهاها الحسن ان تتقنعا[6]

وفي شرح حماسة ابي تمام، لقول عمر:

فلما تفاوضنا الحديث واسفرت     وجوه زهاها الحسن ان تتقنعا

قول الشارح: «ولما تفاوضنا الحديث، واسفرت وجوه نساء، زها هذه المرأة

---

١) الاصبهاني ١: ٨٠
٢) الازرقي ١: ٢٦٠
٣) الاصبهاني ٧: ٨١
٤) الاصبهاني ٧: ٨١
٥) « ١٠: ٥٤
٦) المبرد ١: ٤٩١

حسنها ان تتقنع، وهكذا كانت نساء العرب تفعل، اذا كانت جميلة[1].

ولعل الوجه كان، اذا ستر، يستر بالخمار. وهناك اشارات صريحة، الى ان بعض النساء كنّ يتقنعن بأخمرتهن[2].

وللحارث بن خالد المخزومي شعر في بعض النساء، زمن الطواف، يشير الى اخمرتهن:

ففرغن من سبع وقد جهدت احشاؤهن موائل الخمر[3]

ولعمر في احدى صاحباته:

واشتكت شدة الازار من البهر م والقت عنها لديَّ الخمارا[4]

وربما نعرض لدرس بعض سبل هذا اللهو البري. الذي كان يقضيه شبان ذلك العصر مع شريفات النساء العربيات عند بحثنا في حياة عمر، انما لا نرى بدًا من الاشارة هنا الى ان هذه الاوقات التي كان يقضيها الشباب في مجالس المرأة، كانت عنوانًا على حياة المرأة الادبية الراقية، فهي، في الغالب، تدور على انشاد الاشعار، ونقدها، والتحدث في بعض شؤون العرب المختلفة في ذلك العصر، ولم تخل اكثر هذه المجالس التي ينفرد فيها المحبان من ذكر الشوق، والحبّ، والتعاتب، وسرد قصص الحب. ولعلّ عمر اولى الشعراء بانتباهنا لدرس روح هذه المجالس، وانواع الحديث فيها، واثرها في شعره، وهو القائل:

فيا طيب ما لهو هناك لهوته بمستمع منها ويا حسن منظر[5]

وقال ايضاً:

رب لهو لهوته بجوار ربائب
ليس في ذاك محرم واله المغارب
غير ان نشفي الصدور م بذرو التعاتب[6]

---

١) التبريزي ٣: ١٢٧
٢) الاصبهاني ٦: ٨٦ وابن سعد ٨: ٢٦٣
٣) الاصبهاني ٣: ١٠٨
٤) ابن ابي ربيعة (ع) ٢٤٤
٥) ابن ابي ربيعة (ع) ١٩٩
٦) ابن ابي ربيعة (ع) ٦٠

## المواسم

### مواسم الحجاز تسهل لهم سبل اللهو

وكانت هناك مواسم في الحجاز سهّلت على شباب ذلك العصر سبل اللهو، وساعدتهم على الالتقاء بالمرأة، والتقرب اليها والتعرض لها، سواء اكانت حرة او أمة، شريفة او وضيعة. وقد نال المرأة بسبب هذه المواسم حظ من الحياة مع غير زوجها او ابيها او اخيها او قريبها، فتعرّفت الى الشاب واجتمعت به، وحادثته وحادثها، واحبته واحبها، واستمعت الى شعره فيها ان كان شاعراً، واسمعته نقدها ورأيها في هذا الشعر.

وكانت هذه المواسم، بالوقت نفسه، مدعاة الى تطور الحياة الاجتماعية عند اهل ذلك الجيل، بحيث اخذ الكثير منهم يفهم الحياة على غير الوجه الذي كان يألفه من قبل، كما وانها ساعدت على ترقية الحياة الادبية عند العرب كما سنرى

### المدينة والعقيق

لم يكن التطور الذي طرأ على الحجاز بالشيء اليسير كما رأيت، ولقد نال المدينة فيما يظهر لنا اكبر نصيب منه. ذلك انها كانت مركز الخلافة لدولة الراشدين، فتحدر اليها اكثر الفيء، واكثر الرقيق والسبي. وتقع المدينة على سهل تحيطه من بعض جهاته ارض حرّاء بركانية. غير ان تربته في الجهة الجنوبية مشبعة من المياه التي يندر وجود مثلها في سائر الحجاز. وتظهر هذه المياه وتكثر بعد نزول الامطار وتحدّر السيول، وتغور بعض مياه الامطار والسيول تحت سطح الارض، وتستقر في جوفها[1]. ومن هنا نستطيع فهم سبب كثرة الآبار في المدينة، واستعمالها لسقي الزرع.

وينبت في تربتها المخصبة انواع كثيرة من الاشجار المثمرة، اهمها النخيل.

١) ياقوت ٤: ٤٥٩ وبُول – الموسوعة الاسلامية – تحت al-Madīna

ومناخها ، على مـا في صيفها من حرّ وشتائها من برد ، خير من مناخ مكة ؛ وهي تفضل مكة من حيث المزروعات والاثمار ايضاً . وقد اصبحت ، بعد انتقال الخلافة الى دمشق ، موطناً للكثيرين من هؤلاء الذين رغبوا عن السياسة الى الهدوء والراحة والدَعة[١]. فقد رجع اليها الحسن بن علي بعد ان بايع معاوية[٢]. وفيها اقام عبدالله بن جعفر كما هو مشهور[٣]. وفيها اقام الصحابة المهاجرون ، اول الاسلام ، فبقيت بعدهم اكثر عائلاتهم . واليها انتقلت كما سنرى عائلة عبدالله ابن ابي ربيعة ، والد شاعرنا ، فولد عمر ونشأ فيها فيما نرجح. وفيها اقام ابن ابي عتيق[٤]، والحسن بن الحسن بن علي[٥] ، وابن علي من الحنفية[٦] ، وسعد بن ابي وقاص[٧]، وغير هؤلاء حتى قيل انه كان فيها ، قبل فتنة ابن الزبير، من بني أمية واحلافهم خلقٌ كثير ، رووا انهم اكثر من ثلاثة آلاف[٨]. وقد اجلى ابن الزبير بعضهم الى الشام[٩] ، وظلّوا يحنّون الى الحياة فيها[١٠]. وهكذا اصبحت المدينة ، كما ذكرنا ، موطناً لطبقة كبيرة من الناس ممن آثروا حيـاة الهدوء والدعة على الحرب والاشتراك في الخصومات السياسية ، بحيث استطاعوا فيما يقول بُول ( Buhl ) ان يتمتعوا وهم مطمئنون بهذه الثروة الكبرى التي تحدّرت اليهم اثر الفتوحـات[١١] ، وانتهى ببعضهم الترف في العيش الى شيء عظيم من اللهو والمجون والعبث[١٢] ، بحيث ذكر الطبري ان مروان الاخير ، رأى احـد رجال المدينة ممن خرجوا عليه في ثورة سليمان بن هشام بن عبد الملك سنة ١٢٧ هـ. فقال له : « يا فاسق ، اما كان لك في خمر المدينة وقيانها ، ما يكفك عن

١) بُول – الموسوعة الاسلامية – تحت al-Madīna
٢) الطبري II : ٩ والدينوري ٢٣٢
٣) الاصبهاني ١١ : ٦٨،٦٩،٧٠ وراجع فهرس الاغاني لـگويدي تحت عبدالله بن جعفر ، وابن عبد ربه ١ : ١٤٥
٤) الاصبهاني ٨ : ١٠ و ٧ : ١٣٢
٥) الاصبهاني ٢ : ٦٣–٦٤
٦) الدينوري ٣٠٨
٧) المسعودي ٤ : ٢٥٤
٨) الاصبهاني ١ : ١٤
٩) الاصبهاني ١ : ١٤
١٠) « ١ : ١٥
١١) بُول – الموسوعة الاسلامية – تحت al-Madīna
١٢) الاصبهاني ٢١ : ١٧٩

الخروج مع... تقاتلني ؟» قال: «يا امير المؤمنين، اكرهني، فانشدك الله والرحم !» قال: «وتكذب ايضاً ؟ كيف اكرهك ، وقد خرجت بالقيان والزقاق والبرابط معك في عسكره ؟ »[١].

وقد ذكر الاصبهاني ان الفرزدق كان يقيم فيها ويختلف الى بيوت القيان[٢]. وروى ان مروان بن الحكم عاملها لمعاوية انكر عليه هذا ، ثم لقيه ، فقال له :

قل للفرزدق ، والسفاهة كاسمها، ان كنت تارك ما نهيتك فاجلس
ودع المدينة انها مذمومة واقصد لمكة او لبيت المقدس[٣]

## عصر المدينة الذهبي

ولعل هذا العصر كان عصر المدينة الذهبي الذي تغنت بامجاده الشعراء وتنتذ ، من جمال في الرياض المحيطة بالمدينة ، الى لين ودعة في العيش ، الى غنى ومال عظيم ، الى تساهل من قبل رجال الحكم ولعلك التفت الى هذه النواحي الجديدة في حياة اهلها في ذلك العصر، من اتخاذ بعضهم غرفة خاصة، جعلها نادياً ، يتردد الرجال اليها ، فيها من الالعاب الوان كثيرة، ومن ضروب التسلية طائفة كبيرة. ومن تردّدهم ايضاً الى حفلات الغناء ؛ فقد كانت تعقد فيها ، كما رأيت ، حفلات كثيرة للغناء ، منها عامة ومنها خاصة ، كان يلبس المغنون في بعضها ، كما روي ، لباساً خاصاً.

ولقد كانت هذه المواسم الغنائية التي تعقد في المدينة مقصد الكثيرين من طلاب اللهو، لا سيا من اهل مكة. ولنا ، في اخبار بعض شعراء مكة وشبابها من اهل المرح واللهو ، ما يفيد انهم كانوا يقدمون خصيصاً لحضور مثل هذه الحفلات الغنائية[٤].

وكان صاحبنا عمر من اكثر الناس تردداً لمثل هذه الحفلات، وهو في المدينة ، ثم لم يفته ، بعد ارتحاله عن المدينة ، ان يقصد اليها لحضور هذه الحفلات الغنائية[٥].

---

١) الطبري II : ١٩١٠ ٢) الاصبهاني ٢١ : ١٩٧
٣) الاصبهاني ٢١ : ١٩٧ ٤) الاصبهاني ٧ : ١٢٥ ٥) الاصبهاني ٧ : ١٢٥

**العقيق**

ولقد كان هناك في المدينة موضع خاص، لعله كان اكثر مواضعها حظاً من حياة اللهو والعبث والمرح والطرب، وكان لصاحبنا عمر ايضاً فيه حظ كبير. ذلك هو العقيق، وادي المدينة البهيج، ومتنزه اهلها، ومزار الكثيرين من طلاب اللهو من سائر مدن الحجاز.

يبعد اول العقيق عن المدينة نحو ميلين او ثلاثة من الجهة الجنوبية الغربية[١]. وتنحدر اليه السيول الهابطة من الجبال حوله، فتجعل فيه نهراً كبيراً يضطرب في بعض الاحيان مثل مدّ الفرات[٢] - ترمي اواذيّه العبرين بالزبد - ثم يهوي على الجنائن والبساتين، فيسقي نخلها، ويروي روضها، وينعش نفوس هؤلاء العرب هناك من اهل المدينة وما جاورها الذين خلا قطرهم من الانهار؛ فما هو الا ان يسمعوا ان العقيق قد سال حتى تراهم، وقد هرعوا اليه افواجاً افواجاً، رجالاً ونساء، يتمتعون بمنظره المبهج؛ وينفرد بعضهم ليستحم بمائه؛ ويعقد البعض الآخر حول ضفافه وعلى بساط رياضه حلقات الانس والطرب، فيستنشدون الشعراء فينشدونهم من شعرهم، ويلتمسون المغنين فيسمعونهم من عذب انغامهم، بينما ينزوي غيرهم تحت نخيله يشربون ويعبثون[٣].

**العقيق وحلقات اللهو فيه**

ذلك هو العقيق متنزه اهل المدينة في ايام الربيع والمطر، فيما يقول ابو الفرج[٤]. فهو بروعته وجماله المفعم الاخاذ يجذب اليه هذه الجماهير من اهل المدينة واهله، فينتشرون على اراضيه ينعمون بالجمال الذي يحيط بهم. كل في لهوه، فترى نفراً من المغنين اندفعوا يتغنون، فاجتمعت عليهم نساء اهل الوادي حتى صار مراحهم كمراح الضأن. ويرى ابن عائشة ذلك، فيلتفت الى صاحب معه ويقول:

١) ياقوت ٣ : ٧٠٠ – Lammens – الموسوعة الاسلامية – تحت ʿAḳīḳ
٢) الاصبهاني ٢ : ١٧٢
٣) الاصبهاني ٧ : ١٢٠ : ١٤ و ٧٩ – Lammens – الموسوعة الاسلامية – تحت ʿAḳīḳ
٤) الاصبهاني ٢ : ١٧٢

«اما والله لافرقن هذه الجماعة». ثم ياتي قصراً من قصور العقيق ، فيعلو سطحه ، ويلقي رداءه ، ويتكىء عليه ، ويغني :

هذا مقام مطرد هدمت منازله ودوره

فلا يقضي صوته حتى تحتشد النساء اليه ، فلا تبقى امرأة منهن الا جلست تحت القصر ، فيقول المغنون في الحلقة الاولى: «هذا عمل ابن عائشة وحده»[1].

او ترى المواكب يسير فيها ارستقراطيو ذلك البلد ، من رجال تحف بهم حاشيتهم ، الى نساء تحف بهن جواريهن ؛ فهنا عبد الله بن جعفر يتنقل بين حلقات المغنين يحبو هذا ويكسو ذاك[2] ، وهناك موكب سكينة وهي خارجة من قصرها بالعقيق لتغتسل بماء واديه[3].

او ترى نصيباً وكثيراً والاحوص يركبون افضل ما يقدرون عليه من الدواب ، ويلبسون احسن ما يقدرون عليه من الثياب ، ويسيرون متنكرين . ثم يتصفحون هذه الحلقات والجماعات في العقيق ، ويرون بعض ما يشتهون ، حتى يرتفع لهم سواد عظيم فيأمونه حتى ياتوه ، واذا وصائف ورجال من الموالي ، واذا نساء بارزات ، فيسألون النزول وينزلون ، واذا كراسي موضوعة فيجلسون ، جميعاً في صف واحد ، يستمعون الى بعض الجواري وهي تغني بشعر نصيب احدهم[4].

او ترى صاحبنا عمر خارجاً اليه ، وقد واعد نسوة من قريش الى موضع فيه يتحدث معه ، وترى بجانبه مغنيه الغريض يساعده على لهوه ، ويمسك معه بطرفته وبرديه ليظلا على صاحباته حتى يستترن من سقوط المطر[5].

او ترى ابا السائب المخزومي ليلة ، بعد ما رقد السامر ، ياتي صديقاً له ليستصحبه الى العقيق ، فيذهبان ويتحدثان ويتناشدان حتى يسمع ابو السائب صديقه ينشد للعرجي :

باتا بانعم ليلة حتى بدا صبح تلوّح كالاغر الاشقر
فتلازما عند الفراق صبابة اخذ الغريم بفضل ثوب المعسر

---

١) الاصبهاني ٤ : ١١٥
٢) الاصبهاني ١١ : ٦٧ و ٢ : ١٧٣
٣) الاصبهاني ١٤ : ١٧٢
٤) الاصبهاني ١ : ١٤٣
٥) « ١ : ٦٦

فيقول: « اعده علي » ، فيعيده. فيقول: « احسن ! والله امرأته طالق ان نطق بحرف غيره حتى يرجع الى بيته. » ويلاقيه احد احفاد علي ، فيسلم ، ويسأله: « كيف انت ؟ » فيقول:

فتلازما عند الفراق صبابةً أخْذَ الغريم بفضل ثوب المعسر

ويلقاه آخر ويكلمه ، فيردد له هذا البيت ، حتى خشي السامع ان يكون به جن وخاف عليه ان يتهوّر ببعض آبار العقيق[1]. او ترى ما هو اغرب من هذا كله طبقة خاصة من اهل ذلك الوادي سمتهم الكتب العربية باسم خاص « المخنثين » ، مخنثي العقيق وضرب برقتهم ونعومتهم او بالاحرى تخنثهم المثل حتى قيل: اي بيت من الشعر نصفه كأنه اعرابي في شملته ونصفه الآخر كأنه مخنّث مفكك ؟ فقيل: قول جميل:

الا ايها الركب النيام ، الا هبوا ! اسائلكم: هل يقتل الرجل الحب ؟

وقيل: كأن الشطر الثاني من مخنثي العقيق يتقصف تقصفاً[2].

كل في لهوه يجمعهم السرور في صعيد واحد تصدح في اكثر ارجائه انغام الموسيقى المطربة والاصوات العذبة حتى ليبدو الوادي كأنه بقعة خلت من كل الآلام واكتست ابهى الحلل وهنئت باحلى الاحلام.

## ميزة العقيق

ولست اعلم في كل العالم العربي الآن موضعاً يشبهه لا من حيث المنظر الطبيعي، من ماء جارٍ فياض، وروض معشب انيق زاهر، وجنائن غناء يسقفه اعالي اشجارها « مرّ الرياح النواسم » ، لا ! فان في القناطر الخيرية على ضفاف نيل مصر ما يفوق اجمل متنزهات العالم العربي من هذا القبيل منذ عرف العرب حتى الآن ، ولكني أشير الى تلك الناحية من حياة العرب الاجتماعية والادبية فيه ، الى تلك الالوان من اللهو والعبث والمرح ، الى ذلك الغناء تعقد حوله الحلقات كما رايت ، الى تلك المجالس الادبية يستمع فيها الناس الى ما تنتجه قرائح شعرائهم والى ما يحركه بيان محدثيهم . ولو حاولنا التوسع قليلاً في

١) الاصبهاني ١: ١٥٨-١٥٩

٢) الاصبهاني ٣: ١٨٢؛ ٧: ٨٦ و ٩١

البحث عمّا يشبه العقيق الآن، او ما كان يشبهه، لالفينا مواضع متعـددة، ولكني اشك في اننا نقع على ما يشبهه من هذه الناحية من الحياة الادبية، او على ما يشبه هذا الاثر الذي كان يتركه العقيق في نفوس اهليه وزواره.

لا تذكر لي دفنة انطاكية التي شبهوا العقيق بها[١]، ولا تقل شيئاً عن لهو الرومان فيها، وان شابهت العقيق او فاقته في مائها وحماماتها وقصورها ومتنزهاتها واشجارها من دفن وسرو، وان اتفق اهلها وارستقراطيو الحجـاز بثروتهم وكسلهم وترددهم اليها! اقل لك ما رواه المؤرخ ممسون عن المترددين اليها: «ان شجر السرو في انطاكية كان يعرف ان يهمس بينما كان رجالها لايعرفون كيف يتكلمون»[٢]. اما العقيق فلم يكن بخرير مياهه وتمايل نخله ورقة نسيمه وضروب لهوه، يقابل بظرف نصيب وحديث ابن ابي ربيعة وشعر الاحوص وادب عائشة وسكينة. بل يكاد يكون في هؤلاء وحدهم غنى عن العقيق.

ويكفي اذا شئت ان تعلم اثر هـذا العقيق في نفوس شعرائهم ان تقرأ شعر ابي قطيفة فيه، فقد زعموا انه كان امويّ الهوى، فاجلاه ابن الزبير عن المدينة، فارتحل الى الشام، فلم تغنه رياض الشام ومتنزهاتها عن العقيق، واندفع ينشد حنينه اليه:

ليت شعري! هل البـلاط كعهدي والمصلى الى قصور العقيق! (٣

وقال من قصيدة اخرى:

الا ليت شعري! هـل تغير بعدنا قباء، وهل زال العقيق وحاضره! (٤

وقال ايضاً:

ليت شعري! وابن مني ليت اعلى العهـد يلبن فبرام
ام كعهدي العقيق ام غيّرته بعـدي الحادثات والايام!

الى ان يقول:

وتبدلت من مساكن قومي والقصور التي بها الآطام

---

١) لامنس – الموسوعة الاسلامية – تحت ʻAkīk
٢) ممسون ٢: ١٤٤
٣) الاصبهاني ١: ١٥
٤) الاصبهاني ١: ١٥

ثم يقول :

اقطع الليل كله باكتئاب وزفير ، فما اكاد انام
نحو قومي اذ فرقت بيننا الدا ر وحادت عن قصدها الاحلام (١)

وكان في العقيق ساحات تسمّى بالعرصات ، منها عرصتان قال عنهما ياقوت انهما من افضل بقاع المدينة واكرم اصقاعها وروى ان ذوي السلطان من بني امية منعوا بناء المنازل فيها صوناً لها ، وضناً بها ، وان سلطان المدينة لم يكن يقطع بها قطيعة الا بامر الخليفة (٢).

وقال بعض المدنيين في احدى عرصات العقيق .

وبالعرصة البيضاء ، اذ زرت اهلها ، مهاً مهملات ما عليهنّ سائس
خرجن لحبّ اللهو ، من غير ريبة ، عفائف ، باغي اللهو منهن آئس
يردن ، اذا ما الشمس لم يخش حرها ، خلال بساتين خلاهن يابس
اذا الحر آذاهن ، لذن بجرّه ؛ كما لاذ بالظل الظباء الكوانس (٣)

وكان في الحجاز مواسم غير موسم المطر والربيع في عقيق المدينة،منها موسم المصيف في الطائف ، فلننتقل اليه.

**الطائف**

ولقد كانت الطائف ، احدى المدن الثلاث التي كان يعيش فيها ، او يتردد اليها ، ابن ابي ربيعة ، حتى زعموا انه كان من اعلم الناس بامورها ، ورووا انه لما قدم الوليد بن عبد الملك مكة ، سأل عن رجل له علم باموال الطائف ، فقالوا : عمر بن ابي ربيعة ، قال : لا حاجة لي به. ثم عاد فسأل ، فذكروه له ، فردّه . ثم عاد فسأل ، فذكروه ، فقال: هاتوه ، فركب معه يحدثه (٤).

**الطائف مصيف**

وتقع الطائف الى الجنوب الشرقي من مكة على نحو خمسة وسبعين ميلاً (٥).

١) الاصبهاني ١ : ١٥
٢) ياقوت ٣ : ٦٤١
٣) ياقوت ٣ : ٦٤٢
٤) الاصبهاني ١ : ٥٠ و٢ : ١٤٥ و ٥ : ٢١٤
٥) بركهارت ٦٩ ويذكر مراسل النهار ، وهو احد اعضاء البعثة الصحية الى الحجاز في ربيع سنة ١٩٣٤، في جريدة النهار عدد ٢٤٤ تاريخ ٦ حزيران سنة ١٩٣٤، ان المسافة ١٤٠ كيلومتراً.

وترتفع عن سطح البحر نحو خمسة الاف واربعمئة قدم[١] . وقد اتخذها اشراف الحجاز في ذلك العصر مصيفاً لهم ، كما لا يزالون يفعلون في هذا العصر . ذكر فيلبي انه في زيارته لها آخر الحرب الكبرى رأى الكثيرين من اعيان مكة ونبلائها يصيفون فيها ، بحيث قال : ان عدد سكانها في الصيف بلغ العشرين الفاً ، بينما لا يتجاوز عدد سكانها الخمسة الاف[٢]. وهي خير مصيف ، فمناخها جميل وهواؤها عليل وماؤها عذبٌ جارٍ واشجارها كثيرة واثمارها وفواكهها طيبة متنوعة ، ففيها العنب والتين والرمان والمشمش والتفاح والدراقن والسفرجل والموز وغيرها من الفواكه[٣]. وفيها وفي جوارها مزارع كثيرة وحقول خضراء يقع بعضها على الطريق بينها وبين مكة[٤] . ويقول بركهارت عن بعض هذه المزارع : انها اجمل بقعة في الحجاز ، وابهج موضع شاهده في طريقه الى الحجاز بعد تركه لبنان[٥] .

ويقول ياقوت عنها : « انها ذات مزارع ونخل واعناب وموز وساير الفواكه ، وبها مياه جارية واودية تنصبّ منها الى تبالة . » ثم يقول : « وفي اكنافها كروم على جوانب ذلك الجبل ، فيها من العنب العذب ما لا يوجد مثله في بلد من البلدان ، واما زبيبها فيضرب بحسنه المثل ، وهي طيبة الهواء شامية ، ربما جمد فيها الماء في الشتاء ، وفواكه اهل مكة منها »[٦] .

ولعل القارئ لا يزال يذكر ما روينا عن بيادر الزبيب التي رآها فيها سليمان ابن عبد الملك ، وقد روي انه قال : « لله در قسي باي ارض وضع سهامه واي ارض مهد عشّ فروخه »[٧] . وروي ايضاً انه دخلها هو ونفر معه ، فرأى بستاناً

---

١) لامنس – في الموسوعة الاسلامية – تحت Ṭa'if ٢) فيلبي ١٩٢

٣) ياقوت ٣: ٤٩٥ وفيلبي ١٩٢ وفي كتابه يذكر اكثر هذه الاثار ويشير الى عسلها اللذيذ .

٤) ياقوت ٣: ٤٩٥ وبركهارت ٦٥ و٦٦ والفاكهي ٢: ٧٦

٥) بركهارت ٦٥ وفيه يقول : « The village and neigborhood of Ras el Kora is the most beautiful spot in the Hedjaz, and more picturesque and delightful than any place I had seen since my departure from Lebanon in Syria. »

٦) ياقوت ٣: ٤٩٥–٤٩٦ ٧) ياقوت ٣: ٤٩٧

لعمرو بن العاص، فجال فيه ساعة ، ثم قال: « ناهيكم بما لكم هذا مالاً»[١] .

وفي بعض الاساطير العربيــة ان الطـائف كانت قرية بالشام فنقلت الى الحجاز[٢] .

في هذه البلدة ــ كما اشرنا ــ كانت تصيف اشراف الحجاز من اهل مكة والمدينة[٣] . وقــد ابتنى بعضهم دورًا او قصورًا يقضون فيهـا فصل الصيف . ذكروا ان معاوية كان يقول اغبط الناس عيشاً مولاي سعد . وكان يلي امواله بالحجاز ، ويتربع جدّة ، ويتقيظ الطائف ، ويشتو بمكة[٤] .

وقــد كانت زينب بنت يوسف ــ اخت الحجاج ــ فيما يظهر من شعر النميري ، تشتو بمكة ، وتصيف بالطائف[٥] .

وكانت عائشة بنت طلحة بعد ان تأيمت تخرج الى مال لها عظيم بالطائف وقصر كان لها هناك فتتنزه فيه، وتجلس بالعشيات، فيتناضل بين يديها الرماة[٦] .

وكذلك كانت الثريا صاحبة عمر تصيف بالطائف[٧] . وقد كلفته ذات مرة عناء عظيماً كابده في مسيره اليها من مكة ، وقد احتالت على استقدامه اليها بطريقة سنعرض لها في حينها[٨] . وكان عمر اذا لم يستطع زيارتها يغدو كل غداة على فرسه ، يسأل الركبان الذين يحملون الفاكهة من الطـائف الى مكة عن الاخبار قبلهم[٩] . حديثه او حديث عنه !

### الطائف موطن لهو

وكانت الطائف قبل الاسلام،فيما يظهر من بعض المصادر،بلد فجور وفسق حتى زعموا ان النبي عندما صالح اهلها اشترط عليهم ان لا يزنوا ولا يربوا. ويقول

---

١) ابن عبد ربه ٣ : ٢٨٥ ٢) ياقوت ٣ : ٥٠٠

٣) لامنس- الموسوعة الاسلامية- تحت Ṭā'if ويذكر ان الطائف بعد الفتوحات الاسلامية والتوسع صارت تابعة لمكة ، واديل من كلا البلدين ، وحطّ من مكانتهما وصارت الزعامة والسعة والرخاء في المدينة ، غير ان اهل الطائف استطاعوا بجنتهم ان يجعلوا من جبالهم مصيفاً ليس للمكيين فحسب، بل لاهل المدينة ايضاً،وبهذا اقالوا من عثرة بلدهم،ورفعوا من شأنها .

٤) ياقوت ٣ : ٥٠٠ ٥) ياقوت ٣ : ٥٠٠ وابن خرداذبه ١٣٤

٦) الاصبهاني ٦ : ٢٠ ٧) الأصبهاني ١ : ٨٩ والبغدادي ١ : ٢٢٨

٨) الاصبهاني ١ : ٨٥ ٩) الاصبهاني ١ : ٨٥

ياقوت: وكانوا اهل زنا وربا[١]. وربما كان اهلها ايضاً اصحاب شراب لان ارضهم كثيرة الكرمة، وقد عرف عن بعضهم ذلك[٢].

هذا، وقد كانت بعيدة الى حدّ ما عن انظار العمال والولاة في المدينة او مكة بعد الاسلام بحيث استطاع من يرغب في اللهو ان يمارسه بعيداً عن اعين الرقباء، وقد كان بعدها داعياً الى ان تكون مركزاً لهؤلاء الذين يُنفون من مكة والمدينة، او الذين يهربون من غضب سلطان بني امية وغيرهم. والرواة يحدثوننا ان الغريض المغني التجأ اليها مدةً حينما بعث اليه الحارث بن خالد المخزومي يقول: لا ارينك في عملي[٣]. وان ابن الزبير في خلافته نفى عبد الله ابن عباس اليها فتوفي فيها[٤]، ونفى اليها ابا العباس الشاعر الاعمى الاموي الميل[٥]. وان سليمان بن عبد الملك منع ابن ابي ربيعة من الحج ذات مرة واخرجه اليها[٦]. وان الوليد بن يزيد اخرج يزيد بن ضبة الى الطائف وسوغه ماله هناك ليبعده عن هشام بن عبد الملك، خوفاً من ان يفتك به، وسماه طريد الاحول، يعني طريد هشام[٧].

ومن الناس من انزوى مختاراً فيها لمدة ما، كما فعلت سكينة بنت الحسين حين غاضبت زوجها زيد بن عمرو[٨].

ومهما يكن من الامر كله، فاننا نرى ان بعدها عن اعين الرقباء في ذلك العصر، مع ما احاطها وقتذاك من الظروف التي ذكرنا، يسّر لبعض اهل اللهو ان يمارسوه فيها، وغلا بعضهم في لهوه حتى عرف الفسق فيهم وليس ادل على هذا من حياة العرجي الشاعر احد حفداء الخليفة عثمان بن عفان، ويكفي ان تقرأ سيرته في الاصول المختلفة لتدرك ما نذهب اليه؛ وقد صدر شعره يمثل هذه الناحية من حياته اقوى تمثيل[٩].

---

١) ياقوت ٣ : ٥٠٠
٢) الاصبهاني ٣ : ١٩٣ و٦ : ٥٨
٣) الاصبهاني ٣ : ١٠٦
٤) اليعقوبي ٢ : ٢١٣
٥) « ١٥ : ٦٣
٦) المرزباني ٢٠٣ والاصبهاني ٨ : ٥٨ و١٠ : ٦١
٧) الاصبهاني ٦ : ١٤٦–١٤٧
٨) الاصبهاني ١٧ : ٩٣
٩) اصبهاني ١ : ١٥٢–١٦٦

## مكة ومواسمها

ولم تكن مكة ، وهي البلدة التي عاش فيها صاحبنا اكثر حياته ، وعاش فيها آباؤه واجداده من قبله ، اقل حظاً في هذه الناحية من المدينة والطائف .

وتقع مكة في قلب الحجاز ، في منخفض من الارض تحيط به بعض التلال . وكانت لانخفاضها عرضة لمياه السيول التي تنحدر من التلال حولها،ومن هنا نرى ان تاريخ مكة تكثر فيه اخبار السيول لاسيا تلك التي كانت تقع ايام الحج . وقد جاء سيلٌ عام ثمانين سمي بسيل الجحاف دخل المسجد ، واحاط بالكعبة ، وهدم الدور والشوارع على الوادي ، فقتل الهدم ناساً كثيراً . ورقي الناس في الجبال واعتصموا بها ، وقال بعضهم واصفاً خروج المخبئات يرقين الجبل :

لم ترَ عيني مثل يوم الاثنين اكثر محزوناً وابكى للعين
اذ خرج المخبئات يسعين سوانداً في الجبلين يرقين (١

وربما ، لولا قلة الامطار ، ولولا وجود الكعبة في بطن المنخفض ، لكانت الناس هجرت بطن مكة واستقرت في اعاليها .

ومناخ مكة حار،ولهذا كان يلجأ الى مكة جماعات كثيرة من اهل الحجاز، ممن جاور مكة ، او ممن كانوا بعيدين عنها كاهل الطائف او اهل المدينة ، ايام الشتاء فيتخذونها مشتى لهم بعد ان يكون بعضهم قد قضى صيفه في الطائف .

تشتو بمكة نعمة ومصيفها بالطائف (٢

وقال عمر في احدى صاحباته :

بالخيف منزلها ومسكنها وتحل مكة ، ان شئت ، قصرا (٣

وكان سعد مولى معاوية يشتو كذلك بمكة ويتقيظ الطائف(٤ .

ولا يخفى ان الكعبة بنيت قبل الاسلام، في ذلك المنخفض، وان عائلات

---

١) الازرقي ١ : ٢٩٥-٢٩٦
٢) ياقوت ٣ : ٥٠٠ وابن خرداذبه ١٢٤
٣) ابن ابي ربيعة (ش) ق ٢٦
٤) ياقوت ٣ : ٥٠٠

كثيرة من قريش استقروا حولها ، ويعرفون بقريش البطاح ، بينما يعرف الذين استقروا في ظواهر مكة بقريش الظواهر .

وقد كان للبلدة تاريخ تجاري عظيم الشأن ، وكان لاهلها رحلات تجارية — شتوية وصيفية — أشار الى بعضها القرآن : « لايلاف قريش ايلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت الذي اطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ».[1]

وكانت تذهب القوافل الى مختلف الجهات حولها ، ناقلة بضائع القطر الواحد الى القطر الآخر ، بحيث كانت تبلغ بعض القوافل نحو الفين وخمس مئة جمل ، ويكون فيها ما بين المئة والثلاث مئة رجل[2] ، وكانت بعض بضائع الهند والصين واليمن والحبشة من محمولها حتى اذا ما وفدت بهذه البضائع الى سوريا ، عادت حاملة بضائع بلاد البحر المتوسط من قطن وثياب مصبوغة وسلاح وحبوب وزيت[3] .

وكان من اعظم تجارها قبل الاسلام ، وفي صدره ، عبد الله بن ابي ربيعة والد صاحبنا عمر . وسنعرض للبحث في غنى هذا البيت عند تصدينا لدرس حياة عمر . والذي يهمنا الآن ان هذه الحياة التجارية قد انمت ثروة المكيين ، ورفعت من شأن بلدهم ، بحيث استطاع الاب لامنس ان يقول في مقالته في الموسوعة الاسلامية عن ثروة مكة ، مؤيداً ونكلر في انها تقابل بثروة تدمر ، ما نصه :

« The 30,000 dînârs invested by the one house of Abū Uḥaiḥa in the Badr caravan suggests that H. Winckler is quite right when he tells us to think of the Palmyra of Zenobia if we wish to get an idea of the financial capacity of Mecca ». (٤

ولقد اخذت مكة بسبب آخر ساعد على انماء ثروتها ، هو وجود الكعبة فيها ، وكانت محجاً لكثير من العرب قبل الاسلام . ولحسن حظ مكة اقر

---

١) القرآن — قريش — ١٠٦
٢) لامنس — الموسوعة الاسلامية — تحت Mecca
٣) « « « « « «
٤) « « « « « «

الاسلام هذا الحج، على وجه خاص، وبشروط خاصة، بحيث كان القيام به امراً واجباً على كل من استطاع اليه سبيلاً. ومع ان المدينة قد انتزعت الزعامة من مكة فصارت مركزاً للخلفاء الاول ، وانتقلت اليها جماعات كثيرة من زعماء مكة واغنيائها، فان مكة بقيت صاحبة الحق في ان تكون اليها الحجة، وان يكون اليها مجتمع الحجيج من مختلف الاقطار ، فاستعاضت بهذا عن بعض ما فقدته في تحول مركز السيادة الى المدينة.

## مواسم الحج

نريد ان نصل من هذا كله الى الالتفات الى هذه المواسم — ايام الحج — التي كان لها اثر كبير في الحياة الاجتماعية في مكة ، وبالتالي في الحياة الادبية عند اكثر الشعراء الـذين كانوا يشهدونها ، وبنوع خـاص في حياة صاحبنا وشعره.

ولا يهمني في هذا الصدد درس تاريخ هذه المواسم ومنشئها ، ولا التعرض الى ذكر الشعائر الدينية التي كانت تقام فيها ، وكيف كانت تقام، وجلّ ما اقصده هو التوصل الى كيف استغلّ طلاب اللهو من شباب الحجـاز ، فتياناً وفتياتٍ هذه المواسم ، فمرحوا ما امكنهم المرح وطربوا ولهوا وعبثوا .

قال ابن فضل الله العمري في ايام منى: «منى حيث ترمى الجمرات ، وتهمل العبرات ، ذوات الليالي المقمرات ، والايام التي سلخ من الكافور ثياب عشاياها المعنبرات ، يحلى بها من كل ترب عاطله، ويلتقي في كل سرب كل ذي دين وماطله، فيها مجمع الحجيج ، والمحصب منها موضع الجمرات ، يجتمع فيها الخليطان ايام الموسم ، من شام ويمن ، وكانت في قديم الاسلام موسم لقاء الحبائب، ومكان موعد كل مفارق . وثلاث ليالي منى معروفة موصوفة ، قد اكثر فيها الشعراء وترنم بها المتيمون.»[1]

---

١) العمري ١١٥

## الشبان يتصدون للمرأة في الحج

وكان يحتشد في هذه المواسم خلق كثير من مختلف الاقطار التي خضعت للدولة العربية ، وكان اختلاط عظيم سهل لطلاب اللهو سبيلهم ، رووا ان ابن ابي ربيعة شاعرنا «كان يقدم ويعتمر في ذي القعدة ، ويحل ويلبس تلك الحلل والوشي ، ويركب النجائب المخضوبة بالحناء عليها القطوع والديباج ويسبل لمته ويلقى العراقيات فيما بينه وبين ذات عرق محرمات ، ويتلقى المدنيات الى مرو، والشاميات الى الكديد.»[1] وقد ذكروا عنه كما سنرى قصصاً كثيرة عن تعرضه للحجاج، او مواكبته لبعضهم، ومرافقته اياهم حتى يفرغوا من طوافهم وينقضي الحج وتفترق الركبان ، فيشيعهم ويعود لينشد الاشعار في صاحباته وقد ربط مع بعضهن عهود الحب، او ضرب مع البعض الآخر مواعيد اللقاء ، فما ينقضي لهوه حتى تعاوده ذكريات الحج فينشد شعره فيها، وهو يتشوق الى الموسم الجديد حين يعود الى سابق امره.

وكثيراً ما كان يتعرض بعض الشبان الى النساء في الحج دون ان يكون لهم بهن سابق عهد او معرفة[2]. روى ابو الفرج ان احدهم رأى امرأة جميلة من قضاعة تسير مع رفقة الى مكة في الموسم ، فصحب قومها وكان يسايرها ويحادثها ، ثم خطبها الى نفسها ، فقالت : لا سبيل الى ذلك ، لانك لست لي بعشر ولا جار في بلدي ، ولا انا ممن تطمعه رغبة عن بلده ووطنه فلم يزل يحادثها ويسايرها حتى انقضى الحج ففرق بينهما نزوعهما الى اوطانهما[3].

وكان العرجي يتصدى للغانيات في المواسم مثل عمر ، وقد قال في احداهن :

اماطت كساء الخز عن حر وجهها ، وادنت على الخدين برداً مهلهلا

---

١) الاصبهاني ١ : ٨٨

٢) الاصبهاني ١ : ٢٧ و٦٥ والدميري ١ : ٢٢٦

٣) الاصبهاني ١٤ : ١٥٢

من اللاء لم يحججن يبغين حسبةً ، ولكن ليقتلن البريء المغفّلا
راتني خضيب الرأس ، شمرت مئزري ، وقد عهدتني اسود الرأس مسبلا
خطوًا الى اللذات اجررت مئزري كاجرارك الحبل الجواد المحجّلا
صريع الهوى ، لا يبرح الحب قائدي بشر ، فلم اعدل عن الشعر معدلا
لدى الجمرة القصوى ، فريعت وهلّلت ، ومن ريع في حجّ من الناس هلّلا (١

ذكر ابو الفرج باسنادٍ قال : « قال عبيد الله بن عمر العمري : خرجت حاجاً ، فرأيت امرأة جميلة تتكلم بكلام رفثت فيه ، فادنيت ناقتي ، منها ثم قلت لها : يا امة الله ، الست حاجة ، اما تخافين الله ؟ فسفرت عن وجه يبهر الشمس حسناً ، ثم قالت : تأمل يا عمي ، فاني ممن عنى العرجي بقوله :

من اللاء لم يحججن يبغين حسبةً ولكن ليقتلن البريء المغفّلا

قال : فقلت لها فاني اسأل الله ان لا يعذّب هذا الوجه بالنار . قال : وبلغ ذلك سعيد بن المسيب فقال : اما والله لو كان من بعض بغضاء اهل العراق لقال لها اعزبي قبحك الله ولكنه ظرف عبّاد الحجاز[٢] .

وللعرجي هذا في احداهن واصفاً لقاءه بها ايام الحج :

ما نلتقي الا ثلاث منى حتى يفرق بيننا النفر
الحول بعد الحول يتبعه ما الدهر الا الحول والشهر (٣

ومهما يكن من امر هذه المواسم فالمحقق لدينا من شعر شعراء ذلك العصر ان النساء كنّ يمارسن اكثر هذه الطقوس الدينية في مواسم الحج مع الرجال ، وكانت الرجال تنتهز هذه الفرص للتعرض الى النساء فيتعرفون بهن ويتحدثون معهن سواء اكان وقت الطواف والعمرة او بعد الفراغ منهما وان كثيراً من هذا الشعر الذي تحدّر الينا من ذلك العصر والذي دار على الغزل ، واقتصر على المرأة قد انتجته هذه المواسم التي ذكرنا وبالاخص موسم الحج ، حتى زعموا ان البعض من شباب الطبقة الارستقراطية في ذلك العصر لم يقصدوا من الحج وحضور تلك المواسم الا مقابلة المرأة والتعرض لها . قال العرجي :

---

١) الاصبهاني ١٧ : ١٢٠ ٢) الاصبهاني ١٧ : ١٢٠-١٢١ و ١ : ١٦١
٣) الاصبهاني ١ : ١٦٣

اني اتيحت لي يمانية احدى بني الحارث من مذحج
نلبث حولاً كاملاً كله لا نلتقي الا على منهج
في الحج، ان حجت، وماذا منى واهله ، ان هي لم تحجج (١

وكان لا بدّ من ان تتعرض المرأة امام نظر الرجل عند قيامها ببعض هذه الطقوس، وبنوع خاص عند استلام الركن او الحجر الاسود، حيث يكثر الزحام ويتدافع الناس لكي يصلوا اليه[٢] ، ومع ان الازرقي يذكر ان عطاء ابن ابي رباح رأى امرأة تريد ان تستلم الركن ، فصاح بها وزجرها ، وقال: غطي يديك لا حقّ للنساء في استلام الركن[٣] ، فاننا نرى في الباب نفسه ، بل وفي القصة نفسها ايضاً ، ما يفيد ان المرأة كانت تستلم الركن[٤]. وروى ابو الفرج قال: «بينما عمر ابن ابي ربيعة يطوف بالبيت، اذ رأى عائشة بنت طلحة بن عبيد الله، وكانت من اجمل دهرها ، وهي تريد الركن تستلمه، فبهت لما رآها، ورأته وعلمت انها قد وقعت في نفسه ، فبعثت اليه بجارية لها وقالت: قولي له اتق الله ولا تقل هجراً فان هذا مقام لا بدّ فيه مما رأيت ، فقال للجارية: اقرئيها السلام وقولي لها: ان ابن عمك لا يقول الا حسناً[٥].

وقيل في موضع ثان ان عمر لم يزل ينسب بعائشة ايام الحج، ويطوف حولها، ويتعرض لها ، وهي تكره ان يرى وجهها ، حتى وافقها وهي ترمي الجمار سافرة فنظر اليها ، فقالت: اما والله لقد كنت لهذا منك كارهة يا فاسق. فقال :

اني واول ما كلفت بذكرها عجب، وهل في الحيّ من متعجب
نمت النساء فقلت لست بمبصر شبهاً لها ابداً ولا بمقرب
فمكثن حيناً ثم قلن توجهت للحج موعدها لقاء الاخشب
اقبلت انظر ما زعمن وقلن لي، والقلب بين مصدق ومكذب
فلقيتها تمشي تهادى موهناً ترمي الجمار عشيةً في موكب
غرّاء يعشي الناظرين بياضها حوراء في غلواء عيش معجب (٦

ورووا ان رقية بنت عبد الواحد بن ابي سعد العامرية احدى محبوبات

---

١) الاصبهاني ١: ١٦٣
٢) الازرقي ١: ٢٢٦
٣) الازرقي ١: ٢٤٠
٤) « ١: ٢٤٠
٥) الاصبهاني ١: ٧٩–٨٠
٦) الاصبهاني ١: ٨٠–٨١

عبيد الله بن قيس الرقيات حجت . فطافت ليلة بالبيت ثم اهوت ، لتستلم الركن الاسود وتقبله ، وقد طاف عبيد الله بن قيس الرقيات ، وفند مولى عائشة بنت سعد بن ابي وقّاص ، فصادف فراغهما فراغها ، فاهوى ابن قيس يستلم الركن الاسود ويقبله ، فصادفها قد سبقت اليه فنفحته بردنها فارتدع ، وقال لفند : من هذه ؟ قال : أوَ لا تعرفها ؟ هذه رقية بنت عبد الواحد . فقال ابن قيس :

من عذيري ممن يضنّ ببذو ل لغيري عليَّ عند الطواف

قالوا ولما نفحته بردنها فاحت منه رائحة المسك حتى عجب من في المسجد وكانما فتحت في المسجد لطيمة عطار ، وفي هذا يقول ابن قيس ايضاً :

سائلا فنــدًا خليلي كيف اردان رقيّه (١

ويذكر المسعودي انه بلغ خالدًا القسري (وهو والي مكة اواخر القرن الاول للهجرة ) قول الشاعر :

يا حبذا الموسم من موقفٍ وحبذا الكعبة من مشهد
وحبّذا اللائي يزاحمننا عند استلام الحجر الاسود

فقال خالد : اما انهن لا يزاحمنك بعد هذا ابدًا ، ثم امر بالتفريق بين الرجال والنساء في الطواف[٢] .

واذا لاحظنا ان خالدًا هذا كان واليًا على مكة بعد ٩٢ هـ . ادركنا ان القرن الاول للهجرة — اذا صحت هذه الرواية — كاد ينسلخ ، والرجال والنساء يطوفون معاً ، والغريب ان خــالدًا هذا كان — فيما سنرى عند درسنا اصدقاء عمر — رسولًا بين عمر وبين بعض صاحباته . ولعبيد الله في الثريا صاحبة عمر :

حبذا الحج والثريا ومن بالخيف من اجلها وملقى الرحال
يا سليمان ان تلاقِ الثريا تلقَ عيش الخلود قبل الهلال (٣

ولنصيب الشاعر ولكثير ولجميل وللاحوص وللحــارث اشعار في هذه المواسم ، ليس هنا موضع ذكرها ، فلتراجع في مظانها .

---

١) الاصبهاني ٤ : ١٦٥-١٦٦ ٢) المسعودي ٥ : ٣٩٩-٤٠٠
٣) الاصبهاني ١ : ٨٥

## مواكب الشريفات من نساء ذلك العصر

والمهم ان نعلم ان النساء كنّ يدركن اهمية هذه المواسم عند هذا النفر من شبان العرب الارستقراطيين ، فكنّ يلبسن لها احسن الثياب ويتزين احسن الزينة وكانت الشريفات منهن يقدمن الى الحج بمواكب تستلفت الانظار تحفهن الجواري ذات اليمين وذات الشمال، ذلك كان شأن عائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين وفاطمة بنت عبد الملك وعاتكة بنت يزيد بن معاوية ،وقريباً من ذلك كان شأن الكثيرات من شريفات ذلك العصر من حجازيات هاشميات او شاميات امويات او عراقيات عربيات ، وكن يتبارين في هذا الظهور روى ابو الفرج قال: استأذنت عاتكة بنت يزيد بن معاوية عبد الملك في الحج فاذن لها وقال: ارفعي حوائجك واستظهري، فان عائشة بنت طلحة تحج ففعلت فجاءت بهيئة جهدت فيها فلما كانت بين مكة والمدينة ، اذا موكب قد جاء فضغطها وفرق جماعتها فقالت: ارى هذه عائشة بنت طلحة فسألت فقالوا: هذه خازنتها. ثم جاء موكب آخر اعظم من ذلك فقالوا: عائشة ، عائشة ، فضغطهم ، فسألت عنه فقالوا: هذه ماشطتها ، ثم جاءت مواكب على هذا اي سننها ، ثم اقبلت كوكبة فيها ثلثمائة راحلة . عليها القباب والهوادج ، فقالت عاتكة: ما عند الله خير وابقى[1].

وروي ايضاً ان عائشة حجت ذات مرة ، ومعها ستون بغلاً عليها الهوادج والرحائل ، فعرض لها عروة بن الزبير فقال :

عائشَ يا ذات البغال الستين اكل عام هكذا تحجين

فارسلت اليه: نعم يا عُرَيَّة . فتقدم ان شئت ، فكفّ عنها[1].

وروي ايضاً انها حجت وسكينة بنت الحسين معاً ، وكانت عائشة احسن موكباً وثقلاً ، فقال حاديها :

عائشَ يـا ذات البغال الستين لا زلت، ما عشت، كذا تحجين

فشق ذلك على سكينة ، ونزل حاديها فقال :

عائشَ هذه ضرّة تشكوك لولا ابوها ما اهتدى ابوك (١

١) الاصبهاني ١٠: ٦٠

## بعض النساء يرغبن في ان يذكرن في الشعر

وكان بين مواكب الحاجات من ترغب في ان ترى وتمدح، فكنّ لا يكدن يرجعن من الحج حتى تطير ابيات الشعراء في اطرائهنّ ومدحهنّ والتشبب بهنّ حتى لقد روى الرواة ان بعضهن كنّ يغضبن اذا لم يسمعن ان الشعراء قد شبيوا بهن واطروهن وذكروا من محاسنهنّ ، قال ابو الفرج: ان بنتاً لعبد الملك حجت فكتب الحجاج الى ابن ابي ربيعة يتوعده ان ذكرها في شعره بكل مكروه ، وكانت تحب ان يقول فيها شيئاً ، وتتعرض لذلك ، فلم يفعل خوفاً من الحجاج ، فلما قضت حجها خرجت ، فمرّ بها رجل ، فقالت له : من اين انت ؟ قال : من اهل مكة . قالت : عليك ، وعلى اهل بلدك لعنة الله . قال : ولِمَ ذلك ؟ قالت : حججت ، فدخلت مكة ، ومعي من الجواري ما لم ترَ الاعين مثلهن ، فلم يستطع الفاسق عمر ابن ابي ربيعة ان يزودنا من شعره ابياتاً نلهو بها في الطريق في سفرنا . قال : فاني لا اراه الا قد فعل . قالت : فأتنا بشيء ان كان قاله ، ولك بكل بيت عشرة دنانير ، فمضى اليه ، فاخبره ، فقال : لقد فعلت ، ولكن احب ان تكتم عليّ ، قال : افعل . فانشده قصيدته :

راع الفؤاد تفرق الاحباب   يوم الرحيل فهاج لي اطرابي

وانشده قصيدة اخرى ، فعاد اليها الرجل ، فانشدها هاتين القصيدتين ، فدفعت اليه ما وعدته به[1] .

ولعمر فيها ، وفيه اشارة الى خوفه من الحجاج :

كدت يوم الرحيل اقضي حياتي   ليتني متّ قبل يوم الرحيل
لا اطيق الكلام من شدة الخو   ف ودمعي يسيل كل مسيل[2]

## الشعراء يرضون النساء

وكان الشعراء يعنون في ان يرضوا هؤلاء النساء . رووا ان عائشة بنت

١) الاصبهاني ١٣٨:٢   ٢) الاصبهاني ٧٨:١

طلحة حجت ، وكان الشاعر الحارث بن خالد المخزومي والياً على مكة لعبد الملك بن مروان ، وكان يهواها ، فارسلت اليه : اخّر الصلاة حتى افرغ من طوافي . فامر المؤذنين ، فاخروا الصلاة ، حتى فرغت من طوافها ، وانكر اهل الموسم ذلك . هي تحج والناس تضج ، وهو لا يأبه لهم ، ولما بلغ الامر عبد الملك بعث اليه بعزله وأنّبه . فقال : ما اهون والله غضبه وعزله اياي عليّ عند رضاها عني[١] .

## الغناء في الحج

ويحدثنا الرواة انه قد كانت تمهد في هذه المواسم سبلُ الطرب ، فهم يروون لنا ان الغريض المغني كان يعترض الحجاج بصوته ، وهم في حجهم فيصغون اليه[٢] . وانه غناهم مرة :

اجا الرائح المجدّ ابتكارا قد قضى من تهامة الاوطارا

فاطرب الناس ودهشهم ، فقالوا : طائفــة من الجنّ حجّاج[٣] . وهم يحدثوننا ان ابن عائشة كان واقفاً في الموسم متحيرًا ، فمرّ به بعض اصحابه ، فقال له : ما يقيمك هاهنا ؟ فقال : اني اعرف رجلاً لو تكلم لحبس الناس هاهنا ، فلم يذهب احد ولم يجئ ، فقال له الرجل : ومن ذاك ؟ قال : انا . ثم اندفع يغني :

جرت سنحاً فقلت لها اجيزي نوى مشمولة فمتى اللقاء

قال : فحبس الناس ، واضطربت المحامل ، ومدّت الابل اعناقها ، وكادت الفتنة ان تقع[٤] . وهم يحدثوننا ان الابجر كان يقف بين المأزمين ، فيرفع صوته ، فيقف الناس له يركب بعضهم بعضاً ، وانه جلس في ليلة اليوم السابع من ايام الحج على قريب من التنعيم[٥] ، فاذا عسكر جرّار قد اقبل في آخر الليل ، فاندفع فغنى :

عرفت ديار الحي خاليةً قفرًا . . . . . . .

---

١) الاصبهاني ١٠ : ٦١
٢) الاصبهاني ٢ : ١٣٠
٣) « ٢ : ١٣٠
٤) « ٢ : ٦٤
٥) موضع بمكة . راجع طبعة دار الكتب للاغاني ٣ : ٣٤٦

فلما سمعه من في القباب والمحامل امسكوا ، وصاح صائح : ويحك اعد الصوت[١] . وهم يحدثوننا ان ابن سريج كان يغني من اخشب منى غداة النفر ، فيتردد الانين والحنين من الاخبية والمضارب[٢] .

ولقد بلغ اللهو والغناء ايام الموسم مبلغاً ليس بيسير بحيث ان هشام بن عبد الملك امر الوليد بن يزيد ان يحج عاماً من الاعوام ليهتكه عند اهل الحرم، فيجد السبيل الى خلعه، ورووا انه قد ظهر من الوليد اكثر مما اراد به هشام[٣] .

وتردد الفرزدق الى الحجاز ، وشهد هذه المواسم ، فاتبع بعض سبل اللهو فيما يروون ، وقد استغل هذا جرير في هجوه له في اكثر من قصيدة . وقد قال رادًا على قصيدة الفرزدق التي مطلعها : « عرفت المواسم من مهدد » :

زار الفرزدق اهل الحجاز فلم يحظَ فيهم ولم يحمدِ
واخزيت قومك عند الحطيم وبين البقيعين والغرقد
وجدنا الفرزدق بالموسمين خبيث المداخل والمشهد[٤]

وقال الفرزدق قصيدةً يمدح فيها هشاماً ويهجو جريرًا ، مطلعها :

الستم عائجين بنا لعنا نرى العرصات او اثر الخيام

ثم توصل الى وصف ناقته فقال فيها :

إلامَ تلفتين ، وانت تحتي ، وخير الناس كلهم امامي
متى تردي الرصافة تستريحي من التهجير والدبر الدوام

فقال جرير يرد عليه ، ويبتدع له سبباً لهذا التلفت :

تلفّتُ انها تحت ابن قين حليف الكير والفأس الكهام
متى تردِ الرصافة تخزَ فيها كخزيك في المواسم كل عام[٥]

ولم يفت الاحوص اذا حج ان يتبع بعض سبل اللهو ، وقد ذكر شيئاً عن عبثه ليلةً بمنى في شعر دفعه الى المغنين[٦] .

---

١) الاصبهاني ٣ : ١١٥-١١٦ ٢) الاصبهاني ١ : ١١٥
٣) الاصبهاني ٣ : ١١٦ ٤) جرير والفرزدق ٢ : ٧٦٨
٥) جرير والفرزدق ٢ : ١٠١٦ والبيتي ١ : ١٠٠ ٦) الاصبهاني ١ : ٦١

وليس خافياً ، بعد كل ما ذكرنا ، اثر هذه المواسم في حياتهم الاجتماعية والادبية ، وسنرى ان عمر لم يفته ان يخلد في شعره شيئاً من صورة تلك الحياة البهيجة زمن المواسم في الحجاز ، وهو القائل فيها :

فلم ارَ كالتجمير منظر ناظر ولا كليالي الحج افتن ذا هوى (١

وهو القائل ايضاً في عائشة بنت طلحة :

اني واول ما كلفت بحبها عجب وهل في الحيّ من متعجّب
نعت النساء فقلت لست بمبصر شبهاً لها ابدًا ولا بمقرّب
ولقد تركن حزازة في قلبه منها بحقٍّ او حديث المهرب
فمكثن حيناً ثم قلن توجهت للحج موعدها لقاء الاخشب
اقبلت انظر ما زعمن وقلن لي والقلب بين مصدق ومكذب
فلقيتها تمشي تهادى موهناً ترمي الجمار عشية في موكب
غراء يُعشي الناظرين بياضها حوراء في غلواء عيش معجب (٢

وقال في احدى صاحباته :

حي الرباب وتربها اسماء قبل ذهابها
ارجع اليها بالذي قالت برجع جوابها
عرضت علينا خطة مشروقة برضابها
وتدللت عند العتاب فرحباً بعتابها
تبدي مواعد جمّة وتضنّ عند ثوابها
ما نلتقي الّا اذا نزلت منى بقبابها
في النفر او في ليلة الـ تحصيب عند حصابها (٣

ولعلّ الرواة قصدوا الى ان يميتوه بسبب بعض هذه الآثام التي كان يرتكبها ايام الحج ، فزعموا انه رأى امرأة بالطواف ، فذكرها بشعره ، فدعت عليه فمات في دعوتها فيما يزعمون !

## الصيد

وهناك ضروب اخرى من اللهو كانت تعرف بعضها العرب قبل الاسلام ، وظلّ يمارسها بعض شباب الاشراف عصر بني امية ، اهمها الصيد ، وقد ولع به

---

١) ابن ابي ربيعة (ع) ١٦ وفيه افلتن في موضع افتنّ
٢) ابن ابي ربيعة (ع) ٣٤ ٣) ابن ابي ربيعة (ع) ٥١

بعض الفتيان في ذلك العصر ، فكان في دمشق يزيد بن معاوية من اشهر الذين شغفوا بهذا اللهو فيما يروون . قال المسعودي : « وكان يزيد صاحب طرب وجوارح وكلاب وقرود وفهود »[١] . وروى الطبري خطبة لعبد الله بن الزبير قالها حين بلغه قتل الحسين ، ونعى فيها على يزيد اموراً ، منها الركض في تطلاب الصيد[٢] . وزعم ابن الطقطقي ان يزيد كان موفّر الرغبة في اللهو والقنص ، وانه كان اشد الناس كلفاً بالصيد ، وكان يلبس كلاب الصيد جلالاً ثمينة ، ويقيم على كل كلب من كلاب صيده عبداً يتعهده ويخدمه[٣] .

ويذكر الاستاذ زيدان ان نفراً من خلفاء بني امية ، غير يزيد ، لهوا بالصيد ايضاً[٤] . ويروي ابو الفرج رواية عن خروج الوليد بن يزيد يوماً يتصيد وحده بحيث كاد يتعرض لخطر عظيم من احدهم[٥] .

وشهر في الحجاز بهذا اللهو نفر ، منهم العرجي الشاعر ، وقد روى عنه ابو الفرج « انه كان مشغوفاً باللهو والصيد ، حريصاً عليهما ، قليل المحاشاة لاحد فيهما »[٦] . وانه كان من افرس الناس ، وارماهم ، وابراهم لسهم ، وكان له بستان يقال له العرج ، يبري من قضبان رمانه السهام[٧] . ومنهم محمد بن بشير الخارجي الشاعر ، وقد روي عنه انه كان صاحب صيد ، وكان يقيم في بوادي المدينة[٨] .

ويروى عن الحجاج حينما كان اميراً في الحجاز انه خرج متصيّداً بالمدينة ، وانفرد عن موكبه في ضواحيها[٩] .

وكان الصيادون ، فيما يظهر ، يستعينون بطيور الصيد كالبازي وغيره ،[١٠] وبالكلاب . ويروي ابو الفرج ان عبد الرحمن بن الحكم ، وعبد الرحمن بن

١) المسعودي ٥ : ١٥٦
٢) الطبري II : ٢٩٦ وراجع الدميري ١ : ٥٦
٣) ابن الطقطقي ١٢٧ و٦٧
٤) زيدان (ت) ٥ : ١٥٠
٥) الاصبهاني ٦ : ١٢١-١٢٢
٦) الاصبهاني ١ : ١٥٤
٧) الاصبهاني ١ : ١٦٠
٨) الاصبهاني ١٤ : ١٤٨-١٥٢
٩) ابن عبد ربه ٢ : ١٢٢
١٠) جرير والفرزدق ٢ : ٥٥٥

حسان خرجا الى الصيد بأكلب لهما في امارة مروان[1]. ويروى في موضع آخر ان بعضهم كان يستعين بالكلاب وبالشباك ايضاً[2].

ولقد ساهم ابن ابي ربيعة مع زملائه من شباب الطبقة الارستقراطيـة في هذا اللهو، كما سنرى من شعره، وله ابيات يذكر فيها مباغتته لبعض صاحباته، وهو على ظهر فرسه يحمل البازي :

فلم يرعهن الا العيس طالعة يحملن بالنعف ركابا واكوارا
وفارس معه البازي فقلن لنا ها م اولاء وما اكثرن اكثارا[3]

وليس خافياً ان مكة حرم، لا يصطاد فيها، فمن الطبيعي اذاً ان تكون اغلب رحلات الصيد في المدينـة، والطائف، وضواحيها. فقد كانت الطائف غنية بالبساتين كما رأينا، وكان في المدينة وادي العقيق، وبه البقيع، وكان كثير النبت والشجر، وروى البكري انه كان متندّى للناس، ومتصيداً[4].

## السباق

وكان السباق من الامور التي الفها العرب في جاهليتهم، وكانت احـدى حلباته، فيما يروون، داعيـاً لحرب ضروس بين عبس وذبيان، هي حرب داحس والغبراء. ويظهر ان ولعهم بالسباق بعد الاسلام ازداد وقوي. قال زيدان في كتابـه تاريخ التمدن الاسلامي : « ولما تحضروا بعد الاسلام، بالغوا في اتخاذ الميادين، واستكثروا من الخيول، وتفننوا في تضميرها »[5]. وروى انه « كان لمعاوية حلبة يخرجون اليها في ايام معينة للسباق، فمن حاز قصب السبق اجازوه »[6].

وروى المسعودي ان يزيد بن معاوية كان قد ربّى قردًا يكنى بابي قيس، وكان يحمله على اتان وحشية قـد ذللت وريضت لذلك، فكانت تلجم وتسرج له، وكان نبيهاً خبيثاً، فيركب عليها، ويسابق بها الخيل يوم الحلبة.

---

١) الاصبهاني ١٣ : ١٥١
٢) الاصبهاني ١٤ : ١٥٢
٣) ابن ابي ربيعة (ش) ق ١٠
٤) البكري ١٧٠
٥) زيدان (ت) ٥ : ١٥١
٦) زيدان (ت) ٥ : ١٥١

وذكر ان ابا قيس هـذا جاء في بعض الايام سابقاً ، فتناول قصبة السبق التي تغرس في آخر الحلبة ، ودخل الحجرة قبل الخيل ، وكان عليه رداء من الحرير الاحمـر والاصفر ، وعلى رأسه قلنسوة من الحرير ذات الوان ، وعلى الاتان سرج من الحرير الاحمر منقوش ملمع بانواع الالوان . وقال في وصف سبق ابي قيس بعض شعراء الشام :

تمسك ابا قيس بفضل عنـانها فليس عليها ان سقطت ضمانُ
الا من رأى القرد التي سبقت به جياد امير المؤمنين اتانُ[1]

ويروي المسعودي عن هشام بن عبد الملك انه اقام حلبة ، اجتمع له فيها من خيله وخيل غيره اربعة آلاف فرس ، ولم يعرف ذلك في جاهلية ولا اسلام لاحد من الناس.[2]

وكان الوليد بن يزيد مغرى بالخيل وحبها وجمعها واقامة الحلبة لها . وكان السندي فرسه جواد زمانه فيما يزعمون.[3]

ويذكر ابن عبد ربه ان العرب كانت تراهن في السباق في جاهليتها على شيء معلوم ، يضعه كلٌ من صاحبي الجوادين المتسابقين مثلاً ، فايهم سبق اخذ الرهن كله.ثم قـال : « وهذا القمار المنهى عنه ، فان كان الرهن من احدهما بشيء مسمى ، على انه ان سبق لم يكن له شيء ، وان سبقه صاحبه اخـذ الرهن ، فهذا حلال ، لان الرهن انما هو من احدهما دون الاخر ، وكذلك ان جعل كل واحد منهما رهناً ، وادخلا بينهما محللاً ، وهو فرس ثالث ، يكون مع الاولين ، ويسمى ايضاً الدخيل ، ولا يجعل لصاحب الثـالث شيء ، ثم يرسلون الافراس الثـلاثة ، فان سبق احد الاولين اخذ رهنه ورهن صاحبه ، فكان طيباً ، وان سبق الدخيل اخذ الرهنين جميعاً ، وان سُبق هو لم يكن عليه شيء . ولا يكون الدخيل الا رائعـاً جوادا لا يأمنان ان يسبقها ، والا فهذا قمار ، لانهما كانهما لم يدخلا بينهما محللاً ».[4]

ويظهر انهم بواسطة مثل هذا التحليل استمروا على الرهان ، ويروي ابن

١) المسعودي ٥ : ١٥٧ – ١٥٨
٢) المسعودي ٥ : ٤٦٦
٣) المسعودي ٦ : ١٢
٤) ابن عبد ربه ١ : ٦٥

قتيبة انه كانت لمجاشع بن مسعود فرس يقال لها الدبساء سابق عليها ، ويقال انه اخذ في غاية واحدة خمسين الف درهم .[١]

## الجلاهقات وطيران الحمام

والجلاهقات لعبة اخذهـا العرب عن الفرس في صدر الاسلام فيما يظهر ، فقد روى ابن الاثير والسيوطي ان اول منكر ظهر بالمدينـة ، حين فاضت الدنيا وانتهى سمن الناس ، كان طيران الحمام ، والرمي على الجلاهقات ، وهي قوس البندق .[٢] وان عـثمان بن عفان استعمل سنة ثمانٍ من خلافته رجلاً من بني ليث ، فقص الطيور ، وكسر الجلاهقات.[٣]

ولسنا ندري هل عاد العرب الى هذا اللهو زمن بني أمية ام لا ، حيث لم نقف بعدُ على ذكرٍ له قبل عصر بني العباس.

## النرد والشطرنج وغيرهما من العاب اللهو

لقد مرّ معنا خبر عبد الحكم الجمحي الذي اتخذ في المدينة بيتاً ، جعل فيـه شطرنجات ، ونردات ، وقرقات ، ودفاتر فيها من كل علم ، وجعل في الجدار اوتادًا ، فمن جاء علّق ثيـابه على وتدٍ منها ، ثم جرّ دفترًا فقرأه ، او بعض مـا يُلعب به فلعب به مع بعضهم ، وكيف ان الاحوص دخل ذلك البيت ، واجتر الشطرنج ، وطلب من يلعب معه.[٤] وهو خبر ، اذا صحّ ، يفيد ان هؤلاء الذين الفوا حياة اللهو والعبث في ذلك العصر ، لم يحرموا من بعض اسباب اللهو التي ترافق الحضـارة ، فكان في مقدورهم ان يجتمعوا الى اخوانهم في نادٍ ، لا يقلّ بكثير عن الاندية التي نألفها في هذا العصر في مختلف حواضر العالم العربي.

---

١) ابن قتيبة (م) ١٦٨-١٦٩

٢) لعلهم يقصدون بهذا انهم كانوا يرمون البندق عن الاقواس كما يرمون النبال . راجع زيدان (ت) ٥ : ١٥٢

٣) ابن الاثير ٣ : ٧٦ والسيوطي ٦٤

٤) راجع ص ٢٤ من كتابنا هذا ، والاصبهاني ٤ : ٥٢

ومهما يكن من امر صحة هذا الخبر، فالمرجح ان كثيرا من العاب الفرس قد انتقلت الى العرب ، وبنوع خاص النرد والشطرنج ، ويروي لنا ابو الفرج في اغانيه خبرا عن اشعب ، وقد لاعب بالنرد احدهم ، واشرف على أن يقمره الا بضرب « زهر » خاص عينه اذا ضربه خصمه خسر.[١]

ولعبد الحميد الكاتب رسالة كتبها الى احد الولاة نيابة عن الخليفة مروان ابن محمد ، فيها ما يفيد اعتكاف بعض الناس على الشطرنج ، قال: « وقد بلغ امير المؤمنين ان اناساً ممن قبلك من اهل الاسلام قد الهجهم الشيطان بها ، وجمعهم عليها ، والّف بينهم فيها ، فهم معتكفون عليها من لدن صبحهم الى ممساهم ، ملهية لهم عن الصلوات... الخ ».

ثم يأمرهم في آخر الرسالة بتشديد العقوبة عليهم[٢].

ويظهر ان هذه الالعاب كلها لم تنتشر وتُعرف عند عامة الناس قبل آخر العصر الاموي واوائل العصر العباسي ، وذلك عندما قوي الاتصال بين العرب والفرس. غير ان العرب لم يعدموا في جاهليتهم من بعض الالعاب فظلوا يمارسون بعضها في الاسلام. روى الفاكهي قال: « ان الامام عمر بن الخطاب (رضه) قدم مكة ، فرأى الكرك تُلعب به فقال : لولا ان رسول الله (صلعم) اقرك ما اقررتك ، وقال المكيون: هو لعب قديم كان اهل مكة يلعبون به ، ولم يزل حتى كانت سنة عشر ومايتين ، وقال ابو القاسم العابدي وغيره من اهل مكة : كان اهل مكة يلعبون به في كل عيد ، وكان لكل حارة من حارات مكة كرك يعرف بهم ، يجمعون له ، ويلعبون في حارة ، ويذهب الناس فينظرون في تلك المواضع ، الى الثنية ، والى قعيقعان ، والى اجيادين ، والى فاضح ، والى المعلاة ، والى المسفلة ، فكان ذلك من لعبهم يلعبون به في كل عيد.

وروى ايضاً ، قال : « قدم رجل من اهل مكة ، فقال له علي (رضه): كيف تركت قريشاً والناس بمكة ، فقال: تركت فتيان قريش يلعبون بالكرة بين الصفا والمروة. هكذا في الحديث ، بالكرة ، وانما هو بالكرك ، واظن

١) الاصبهاني ١٧ : ١٠٢

٢) محمد كرد علي ١٦٤

اهل العراق من المحدثين لم يضبطوه فقالوا الكرة .»[1]

وفي نقائض جرير والفرزدق ان الكرّج لعبة يلعبها المخنثون. وقال جرير:

لبست سلاحي والفرزدق لعبةٌ عليه وشاحا كرّجٍ وجلاجله[2]

## ظرف الحجاز

وهناك ناحية من حياة هؤلاء القوم في ذلك العصر ، لاسيا في الحجاز ، لم نعرض لها بعد ، تلك ناحية الدعابة والمزاح ، اللهو البريء الذي كان يقضيه هؤلاء الناس من اشراف الحجاز ، وفقهائها ، وشعرائها ، وغيرهم ، في مجالس سمرهم ولهوهم ، واوقات انسهم وطربهم ، وهم في خفض من العيش ، ولين ، ودعة ، لا يعكر عليهم صفو هذا الانس معكر ، ولا يفسد عليهم لذته مفسد ما ، حتى عرف هذا الامر بالظرف الحجازي.

ولعل مصدر هـذا الظرف طبيعة نفوس الحجازيين واقليمهم ، غير اننا لا نستطيع اهمال ما كان لهذه التطورات المختلفة — التي حاولنا تصويرها — من اثر فيه. فكان انتقال الخلافة الى دمشق ، وبعد اهل الحجاز عن اعين الخلفاء ، واقصاء زعمائهم عن الخوض في غمار السياسة — اذا لم يكونوا من الموالين لسلطان بني أميـة — وتحدرهم من عائلات ساهمت في نشر الاسلام وتمكينه في مختلف الاقطـار ، وتنعمهم بالمال والفيء الذي افاءه الله على حجازهم ، وتمتعهم ببعض اسباب اللهو التي فشت في قطرهم ، وترددهم الى مجالس الغناء ، وحلقات الشعر ، ومتنزهات العقيق ، والطائف ، ومواسم الحج ، اقول : كان لهذه كلها ، او بعضها ، اثر كبير في كيان هذا الظرف الذي نشير اليه.

ولعلّ القارئ قـد لمس شيئاً منه فيما حاولنا درسه من نواحي حياة اهل ذلك الجيل المختلفة في الحجاز ، لاسيا في هـذه المواسم التي كانوا يشهدون .

## ظرف ابي السائب

وليس ادلّ على هـذا الظرف من هذه القصة التي روينا عن ابي السائب المخزومي ، في نزهته الى العقيق ، وسماعه فيه بيتين من شعر العرجي آخرهما :

١) الفاكهي ٢: ٩ — ١٠ ٢) جرير والفرزدق ٢: ٦٢٤

فتلازما عند الفراق صبابة   اخذ الغريم بفضل ثوب المعسر

فيقول لمنشده : أعــده ! فيعيده. فيقسم ابو السائب ان امرأته طالق ان نطق بحرف غيره حتى يرجع الى بيته.

وقد روي عن ابي السائب هذا قصص كثيرة تشير الى هـذا الظرف الحجازي. منها ان رجلاً قال : « مررت بسوق الطير ، فاذا الناس قد اجتمعوا يركب بعضهم بعضاً ، فاطلعت ، فـاذا ابو السائب المخزومي قائم على غراب يباع ، وقد اخذ بطرف ردائه ، وهو يقول للغراب: يقول لك قيس بن ذريح :

الا يا غراب البين قد طرت بالذي   احاذر من لبنى فهل انت واقع

لِمَ لا تقع ؟ ويضربه بردائه ، والغراب يصيح ، قال : فقال له قائل : اصلحك الله ! ليس هذا ذاك الغراب. فقال : قد علمت ، ولكن اخذ البري. حتى يقع الجري. . »[1] . ومن هذه القصص ايضاً ما رووه عنه ، وعن عبدالله ابن مسلم بن جندب الهذلي ، قالوا : غـدا عبـد الله على ابي السائب في منزله ، فلما خرج اليه ابو السائب انشده قول جرير :

ان الذين غدوا بلبك غادروا   وشلاً بعينك لا يزال معينا

غيضن من عبراتهن وقلن لي   ماذا لقيت من الهوى ولقينا

فحلف ابو السائب ان لا يردّ على احـد سلاماً ، ولا يكلمه الّا بهذين البيتين ، حتى يرجع الى منزله ، وخرج هو وصاحبه ، فلقيهما قاض من آل المطلب فقال : كيف اصبح القرينان ؟ — وكانا يدعيان القرينين لصداقتهما وللازمتهما — فانشده ابو السائب البيتين ، ولم يردّ سلاماً ، واخذ يغمز ابن جندب ان يخبره بيمينه وقصته ، فتغافل ولم يفعل ، فانكر القاضي هذا الامر ، وسأل ابن جندب عن امر ابي السائب ، فقال : ما زلت منكرًا لحاله منذ خرجنا ، فانصرف ابن المطلب مغتماً ، فلما بلغ ابو السائب منزله ، وبرّت يمينه ، قال الى ابن جندب: هلمّ بنا الى ابن المطلب القـاضي ، فاني اخشى ان يردّ شهادتي ، فلما صـارا اليه ، اخبره ابو السائب بخبره ويمينه ، فقال ابن المطلب : اللهم غفرًا ، ألا تترك مجونك يا ابا السائب.[2]

١) الاصبهاني ٨ : ١٢٣   ٢) الاصبهاني ١٥ : ٦٨ — ٦٩

وقد روى الرواة عن ظرف ابي السائب هـذا قصصاً كثيرة ، كأنهم قد رأوا فيه خير ممثل لظرف الحجاز .

### ابن ابي عتيق

وكان لابي السائب صديق اشتهر ايضاً بهذا الظرف والمزاح ، هو ابن ابي عتيق ،صاحب عمر، ذكر الشيباني انه صاحب هزل ولهو.[١] وقال عنه الحصري: انه كان احلى الناس فكاهة ، واظرفهم مزاحاً[٢]. وروى بعضهم عنه انه خرج ذات يوم مع ابي السائب ، فقال ابو السائب في طريقه لحاجة عرضت له ، وعاد دون ازاره ، فسأله عنه ابن ابي عتيق ، فقال: ذكرت قول كثيِّر

اری الازار على لبنى فاحسده     ان الازار على ما ضم محسود

فتصدقت به على الشيطان الذي اجرى هذا البيت على لسانه ، فرمى ابن ابي عتيق ازاره ، وقال : اتسبقني الى برّ الشيطان ؟[٣]

وقد رووا عن ابن ابي عتيق انه دُعي الى ان يشهد في احدهم ، «فابى ان يقول الّا خيرًا ، وقال : هو رجل عدل . وقد سئل: اكنت تعرفه قبل اليوم ؟ قال: لا ، ولكني سمعته ينشد:

غيضن من عبراتهن وقلن لي     ماذا لقيت من الهوى ولقينا

فعلمت ان هذا لا يرسخ الا في قلب مؤمن ، فشهدت له بالعدالة.[٤]

وسمع ابن ابي عتيق وصاحبه خالد القسري شعرًا لابن ابي ربيعة ، قال فيه :

ومن كان محزوناً لاهراق دمعة     وهي غربها فليأتنا نبكه غدا
نعنه على الاثكال ان كان ثاكلًا     وان كان محزوناً وان كان مقصدا

فمضيا اليه ، وقالا: قد جئناك لموعدك ، والله ، لا تبرح او تبكي ان كنت صادقاً ، او ننصرف على انك غير صادق.[٥]

وقد كان يجرّهم حبهم للمزاح والنوادر في بعض الاحيان الى ما نراه نحن

١) ابن عبد ربه ١: ٢٩٢     ٢) الحصري ١ : ٢٩١
٣) ابن عبد ربه ٣: ٢٣٩ – ٢٤٠     ٤) الاصبهاني ١٥: ٦٦
٥) الاصبهاني ١٩: ٥٦

الآن خارجاً عن حدود الحشمة والادب ، ويظهر ان روح العصر في ذلك الزمن كانت تجيز مثل هذا المزاح ، او على الاقل لا ترى فيه حرجاً كبيرًا ، فقد زعموا انه كان لابن ابي عتيق هذا امرأة من اشراف قريش ، انكرت عليه بعض لهوه ، فقالت فيه شعرًا ، ثم دفعته لاحدى جواريها تغنيه ، وسمع الشعر ابن ابي عتيق ، وسأل عن ناظمه ، فقيل له : امرأتك ، فكتبه في قرطاس ، وخرج به ، فاذا هو بعبد الله بن عمر بن الخطاب ، فاوقفه ، وانشده البيتين اللذين هجي بهما ، ثم اقسم ليفعلن كذا وكذا لقائلهما ، فاخذ ابن عمر يزجره ويوبخه ، ثم لقيه بعد ذلك بايام ، فلما رآه ابن عمر اعرض عنه ، فاستحلفه ابن ابي عتيق بالنبي وقبره ان يقف ، فوقف ، فقال له : لقد برّت يميني ، فصعق ابن عمر ولبط به ، فلما رأى ما نزل به دنا من اذنه وقال : اصلحك الله انها امراتي . فقام ابن عمر ، وقبّل ما بين عينيه.[1]

## الفقهاء والمزاح

ويظهر ان فقهاء الحجاز لم يروا بأساً في مثل هذا الظرف والدعابة ، وتروى عن بعضهم حكايات كثيرة في هذا السبيل ، منها ان امرأة هذلية جميلة من ناحية مكة قدمت المدينة ، فكادت تذهب بعقول اكثر الناس ، فقال فيها الفقيه عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ذاكرًا حبه لها ومستشهداً على ذلك باصحابه فقهاء المدينة :

احبك حباً لو علمت ببعضه ... لجدت ولم يصعب عليك شديدُ
وحبك يا ام الصبيّ مدلّهي ... شهيدي ابو بكر واني شهيد
ويعلم وجدي القاسم بن محمد ... وعروة ما القى بكم وسعيد
ويعلم ما اخفي سليمان علمه ... وخارجة يبدي لنا ويعيد
متى تسألي عما اقول فتخبري ... فللحب عندي طارف وتليدُ

فبلغت ابياته سعيد بن المسيب ، فقال : والله امن ان تسألنا ، وعلم انها لو استشهدت بنا لم نشهد له بالباطل عندها.[2]

ويروى عن عبد الرحمن بن ابي عمار احد فقهاء مكة ، ويلقب بالقس ، انه

---

١) ابن عبد ربه ٤ : ٢٩٢ ٢) الاصبهاني ٨ : ٩٦

سمع غناء سلامة عن غير تعمّد ، فكاد يفتن ، وقال فيها اشعارًا كثيرة منها:

قد كنت اعذل في السفاهة اهلها فاعجب لما تأتي به الايامُ
فاليوم اعذرهم واعلم انما سبل الضلالة والهدى اقسامُ (١

ويروى عن عبيد الله بن عبد الله العمري انه قال: «اني خرجت حاجاً فرأيت امرأة جميلة تتكلم بكلام رفثت فيه ، فادنيت ناقتي منها ، ثم قلت لها : يا امة الله ، ألست حاجة ؟ أما تخافين الله ؟ فسفرت عن وجه يبهر الشمس حسناً ثم قالت : تامل يا عمي ، فاني ممن عنى العرجي بقوله :

من اللائي لم يحججنَ يبغينَ حسبةً ولكن ليقتلن البريء المغفلا

قال : فقلت لها : فاني أسأل الله ان لا يعذب هذا الوجه بالنار قال : وبلغ ذلك سعيد بن المسيّب ، فقال : اما والله لو كان من بعض بغضاء اهل العراق لقال لها : اعزبي ! قبحك الله ! ولكنه ظرف عبّاد الحجاز.(٢ »

وقيل لسعيد بن المسيب عن قوم نساك انهم يعيبون انشاد الشعر فقال: ان هذا نسك اعجمي.(٣

## ظرف سكينة

وكان لبعض النساء حظٌ من هذا الظرف ليس بقليل، ولعل سكينة بنت الحسين اشهر امرأة من نساء ذلك العصر في هذا السبيل. قال ابو الفرج عنها : انها كانت ظريفة مزّاحة.(٤ وكان في خدمتها رجل لعلّه اشهر من عرف بالدعابة والمجون والمزاح والنادر والفكاهة ، هو اشعب ، وكانت تأنس بمضاحكته ونوادره.(٥ ولها معه قصص كثيرة ، منها انها اشتاقت ان تسمع غناء ابن سريج ، بعد ان نسك وانقطع عن الغناء ، فشكت ذلك الى اشعب ، فقال لها: « وأنى لك بذلك ، والرجل اليوم زاهد ، ولا حيلة فيه ، فارفعي طمعك ، وامسحي بوزك ، تنفعك حلاوة فمك . » ولم تستطع صبرًا على ممازحته هذه ،

١) الاصبهاني ٨ : ٦-٧
٢) الاصبهاني ١٧ : ١٢٠-١٢١
٣) الجاحظ (ب) ١ : ٨٣
٤) الاصبهاني ١٤ : ١٦٥
٥) الاصبهاني ١٥ : ١٢١

فعذبته وطردته ، فذهب الى ابن سريج ، وشكى اليه امره ، فابى اسعافه ، فابتدع حيلة ، لم يرَ ابن سريج بدًا معها من ان يصير معه الى سيّدته ، وقص ابن سريج على سكينة حيلة اشعب ، فضحكت ، وغناها ، فرضيت عنها ، واجازتها.[1]

## سكينة واشعب

ولها مع اشعب قصة ان صحت فهي منتهى ما يبلغه المزاح والمجون. زعموا ان زوجها زيد بن عمر استأذنها في الحج ، فارسلت اشعب معه رقيباً وعيناً لها عليه ، ومانعاً له من العدول الى المواضع التي لا تريده سكينة ان يعدل اليها ، وخان اشعب سيدته في هـذه المهمة لقاء اربعمئة دينار فيما يزعمون ، رشاه بها زيد ، وعـاد زيد واشعب ، فاستحلفتها ، فاقسم اشعب احرج الايمان انه لم ينكر على سيده شيئاً ، واقرّ زيـد بما فعل. قال اشعب : « فامرتني باحضار الاربعمئة دينار ، فلما احضرتها امرت بابتياع خشب بثلثمائة دينار ، وليس عندي ولا عنـد احد من اهل المدينة علم بما تأمر به ، ثم امرت بان يتخذ بيت من عود ، وجعلت النفقة عليه من اجر النجارين من المئـة الباقية ، ثم امرت بابتياع بيض وتبن وسرجين بما بقي من المئة الدينار بعد اجرة النجارين، ثم ادخلتني والبيض والتبن والسرجين في ذلك البيت ، وحلفتْ بحق جَدها لا اخرج من ذلك البيت حتى احضن ذلك البيض كلـه الى ان يفقس ، ففعلت ذلك ، ولم ازل احضنه حتى فقس كلـه ، فخرج الفراريج ، وربيت في دار سكينة ، وكانت تنسبهن وتقول : بنات اشعب. »[2]

## نوادر اشعب

ولاشعب قصص ونوادر كثيرة اضحك بها اهل الحجاز ، وقد اورد منها ابن عبد ربه طائفة في عقده ، منها انه قيل لاشعب : « لو انك حفظت الحديث حفظك هذه النوادر لكان اولى بك ؛ قال : قد فعلت ؛ قالوا له : فما

---

١) الاصبهاني ١٥ : ١٣١–١٣٢ ٢) الاصبهاني ١٤ : ١٦٧–١٦٨

حفظت من الحديث ؟ قال حدثني نافع عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : من كان فيه خصلتان كتب عند الله خالصاً مخلصاً. قالوا : ان هذا حديث حسن ، فما هاتان الخصلتان ؟ قال : نسي نافع واحدة ونسيت الاخرى.»[١]

ويذكر الاستاذ احمد امين ، انه كان في المدينة مضحك يندر اهلها ، اسمه الناضريّ ، وقد خلفه الاشعب في هذا الفن.[٢]

## ظرف المخنثين

اما عن ظرف المخنثين فحدث ولا حرج. زعموا ان طويساً رُئي مرَّةً يرمي الجمار بسكر مزعفر ، فقيل له : ما هذا ؟ فقال: كانت للشيطان عندي يد ، فاحببت ان اكافيه عليها.[٣]

ورووا انه ذُكر لعمر بن عبد العزيز مخنث بالمدينة افسد نساءها ، فكتب الى عامله بالمدينة ان يصيّره اليه ، فادخلوه عليه ، « فاذا هو شيخ خضيب اللحية والاطراف ، معتجر بسبتية ، قد حمل دفا في خريطته ، فلما وقف بين يدي عمر صعّد بصره فيه وصوبه ، وقال : سوأة لهذه الشيبة ، وهذه القامة ، اتحفظ القرآن ؟ قال : لا والله يا ابانا . قال : قبحك الله ! واشار اليه من حضره ، فقالوا : اسكت ! فسكت ، فقال له عمر : اتقرأ من المفصل شيئاً ؟ قال : وما المفصل ؟ قال : ويلك اتقرأ من القرآن شيئاً ؟ قال : نعم اقرأ « الحمدُ لله » وأخطئ فيه في موضعين او ثلاثة ، واقرأ « قُل اعوذُ بربِّ الناس » وأخطئ فيها ، واقرأ « قُل هو الله أحدٌ » مثل الماء الجاري. قال : ضعوه في الحبس ، ووكلوا به معلماً يعلمه القرآن ، وما يجب عليه من حدود الطهارة والصلاة ، واجروا عليه في كل يوم ثلاثة دراهم ، وعلى معلمه ثلاثة دراهم أُخر ، ولا يخرج من الحبس حتى يحفظ القرآن اجمع . فكان كلما علم سورة نسي التي قبلها ، فبعث يقول مع رسول الى عمر : يا امير

١) ابن عبد ربه ٣: ٤٤٢   ٢) احمد امين ٢: ١٢

٣) ابن قتيبة (م) ١٦٤

المؤمنين وجّه اليَّ من يحمل اليك ما اتعلمه اولًا فاولًا ، فاني لا اقدر على حمله جملة واحدة ، فيئس عمر من فلاحه ، وقال ما ارى هذه الدراهم الا ضائعة ، ولو اطعمناها جائعاً ، واعطيناها محتاجاً ، وكسوناها عرياناً ، لكان اصلح . ثم دعا به ، فلما وقف بين يديه ، قال له : اقرأ « قُل يا ايها الكافرونَ » ، قال : اسأل الله العافية ، ادخلت يدك في الجراب فاخرجت اشد ما فيه واصعبه . »[1]

ويروى عن المخنث الغريض انه رأى ابن ابي عتيق وصاحباً له قرب مكة فالهاهما بغنائه اياماً ، ثم عرف بعزمهما على الرجوع الى المدينة ، فسألهما : ألم تَرْوُوا عن النبي انه قال يحشر من بقيعنا هذا سبعون الفاً على صورة القمر ليلة البدر ؟ قال ابن ابي عتيق : بلى ؛ فقال هذه سنّ لي انتزَعت ، فاحب ان تدفنها بالبقيع . قال ابن ابي عتيق : فخرجنا والله اخسر اثنين ، لم نعتمر ولم ندخل مكة ، حاملين سنّ الغريض حتى دفناها بالبقيع .[2]

### دل حجازي

وكان صاحبنا عمر صديقاً الى اكثر هؤلاء الذين ذكرنا ، وله مع بعضهم اخبار تدل على ظرفه وحبه للمزاح ، وسنعرض الى هذه الناحية من خلقه عند درسنا حياته . ولنختم هذا الباب بكلمة قالها بعض الرواة تعليقاً على نسب عمر من ناحية أمه اليمنية . قال : ومن ثَمَّ اتاه الغزل ، لانه يقال : عشق يماني ، ودلٌّ حجازي .[3]

---

١) الاصبهاني ٦ : ٩٠
٢) الاصبهاني ٢ : ١٣٣
٣) الحصري ١ : ٢٩٣

# الحياتان الدينية والعلمية

لم تكن هذه الحياة المبهجة ، وهـذا العيش الرغيد ، وهذا اللهو والانس والعبث ، وهذه الدعة واللين والخفض ، وهذا المال والترف ، لم تكن هذه كلها لتمنع اهل ذلك الجيل ، لاسيا الحجازيين منهم ، من الالتفات الى هـذه الناحية الجدية من حياتهم ، والنظر في هذا الانقلاب الديني العظيم الذي هز الجزيرة العربية ، فارتجت له اكثر اقطار الارض · نعم لم تكن فتوحاتهم السياسية ، واحتلالهم بلاد الفرس ومصر وسوريا ، وامتلاكهم الاموال ، وتنعمهم بنعم الفيء لتنسيهم هذه النهضة الدينية التي كان لها اثر كبير في هذا الانقلاب الخطير·

## بعض ظواهر الحركة الدينية

كانت هذه الحركة الدينية في هذا الجيل متعددة النواحي ، متشعبة الفروع ، متلونة بالوان شتى ، متاثرة بعوامل شتى ، منها ما يرجع الى الاحزاب ، ومنها ما يرجع الى العصبية القبلية ، ومنها ما يعود الى الاقليم ، وغير ذاك · وكان ذلك امرًا طبيعياً ·

أوَلم يكن اهل هـذا الجيل قريبي عهد بجاهليتهم وبعصبياتهم المختلفة ؟ أولم يكن في كتاب هـذا الدين الجديد ما يخالف بعض خلق الذين فيه ، او ان شئت فقل ، يخالف بعض ما الفوه من عادات وتقاليد ؟ ثم ، ألم يمت صاحب هذه الدعوة ، والوحي لم يجمع ، والحديث لم يدوَّن ، والنصوص لم تفسر كلها ، او قـل ، لم يقف على اسباب تنزيلها كل المسلمين ؟ أوَلم يتنازع زعمـاء المسلمين بعد محمد فيا بينهم ، سواء اكان اختلافهم في امر الخلافة ، او الامامـة ، او غير ذاك ؟ الم ينقسموا الى شيع متعدّدة ، كانت

ترى كل واحدة منها انها صاحبة الحق فيما تذهب اليه ، وتحاول ان تؤيد موقفها بآيٍ او حديث ؟ واذًا ، فمن الطبيعي ان تسيطر هذه الحركة الدينية في كل هذه الاقطار التي اخضعها الاسلام ، وبالاخص في الحجاز حيث نشأ الاسلام ، في مكة ، حيث ولد النبي ، وشبَّ ، وجاهر بدعوته كهلًا ، وبالمدينة حيث نُوصر ، وقوي حزبه ، وظهر تشريع دينه ، وحيث مات وصار قبره محجة للزائرين. ومن الطبيعي ان تتعدد الوانها وتتشعب فروعها وتختلف اغراضها ومراميها.

ومن الطبيعي ايضاً ان ينهض الناهضون لجمع هذا الوحي ، ودرس هذا الحديث ، وان يهتموا بهما ، وبتفسير نصوصهما ، وان يسعوا لاستخراج الاحكام منها . وقد تمَّ جمع القرآن وتدوينه ، كما هو مشهور ، زمن عثمان بن عفان . ومن الطبيعي ان يتساءل الناس عما قضى النبي به في بعض الامور ، وعما مارسه في بعض الفروض ، وكيف صلّى ، وكيف حجَّ ، وكيف طاف ، وكيف استلم. ومن الطبيعي ، وقد اختلفت العرب على الزعامة ، وانقسمت على انفسها ، ان تختلف في بعض امور الدين الفرعية ، فتتضارب الآراء ، وتتعدد المذاهب ، وتختلف الفتاوي ، وتتشعب طرق الاجتهاد ، وتتنوع المدارس التي تمثل هذه الاختلافات ، فتنهج كل منها النهج الذي يوافق عقيدة رئيسها او رجالها ، من حيث تفسير النصوص القرآنية ، او من حيث رواية الاحاديث النبوية ، والقول بصحتها ، او اصليتها ، او رفضها ، حملًا على انها من وضع بعض المتزلفين او اصحاب الاغراض والغايات.

### القراءة والكتابة

ومن الخير ان نلتفت هنا الى ان الكتابة والقراءة كانتا منتشرتين انتشارًا لا بأس به ، بحيث كان الكثيرون من اهل ذلك الجيل يكتبون ويقرأون ، ويدوّنون بعض ما يسمعون من تفسير او حديث. ونذهب الى ان الكتابة قد تجاوزت ابعد من هذا ، بحيث صارت وسيلة للتراسل فيما بين الكثيرين من اهل ذلك الجيل ، ولدينا ادلة كثيرة على انها كانت مألوفة

حتى في المراسلات بين الرجال والنساء. وسنرى ان صاحبنا عمر كان يكتب الى بعض صديقاته ، وانهن كن يعرفن القراءة . ويروي ابو الفرج ، ان اخت الحجاج كانت تعرف القراءة . فقد ذكر انه لما قتل الحجاجُ ابنَ الاشعث ، بعث بكتاب الى عبد الملك يخبره بهذا ، وبعث بآخر ، في الموضوع نفسه ، الى اخته زينب ، ويقال ان الرسول اعطى الكتاب الى زينب ، وهي راكبة على بغلة في هودج ، فنشرته تقرأه ، وسمعت البغلة قعقعة الكتاب ، فنفرت ، وسقطت زينب عنها ، فاندق عضداها ، وتهرّى جوفها[١].

كذلك كان هناك في بعض حواضر العالم العربي، لاسيا حواضر الحجاز ، دور بسيطة لتعليم القراءة ، لعلها اشبه ما يكون بالكتاتيب البسيطة التي نعرفها اليوم في اكثر القرى في مختلف البلدان العربية ، وكانت الدروس التي تُعطى فيها دروساً اولية في قراءة القرآن وحفظه . ويظهر ان الكثيرين من اهل ذلك الجيل التفتوا الى ان يتعلم ابناؤهم قراءة القرآن في هذه الكتاتيب ، روى ابن عبد ربه ان عبدالله بن صفوان لام عبدالله بن جعفر على حضوره الملاهي فقال هذا له: « وانت ابا صفوان ، صرت حجة لصبياننا علينا، اذا لمناهم في ترك المكتب ، قالوا : هذا ابو صفوان ، سيد بني جمح ، لا يقرأ آية ، ولا يخطها. »[٢] وقد كان الكتّاب حتى في زمن النبي كثيرين ، ذكر منهم ابن عبد ربه في عقده طائفة كبيرة[٣] . وروى ان منهم من كان يكتب بين القوم في قبائلهم ، ومياههم ، وفي دور الانصار بين الرجال والنساء ، وان منهم من كان يكتب خرص ثمار الحجاز.[٤]

ورووا انه كان ببصر الحجاج بن يوسف غبرة لكثرة نظره في الدفاتر.[٥]
وزعموا انه كان هو وابوه من قبله يعلمان الصبيان في الطائف.[٦]

وفي القرآن نصوص صريحة تظهر ان العرب كانت تعرف الكتابة وتستعين

---

١) الاصبهاني ٦ : ٢٩
٢) ابن عبد ربه ٢ : ١٥٢
٣) ابن عبد ربه ٢ : ٢٠٤
٤) ابن عبد ربه ٢ : ٢٠٤
٥) ابن عبد ربه ٣ : ٢١
٦) ابن عبد ربه ٣ : ٦-٧

بها في امورها . منها « يا ايها الذين آمنو اذا تَدَاينتُم بدَين الى اجل مُسمّى فاكتبُوهُ وَليكتُب بينكم كاتبٌ بالعدلِ ولا يأبَ كاتبُ ان يكتبَ كما علّمه الله فليكتبْ وَلْيُمْلِلِ الّذي عليه الحقُّ . . . . . . او لا يستطيعُ ان يُمِلَّ هو فليُملل وليُّه بالعدلِ . . . ولا يأبَ الشهداء اذا ما دُعوا ولا تسأموا ان تكتبوه صغيراً او كبيراً الى اجله ذلكم اقسطُ عندَ الله واقومُ للشهادةِ وأدنى الّا تَرْتَابُوا إلّا ان تكونَ تجارةً حَاضِرةً تُديرونها بينكُم فليسَ عليكم جُناحُ الّا تكتبوها . . .وان كنتم على سَفَر ولم تجدُوا كاتباً فرهانٌ مقبوضةٌ . . . »[١]

وكانت العرب قبل الفتوحات تكتب في اللّخاف، وهي حجارة بيض رقاق، وفي عظم اكتاف الابل والغنم، وربما في عظم ضلوع الابل، وفي قطع الخزف، وفي عسب النخل — في اصل الجريد الذي لا خوص عليه — ولعلهم استعملوا ايضاً الأدَم والرَقّ. وفي القرآن: « والطُّورِ وكتابٍ مسطورٍ في رَقٍّ مَنشور »[٢]

ثم لما فتحوا مصر وفارس استعانوا ببرديّ مصر[٣] وكتبوا على الاقمشة، وظلوا يكتبون في شئونهم البسيطة على الأدوات القديمة التي ذكرنا. وفي اخبار عمر — كما سنرى — انه كتب مرةً على كتفٍ؛ غير انه استعان ايضاً بالاقمشة فيما يظهر، فقد ذكروا عنه انه كتب الى الثريا في قوهيّة[٤] وشنّفه.

اما قاعدة الخطّ في ذلك العصر فقد كانت فيما يظهر من الآثار الخطية المتخلفة عن اهله — اذا استثنينا النقود والنقوش وربما والمصاحف ايضاً — لا تختلف كثيراً عن قاعدة الخط النسخي المعروف الآن، ويظهر ان الخط هذا لم يتطور كثيراً طوال القرن المذكور اللهمَّ الّا في امر التنقيط، سواء أكانت النقط تشير الى الحركات او الى تمييز الحروف المعجائيـة المتشابهة بعضها من بعض، وامر هذا التطور فيه شيء من الغموض فالعلماء مختلفون في معاني بعض كلمات النصوص التي تشير اليه، كنقط مثلًا او إعجام او حروف[٥].

١) القرآن – البقرة – ٢٨٢ و٢٨٣
٢) القرآن – الطور – ١-٣
٣) البلاذري ٢٤٠
٤) قماش ابيض ينسب الى قوهستان
٥) اطلب مثلًا ابن خلكان ١: ١٧٥

## التدوين والتأليف

اذا صحت الرواية التي ذكرنا بفصل سابق في ان ابن صفوان كان قد اتخذ في العصر الاموي غرفة تحتوي دفاتر فيها من كل علم، فان التدوين كان قد جرى شوطاً لا بأس به. ولقد ذكر ابن سعد ان عروة بن الزبير كان يدوّن علمه في كتب. قال: «قال هشام بن عروة: احرق ابي يوم الحرة كتب فقه كانت له، فكان يقول بعد ذلك: لأن تكون عندي احب الي من ان يكون لي مثل اهلي وولدي».[١]

وروى الجاحظ ان ابا عمرو بن العلاء كان اعلم الناس بالقراءة والشعر وايام الناس، وذكر ان كتبه عن العرب الفصحاء قد ملأت بيتاً الى قريب من السقف. وروى قول الفرزدق فيه:

ما زلت افتح ابواباً واغلقها حتى اتيت ابا عمرو بن عمار[٢]

كذلك روى ابن النديم انه رأى كتباً من تأليف خالد بن يزيد بن معاوية.[٣]

ونظن ان اهل ذلك الجيل لم يعدموا ان يكون بينهم من اعتنى بجمع بعض اخبار المغازي والفتوحات والقصص والسِيَر وما الى هذه الامور مما له علاقة بامور التاريخ والدين. وقد فشا في ذلك العصر القصص الديني، واخذ يقوم به رجال رسميون، ويرى البعض «ان هذا القصص هو الذي ادخل على المسلمين كثيراً من اساطير الامم الأخرى كاليهودية والنصرانية، كما كان باباً دخل منه على الحديث كذب كثير، وافسد التاريخ بما تسرب منه من حكاية وقائع وحوادث مزيفة أتعبت الناقد واضاعت معالم الحق».[٤]

ولسوء الحظ لم يتخلف الى عصرنا الذي نحن فيه — فيما نعلم — شيء من الكتب او المجاميع او القصص التي دوّنت في القرن الاول، غير انه لدينا اكثر من وثيقة خطية في رقاع مستقلة كتبت على البَرْدِيّ في اوقات مختلفة في

١) ابن سعد ٥:١٥٦
٢) الجاحظ (ب) ١:٣٢٢-٣٢٤
٣) ابن النديم ٣٥٤
٤) احمد امين ١٩٣

غضون هذا القرن المذكور؛ منها عدد كبير كتب في النصف الاول منه. ويرجع بعضها الى سنة ٢٤ هـ.[١]

## الحركة العلمية البحتة

امـا الحركة العلمية البحتة من طب وفلسفة ومنطق وكيمياء ، فتكاد تكون معدومة في النصف الاول من هذا القرن ، لا سيا في الحجاز . ولم يعرف في دمشق الا افراد قلائل ممن عنوا بهذه الابحـاث ، وكان جلهم من سكان البلاد الاصليين او من الاجانب الذين استخدموا عند امراء العرب ، وقد كان لمعاوية ـــ كما سبق لنا فذكرنا ـــ وليزيد ابنه وللحجاج اطباء يستصحبونهم معهم في رحلاتهم . ولعلّ هذه الحركة نمت شيئاً ما بعـد منتصف هذا العصر الذي نحاول تصويره ، فنشأ على ايدي هؤلاء العلماء بعض العرب . ومن هنا نسمع في ان خالد بن يزيد بن معـاوية كان اول من ترجمت له كتب الطب والنجوم والكيمياء.[٢] ويقول ابن النديم انه رأى لخالد هذا تآليف ، منها كتاب الحرارات وكتاب الصحيفة الكبير.[٣] ومن الخير ان نلاحظ ان الطب والفلسفة كانا متصلين ، بحيث كان اكثر الاطباء ـــ ان لم نقل كلهم ـــ اطباء وفلاسفةً معاً . نتج عن هذا ان الحركة الفلسفية اخذت تنمو اخر هـذا العصر مع الطب جنباً الى جنب .

ومهما يكن من الامر كله ، فقد كانت هذه الحركة بعيدة عن الحجاز ، ولم يكن لصاحبنا عمر عناية بها او التفات اليها .

وكان هناك في العراق حركة لوضع شيء من علم النحو لا يزال تاريخهـا غامضاً ، فلسنا نعلم تفاصيلها ولا رجالها تمـام العلم ، بل لا يزال بعض العلماء مختلفين في اساسها ، فنهم من يزعم انها حركة مستقلة مصدرهـا علماء الاسلام ورجاله ، ومنهم من يذهب الى انها حدثت بعـد احتكاك العرب بالسريان ، وان القائمين بها اخذوا شيئاً عن طرق السريان او اليونان في تصنيف النحو ، ومنهم

١) مورتز – الموسوعة الاسلامية – تحت ARABIA

٢) ابن النديم ٣٥٤ ٣) ابن النديم ٣٥٤

من ذهب مذهباً وسطاً.[1]

## الحركة العلمية تصطبغ بالدين

والمهم ان نعلم ان هذا الدين الجديد الذي دخل فيه العرب في ذلك الجيل قد أثر في اكثر هـذه المناحي العلمية، بحيث صبغها بصبغته، وختمها بخاتمه، وكاد يكون أساساً لها حتى آخر العصر الاموي. فالتاريخ، والقصص، والحديث، وبعض الفلسفة، تدور على حياة النبي وغزواته واعماله وكلامه وعلى القرآن ونصوصه. حتى النحو، فان بعض مسائله انما كانت تبحث بسبب اختلاف في استنباط فقه او احكام من القرآن او الحديث.

## الحركة الدينية

وكان قوام الحركة الدينية ثلاثة امور: يدور اولها على القرآن وتفهم نصوصه وتفسيرها، ويدور الثاني على الحديث والتثبت منه وجمعه وروايته، ويقوم الثالث على استنباط الاحكام من القرآن ومن الحديث لتطبيقها على الناس في كل ما يصدر عنهم من اعمال واقوال وغيرها، دينية كانت او دنيوية وهو ما يسمّى بالتشريع، ولعله اعسر هذه الابواب.

اما تفسير القرآن فكان يرجع فيه بالاكثر الى الصحابة الذين كانوا على اتصال بالنبي، واطلاع على اكثر الظروف او الاحوال التي نزلت فيها آيات الكتاب. ومن هؤلاء من فسّر آية نقلاً عن النبي، ومنهم من لم يسمع تفسيراً لها من النبي، فابدى رأيه مستنداً الى علمه من امرها، ووقوفه على سبب تنزيلها.

وقد دعا هذا الى ملازمة بعض الناس نفراً معروفين من الصحابة، وجلوسهم اليهم، او في حلقاتهم، يستمعون الى اقوالهم وآرائهم وينقلون عنهم. قال عبدالله بن مسعود: «والله الذي لا اله غيره، ما انزلت سورة من كتاب الله الّا انا

---

١) راجع ما قاله الاستاذ ليتمان في محاضراته التي اورد بعضاً منها الاستاذ احمد امين في كتابه ضحى الاسلام. مصر سنة ١٩٣٥ جزء ٢: ٢٩٢-٢٩٣

اعلم اين انزلت ، ولا انزلت آية من كتاب الله ألا انا اعلم فيمَ انزلت ، ولو اعلم احدًا اعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت اليه ».[1]

وكذلك قل في شأن الحديث ، فقد سمع من النبي ناس ، ونقل عنهم ناس ، ونشأ افراد كثيرون عنوا بجمعه وروايته وشرحه.

وامتاز البعض بقوّة الاستنباط والقياس وتطبيق الاحكام استنادًا الى القرآن والسنّة ، ومنهم من كان اذا عجز ان يجد في القرآن او السنة ما يرشده الى استنباط حكمه عمد الى رؤوس الناس وخيارهم فاستشارهم ، فاذا اجتمعوا على امر قضى به ، ومنهم من اعتدّ برأيه فافتى به.

ولم تكن هذه الفروع متميزة مستقلة ولم يكن هناك علماء متخصصون فيها ، بل كان من العلماء من كان يفسّر ويحدّث ويبدي الفتاوي او يستنبط الاحكام.

وكان اول ما تنتجه هذه الحركة ان يجمع القرآن في كتاب واحد ، فجمع .

قال زيد بن ثابت: « ارسلت الى ابي بكر ، فاتيته ، فاذا عمر بن الخطاب عنده ، فقال ابو بكر : ان عمر اتاني فقال لي : ان القتل قد استحرّ بالقرّاء يوم اليمامة ، واني اخشى ان يستحرّ القتل في القرّاء في المواطن كلها فيذهب كثير من القرآن ، فأرى ان يجمع القرآن بجال . فقلت لعمر : كيف افعل شيئاً لم يفعله رسول الله صلعم . فقال عمر : هو والله خير ، فلم يزل عمر يراجعني في ذلك حتى شرح الله له صدري ، ورأيت ذلك الذي رآه عمر . قال زيد بن ثابت : قال ابو بكر : انك رجل شاب عاقل [لا متهمك[2]] قد كنت تكتب الوحي لرسول الله صلعم ، فتتبّع القرآن واجمعه . قال زيد : فوالله لنقلُ جبلٍ من الجبال ما كان اثقل عليّ من الذي امرني به من جمع القرآن . [اجمع][3] من الرقاع واللخاف والعسب وصدور الرجال حتى وجدت سورة التوبة مع ابي خزيمة الانصاري لم اجدها مع احد غيره لَقَدْ جاءَكُم رَسُولٌ مِنْ أنفُسِكُم عَزِيزٌ عَلَيهِ ما عَنِتُّم حتى خاتمة السورة ، فكانت الصحف عند ابي بكر حياته حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حتى توفاه الله ،

١) البخاري ٦ : ٩٦ ٢) البخاري ٦ : ٩٥ لا نتهمك

٣) البخاري ٦ : ٩٥ فتتبعت القرآن اجمعه

ثم عند حفصة ابنة عمر.»[١] ثم لما كان زمن عثمان ارسل الى حفصة: «ان ارسلي الينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها اليك، فارسلت بها حفصة الى عثمان، فامر عثمان زيد بن ثابت وعبدالله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف، وقال للرهط من قريش: اذا اختلفتم انتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فانما انزل بلسانهم، ففعل ذلك حتى اذا نسخ المصحف ردّ عثمان الصحف الى حفصة؛ وارسل الى كل افق مصحفاً مما نسخوا وامر بكل ما سواه من القرآن في كل صحيفة ومصحف ان يحرق».[٢] وهكذا حفظ الاساس الاول من الضياع والعبث.

اما الحديث فلم يجمع عصرئذٍ -- اذا جاز لنا هذا الاستعمال -- وحدثت الفتنة بين الاحزاب المختلفة فدسّ ذوو الاغراض فيه شيئاً كثيراً، وفعلت الخصومات السياسية والعصبيّة -- بين رجال الاسلام الاول -- فعلها الكبير في حمل الكثيرين من اتباع الاحزاب المختلفة على تأييد احزابهم بوضع احاديث او تفاسير ليست غالباً من الحقيقة في شيء. ولقد دوّن ابن ابي حديد كثيراً من اخبار هذا الوضع، ثم نقل عن نفطويه ما يناسب هذا، فقال: «وقد روى ابن عرفه المعروف بنفطويه وهو من اكابر المحدّثين واعلامهم -- في تاريخه ما يناسب هذا الخبر، وقال: ان اكثر الاحاديث الموضوعة في فضائل الصحابة افتعلت في ايام بني اميّة تقرباً اليهم بما يظنون انهم يرغمون به انوف بني هاشم.»[٣]

## عصبية المحدثين

وقد بلغت ببعض المحدثين عصبيتهم لمذهبهم ان وضعوا احاديث فيها ذكرٌ لمعجزات زعموا ان زعماءهم قاموا بها، واختلقوا اقاصيص عنهم ليست من المعقول في شيء. فقد كان التابع ينسب لزعيمه المعجزة والفضائل، وينسب لزعماء خصومه من الصحابة والتابعين الاول الكفر والنفاق.[٤]

---

١) ابن النديم ٢٤-٢٥ والبخاري ٦: ٩٥-٩٦ ٢) ابن النديم ٢٤ والبخاري ٦: ٩٥-٩٦

٣) ابن ابي حديد ٣: ١٦-١٧ ٤) ابن ابي حديد ٣: ١٦

ومن هنا نستطيع ان نعلم وجه هـذه الاحاديث المتناقضة التي مدح في بعضها ابو بكر ، وذم علي ، وذم في بعضها الآخر ابو بكر ، ومدح علي ٠ روى ابن ابي حديد ان البكرية كانوا يصنعون الاحاديث في فضل ابي بكر ، فاذا سمعتها الشيعة ، اوسعوا في وضع الاحاديث في فضل علي ، وذم ابي بكر ٠ وهي احاديث قال فيها ابن ابي حديد : انها تقتضي نفاق قوم من اكابر الصحابة والتابعين الاولين وكفرهم ٠٠٠ وفسقهم ، ثم تعود البكرية فتقابلهم بمطاعن كثيرة في علي وولديه ، ولقد كان الفريقـان ــ كما يقول ابن ابي حديد ــ « في غنية عما اكتسباه واجترحاه »٠[١]

كذلك فعلت نزعتهم الاقليمية ، ونزعتهم القبلية ، وتعصبهم لمواطنهم ، او لمدنهم ، او لعشيرتهم واهلهم ، فعلها في وضع الاحاديث بفضل هذه الاماكن او العشائر او الاهل ٠ وعرفت هذه الطرق في وضع الحديث ، فاخذ البعض يقف من المحدثين موقف الحذر والشك والريبة ٠ روى مسلم ، قال : « جاء بشير العدوي ابن عباس ، فجعل يحـدّث ويقول : قال رسول الله ( صلعم ) ، فجل ابن عباس لا يأذن لحديثه ، ولا ينظر اليه ، فقال : يا ابن عباس ! مالي لا اراك تسمع لحديثي ؟ احدثك عن رسول الله (صلعم) ، ولا تسمع ! فقال ابن عباس : انّا كنّا مرةً اذ سمعنا رجلًا يقول : قال رسول الله (صلعم) ، ابتدرته ابصارنا ، واصغينا اليه بآذاننا ، فلما ركب الناس الصعب والذلول ، لم ناخذ من الناس الا ما نعرف ٠ »[٢]

ويكفي ان نعلم انه روي عن البخاري انه خرّج كتاب الصحيح ( وعدد احاديثه نحو سبعة آلاف ونيف ، وباسقاط المكرر منها نحو اربعة آلاف ) من زهاء ستمئة الف حديث كانت متداولة في عصره ٠[٣]

**الاسناد**

وهال اهل الحديث في القرون الاولى هذا الامر ، وهذا الوضع ، فاخذوا

---

١) ابن ابي حديد ٣ : ١٧
٢) مسلم ١ : ١٠
٣) البخاري ١ : ١

يطلبون الاسناد او العنعنة — حدّث فلان عن فلان — حتى روى مسلم ان عبدالله بن المبارك كان يقول : « الاسنادُ من الدين. »[1] واخذوا يسألون عن الرواة ، ويتطلبون الثقات ، ومن هنا نسمع في ان فلاناً ثقة يقبل حديثه ، وفلاناً فاسق لا يقبل حديثه.[2] ومن هنا ايضاً نستطيع ان نفهم لماذا لم يُلتفت الى حديث صاحبنا عمر ابن ابي ربيعة ، وهو كما سنرى من الذين اتصلوا بكثير من ايمة عصره كسعيد بن المسيّب وعبدالله بن عباس وغيرهما ، بل قد كانت بينه وبين ام المؤمنين عائشة بعض صلات القرابة ؛ اذ يكفي ان يكون الحديث قد نقل عن عمر ابن ابي ربيعة حتى يجرّح ويرفض ، بل لقد فات اكثر الرواة ان يلتفتوا الى هذه الناحية من حياة عمر ، فلم يتصدوا لها ، ولم نعثر الّا في مصدر واحد متأخر ذكر شيئاً عن هذا ، هو السيوطي ، فقد نقل في شرحه لشواهد المغني ان عمر حدّث عن سعيد بن المسيّب ، وروى عنه مصعب بن شيبة وعطاف بن خالد.[3]

## مكة والمدينة واثرهما في الحياة الدينية

وقد قويت هذه الحركة الدينية ذلك العصر في مدينتين من مدن الحجاز ، هما مكة والمدينة. فبعد ان مات النبي ، وظل اكثر صحابته وتابعيهم في الحجاز ، وبعد ان دفن في المدينة ، وصارت هذه عاصمةَ لخلفائه الراشدين ، واصبحت مكة قبلة المسلمين ومزار حجهم ، وبعد ان تم جمع القرآن زمن عثمان ، وبعد ان اتسعت رقعة المملكة الاسلامية زمن بني امية ودخل الكثيرون من اهل الامم المغلوبة في الاسلام ، اخذ الكثيرون يفدون على الحجاز في طلب علوم هذا الدين الجديد ، والتعرف الى اسباب التنزيل والظروف التي احاطت به في مكة والمدينة ، وتفسير الآيات وجمع الحديث او درسه واستنباط الاحكام وما الى هذه الامور. وهل هناك من هم ادرى بهذه المسائل من علماء مكة والمدينة الذين عاش النبي بين ظهرانيهم ، وسمعوه يتلو القرآن عليهم ، وسألوه عن الكثير من امور دنياهم ودينهم ؟ ولذلك فقد كانت مكة والمدينة اهم مركزين للحياة

١) مسلم ١ : ١٢ وابن عبد ربه ١ : ٢ ٢) مسلم ١ : ١٢ و٧ ٣) السيوطي (ش) ١١

الدينية في ذلك العصر ، وكان رجال هاتين المدينتين بوجه عام معلمي العالم الاسلامي آنئذٍ ، ومفتيي المسلمين في امور دينهم . وقد ذكرت الكتب التاريخية والدينية اسماء الكثيرين من هؤلاء المعلمين العلماء من صحابة وتابعين ، عرباً كانوا او موالي ، كعلي ، وابن مسعود ، وابن عمر ، وزيد بن ثابت ، وعبدالله بن عباس ، وسعيد بن المسيب ، ومجاهد بن جبر ، وعكرمة مولى ابن عباس ، ونافع مولى عبدالله بن عمر ، وعطاء ابن ابي رباح ، وسليمان بن يسار ، وغيرهم . وقد نشأ عن هذا في المدينة ظهور مالك بن انس مؤسس المذهب المالكي في آخر القرن الاول ، وقد اخذ عن ربيعة الرأي ، وخلف لنا كتاب الموطأ الذي يعد من اقدم الكتب الاسلامية في الحديث والشرع . ويروي ابن خلكان عن ربيعة الرأي هذا ان اباه فرّوخاً خرج في البعوث ايام بني اميةَ الى خراسان ، وخلف في المدينة امرأته حاملا ، وخلّف عندها ثلاثين الف دينار ، ثم عاد الى المدينة بعد سبع وعشرين سنةً ، وهو راكب فرساً وفي يده رمحٌ ، فنزل ودفع الباب برمحه ، فخرج ربيعة ، وقال : يا عدو الله اتهجم على منزلي ؟ فقال فروخ : يا عدو الله أنت دخلت على حرمي ، وتواثبا حتى اجتمع عليها الناس ، وكادوا يردّون الرجل ويطردونه لو لم تسمع امرأته قوله انه فرّوخ ، فخرجت ، وقالت : هذا زوجي ، وهذا ابني ، فاعتنقا وبكيا . ثم قال فروخ بعد حين لامرأته : أخرجي المال الذي عندك ، قالت : قد دفنته وانا اخرجه . ثم خرج ربيعة الى المسجد وجلس في حلقته فاتاه مالك والحسن واشراف اهل المدينة واحدق الناس به ، فقالت امّه لزوجها فرّوخ : اخرج فصلِّ في مسجد رسول الله ، فخرج ، فنظر الى حلقة وافرة فاتاها فوقف عليها ، ورآه ربيعة فنكس رأسه — وكان عليه قلنسوة طويلة — يوهمه انه لم يره ، فشك ابوه فيه ، وسأل عن رئيس هذه الحلقة ، فقالوا : هذا ربيعة ابن ابي عبد الرحمن ، فقال : لقد رفع الله ابني ، ورجع الى منزله ، وقال لوالدته : رأيت ولدك على حالة ما رأيت احداً من اهل العلم والفقه عليها ، فقالت امّه : فايّما احب اليك ثلاثون الف دينار او هذا الذي هو فيه ؟ فقال : لا والله بل هذا . فقالت : انفقت المال كلّه عليه . قال : فوالله ما ضيّعتِه .[1]

(١) ابن خلكان ١ : ٢٥٧–٢٥٨

## بقية الاقطار

وليس يعني هذا ان بقية الاقطار الاسلامية قد خلت من آثار هذه الحركة الدينية ، فقد نزل العراق كثيرون من صحابة النبي ، وممن لازموه كثيراً ، كعلي ، وكعبدالله بن مسعود ، وقد قويت هذه الحركة في الكوفة والبصرة ، واشتهر من رجالها شريح والشعبي والنخعي وسعيد بن جبير والحسن البصري وابو موسى الاشعري وابن مالك وابن سيرين وغيرهم .

وقد كان للحسن البصري حلقة يجتمع فيها خلقٌ كثير من طلاب علوم الدين ، وكان يتردد اليها واصل بن عطاء ، ثم اعتزلها ، وكوّن له حلقة كانت اساس حركة المعتزلة كما هو مشهور ، وكانت هذه الحلقات تعقد في المساجد .

وكذلك كان في مصر حركة دينية على رأسها عبدالله بن عمرو بن العاص الصحابي المشهور ، وعرف من رجالها جعفر بن ربيعة ويزيد ابن ابي حبيب وعبدالله ابن ابي جعفر وغيرهم .

وقد كان الامام عمر بن الخطاب قد اخرج الكثيرين من رجال الاسلام الاول الى الامصار ، وفرقهم في البلدان يفقهون اهلها ويعلمونهم ، [1] ففعلوا ، وانشأوا حركة دينية في كل بلد نزلوها .

ولم تعدم الشام من بعض رجال هذه الحركة ، ولعلّ قلة عدد هؤلاء ، وبعدهم عن الحجاز ، وسطوة بعض بني امية ، ومركز سلطانهم ، كانت من الامور التي حالت دون نموّ هذه الحركة فيها .

## بعض البيئات الخاصة

وهكذا ، فان اكثر الاقطار الاسلامية قد اخذت بنصيب من هذه الحياة الدينية ، بل قد كان هناك بيئات ، وفرق خاصة ، لم تتقيد بالاقليم الذي كانت تستقر فيه تقييدها بنظمها التي كانت توحّد بين افرادها ، ومن هذه الفرق الخوارج ، ولعلهم اكثر الفرق او الاحزاب الاسلامية تعلقاً بقرآنهم ، وتمسكاً

---

١) ابن سعد ٢ قسم ٢ : ١١٧

بامور دينهم ، واشد تأثراً بالحياة الدينية الجديدة . ذكر ابن عبد ربه ما يفيد انه ليس في الفرق كلها من هم اشد بصائر من الخوارج ، او اشد اجتهاداً ، او اوطن انفساً على الموت ، وقال: منهم الذي طعن ، فانفذه الرمح ، فجعل يسعى الى قاتله ، ويقول: عجلت اليك ربِّ لترضى.[١]

وكانوا كثيري التعبد والصلاة . منهم من وقع على مال الفيْ — فيما يروون — فلم يأخذ منه الا عطاءه واعطيات اصحابه ، وترك ما بقي ، ومنهم من لم يقاتل الّا من قاتله ، ومنهم من كان اذا دنا وقت الصلاة نادى خصمه ان يوادعه حتى يصلي.[٢] ونزل خارجيٌّ في احدى ساحات القتال مرة يطلب من يبارزه ، فرأى شخصاً من جند بني امية مقبلاً ، فقصده ، فسأله هذا عن الشعر والشعراء ، وطلب اليه ان يحكم بين جرير والفرزدق ، فنعى الخارجي على خصمه تركه القرآن والفقه ، واقباله على الشعر يسأله عنه.[٣]

ولابي حمزة الشاري خطبة بمكة آخر العصر الاموي يصف فيها رجاله وتقواهم وتمسكهم الشديد بدينهم وتعلقهم فيه . قال فيها : « عمية عن الشر اعينهم ، بطيئة عن الباطل ارجلهم ، قد نظر الله اليهم في آناء الليل متثنية اصلابهم بمثاني القرآن ، اذا مرَّ احدهم بآية فيها ذكر الجنة بكى شوقاً اليها ، واذا مرَّ بآية فيها ذكر النار شهق شهقة كأن زفير جهنم في اذنيه ، قد وصلوا كلال ليلهم بكلال نهارهم ، انضاء عبادة قد اكلت الارض جباههم وايديهم وركبهم ، مصفرة الوانهم ، ناحلة اجسامهم من كثرة الصيام »[٤] الخ .

وقد وفد من هؤلاء الخوارج نفرٌ مع نافع بن الازرق على مكة ايام الفتنة ، فما فاتهم ان يقصدوا الامام ابن عباس فيسألوه في امور الدين ويستمعوا اليه .[٥] وكانت بيئتهم اكثر البيئات او الاوساط اندفاعاً مع الحياة الدينية الجديدة ، بحيث أثّر هذا في ادبهم من خطب وشعر ، وذلك واضح في اللفظ والمعنى والوضع .

١) ابن عبد ربه ١ : ٨٢
٢) ابن عبد ربه ١ : ٨١
٣) الاصبهاني ٧ : ٥٥
٤) ابن عبد ربه ٢ : ١٦٦
٥) الاصبهاني ١ : ٣٤

## النساء واثرهن في الحركة الدينية

ويظهر ان النساء لم يعدمن من نصيب في هــذا الامر ، فقد نقلت عائشة امرأة النبي كثيرًا من حديثه ، بل كانت من اكثر النقــلة حديثاً عنه ، وكان يرجع اليها في الكثير ممــا يتعلق بالنساء وحياتهن مع ازواجهن . وكانت سائر نساء النبي على شيء من هــذا العلم ، وروى عنهن وعن عائشة وعن الصحابة كثيرات من نساء ذلك الجيل . ذكر منهن ابن سعد في طبقاته عدداً كبيراً[1] ، منهن من كانت بينها وبين صاحبنا عمر صــلات صداقة او قرابة او حبّ كسكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة وغيرهما .

## النزاع بين جانبين

وغريب ان ترى سير هذه الحركة الدينية في الحجاز الى جانب حياة هؤلاء العرب المبهجة التي حاولنــا تصويرها في الفصول السابقة ، وذكرنا بعض ما كان فيها من ترفٍ ولهوٍ ومرحٍ وفرحٍ وطربٍ مازجها في كثير من الاحيــان عبث ومجون وفسق وخروج على حدود الدين وشرائعه ووصاياه .

وجميل ان يدرس هــذا النزاع الذي كان ينشب بين اهل هذه الحركة الدينية من جهة ، وبين اهل هذه الحياة التي وصفنا من جهة ثانية ، فترى وجوه الاختلاف بين الفريقين ، وترى وجوه الاختلاف بين اهل الحركة الدينية انفسهم فيما يتعلق باحكامهم على هذا اللهو واهله ، وترى اختلاف الاقطار ورجالها في النظر الى هذا الامر ، بل ترى الى اي حدّ تنتصر هذه الحياة على تلك ، او تلك على هذه ، والى اي حدّ كان الزعماء السياسيّون يوالون اصحاب هذه او تلك ، والى اي حدّ كان يشفق رجال الدين على رجال اللهو ، او يعبث هؤلاء باولئك .

ومن هنا نستطيع فهم هــذه الطائفة من الاخبار والقصص التي تصور لنا هذا النزاع بين الحياتين ، بين الدين والاخذ بشرائعه وحدوده والاقبــال على درسه وفهمه ، وبين حياة اللهو والمرح والعبث ، ومن هنا نفهم بعض الشيء عن ملاحقة بعض عمال بني اميّة المتحرجين لهؤلاء الشعراء العــابثين في اقدس مدن

١) ابن سعد ٨ : ٢٣٧–٢٦٥

الحجاز ، ونفيهم لهم ، او سجنهم ، او تعذيبهم ، او نصح بعض الفقهاء لبعض المجان في ان يمتنعوا عن السير على منهج الباطل ، او جزع والد شفيق على ولد جاهل يعبث ، او اشفاق اخ رفيق على شقيق ماجن يلهو . ولم يكتف الرواة في تمثيلهم هذا النزاع بين الحياتين على امثال هذه الاخبار ، بل اضافوا اليها اخبارًا تمثل النزاع بين المرء ونفسه ، او ان شئت فقل بين شخصيتيه المختلفتين ، شخصيته الدينية المتعبدة ، وشخصيته المرحة العابثة ، ومن هنا نستطيع فهم هذه الروح التي صورنا في بحثنا عن ظرف عبّاد الحجاز وفقهائها . واراد بعضهم ان يصوّر لنا قوة هذه الحياة المرحة التي سيطرت بلهوها وعبثها على شبيبة ذلك العصر من اهل الحجاز ، فغلبوا الاولى على الثانية ، وذكروا اكثر من قصة عن شعراء وفقهاء الفوا المرح واللهو ، بينما اشفق البعض الآخر من الرواة على اهل اللهو والعبث كصاحبنا عمر مثلًا فاماتوه وقد تاب وعفّ ونسك فيما يزعمون.[١]

## اثر الحركة الدينية في الادب

والذي لا شك فيه هو ان هذه الحركة الدينية قد اثرت تأثيرًا كبيرًا في حياة اهل ذلك الجيل ، فغيّرت كثيرًا من عاداتهم واخلاقهم ، والانت من طباعهم ، فانعكس هذا في ادبهم ، بل قد تأثر الادب في اكثر من ذلك ، فاخذ من تعابير القرآن ومعانيه وتراكيبه الخاصة ، واستعان بها ، وكان اثر هذه كلها ظاهرًا في شعر صاحبنا كما سنرى.

---

١) الاصبهاني ٩٦:٨ و٢٩:٤ و١٢٢:١٦ و٣٦:١ وابن عبد ربه ١٦٨:٣ وابن سعد ٢٤٤:٥ و٢٤٦

# الحياة الادبيَّة

ليس طبيعياً بعد هـذه التطورات المختلفة التي طرأت على العرب في ذلك الجيل ، من دين جديد دكَّ معالم اوثانهم ، الى فتوحات هزّتهم طرباً فما سكنوا حتى صارت اعظم ممالك الارض تحت اقدامهم ، الى توغل في اراضي هذه الممالك واتصال باهلها ، وامتلاك بعض ابنائها ارقاء وبناتها سراري ، الى فيءٍ عظيم افاءه الله عليهم من خيراتها واموالها ، فاثروا ، فدفعهم الثراء الى الترف واللهو والعبث ، الى نزاع كان ينشب فيما بين احزابهم ، فيعكر عليهم راحتهم وهدوءهم وصفو عيشهم ، فتظهر الفتن والثورات ، الى حروب اهلية تسيل فيهـا دماؤهم وسط اقدس البقاع عندهم ، اقول ليس طبيعياً بعد هـذه التطورات الَّا يتطور الادب العربي في ذلك العصر ، وهو صورة الحياة ، فيختلف النـاس في فهمه وتقديره اختلافهم في امر هذه العوامل التي كان لها الاثر الاكبر في بعثه وتكييفه.

ومهما يكن شأن هذه التطورات وقوتها ، فالباحث في حياة العرب الادبية في هذا العصر تبدو له ظواهر اربع ، لعلها كانت الصبغة الغالبة في لون تلك الحياة.

## النثر

### الشعر اكثر شيوعاً من النثر

اما الظاهرة الاولى فهي ان الشعر كان اعمّ واكثر شيوعاً في ذلك العصر من النثر ، او على الاقلّ كان اقوى على البقاء من النثر ، فهو ان لم يكن اكثر انتشاراً منه ، واقرب الى فهم اهل ذلك العصر واذواقهم ، فقد كان اقوى على

البقاء في صدورهم، ثم في كتبهم، بحيث لا يكاد يقابل الآن ما تحدّر الينا منه مع تلك الطائفة الضئيلة مما بين ايدينا من النثر. ولكن رغم هذا كله فقد كان في ما وصلنا من خطب اهل ذلك العصر ورسائلهم ما يدلّ على ان النثر قد بلغ من الرقيّ درجة كبرى.

وقد كانت هناك عوامل شتى ساعدت على رقيه أهمها ظهور الاسلام والقرآن، وما يتفرع عنهما، واختلاف المسلمين فيما بينهم، وانقسامهم الى شيع واحزاب، وحاجة امرائهم وخطبائهم الى الدفاع عن احزابهم المختلفة، وبث الدعاية لها، وردّ الخصوم عنها. ناهيك بما كان لاحتكاك العرب الفاتحين بالفرس والروم من أثر في حياتهم وتفكيرهم.

وقد عرف ذلك العصر رجالاً من اشهر خطباء العرب وكتابهم. غير ان ما حفظ عن كل من هؤلاء لا يتجاوز الصفحات الى الكتب. فقد سبق لنا وذكرنا ان الزمن لم يخلّف لنا من كتب اهل ذلك العصر شيئاً. وهذه القطع المبعثرة التي خلفت قد نثرت هنا وهناك في كتب المتأخرين من رجال العصر العباسي. ومجال الشك في صحة بعضها واسع، لاسيما تلك التي تنسب الى رجال الاسلام الاول، والتي يشتمّ منها بعض النزعات الحزبية او الدينيّة.

**الخطابة**

اما الخطابة فقد كانت على نوعين، سياسية ودينية، ولم يعرف العرب حتى عصرنا الاخير هذه الخطابة القضائية التي تلتمس فيها الحجة والاقناع.

وكانت تدور الخطب الدينية اول الامر على حض الناس على التقوى، وتذكيرهم بالآخرة، وتشجيع الجند اذا كانوا في حرب او حثهم على الثبات والصبر. وتطورت هذه الخطب آخر الامر حتى صارت شيئاً رسمياً، لها عبارات خاصة لا تتجاوزها، ولعل السياسة طغت على الخطابة الدينيّة فحصرتها في نطاق ضيّق لا تتعداه، بحيث لم يكن لها هذا المركز الذي كنا ننتظره لها في مثل ذلك العصر وبعده.

وظهرت الخطابة السياسية منذ اول الفتوح، واخذت تقوى وتنمو، غير ان تغيّر نظام الحكم ضيّق نطاقها فحصرت في هذه الاساليب التي يدافع بها العمال

عن سياسة خلفائهم ويتهددون الخصوم ، ومن يقرأ خطب زياد والحجاج وخالد القسري يجدها على مذهب واحد ، تسلك طريق الدفـاع عن صاحبي الامر من بني اميَّة ، ثم زجر الخصوم ، وايعادهم وتهديدهم ، والالحاح عليهم بشدة وعنف .

قال زياد في خطبة له : واني اقسم بالله لآخذن الوليّ بالمولى ، والمقيم بالظاعن والمقبل بالمدبر ، والصحيح بالسقيم ، حتى يلقى الرجل منكم اخاه فيقول : انجُ سعيد فقد هلك سعد ، او تستقيم لي قناتكم ... وقال في آخر خطبته هذه : فادعوا الله بالصلاح لامتكم ، فانهم ساستكم المؤدبون لكم ، وكهفكم الذي اليه تأوون ، ومتى يصلحوا تصلحوا ، ولا تشربوا قلوبكم بغضهم ، فيشتد لذلك اسفكم ، ويطول له حربكم ... حتى يقول : وايم الله ان لي فيكم لصرعى كثيرة ، فليحذر كل امرئٍ منكم ان يكون من صَرعاي.[١]

وقال الحجاج في خطبة له وقد ملكتها الشدة فاستأثرت بها حتى لكأنك تسمع منه طائفةً من السخط يلقيها على رؤوس سامعيه : واني لأرى رؤوساً قد اينعت ، وحان قطافها ، واني لصاحبها ، واني لانظر الدمـاء بين العمائم واللحى تترقرق. وفيها : وان امير المؤمنين نثر كنانته ، ثم عجم عيدانها ، فوجدني امرها عوداً ، واشدها مكسراً ، فوجهني اليكم ، ورماكم بي ، فانه قد طالما اوضعتم في الفتن ، وسننتم سنن الغيّ ... من وجدته بعد ثالثة من بعث المهلب سفكت دمه ، وانتهبت ماله ، وهدمت منزله.[٢]

وخطب خالد بمكة ــ وقـد اخذ بعض خصوم بني امية فحبسه فاعظم الناس ذلك وانكروه ــ فقال : وقد بلغني ما انكرتم من اخذي عدو امير المؤمنين ومن حاربه ، والله لو امرني امير المؤمنين ان أنقض هذه الكعبة حجراً حجراً لنقضتها.[٣]

وكان زعمـاء الثوار يخطبون في رجالهم ، وفي المدن التي يدخلون ، مدافعين عن مذاهبهم عند الثورة ، ثم يهاجون الخلفاء والولاة. وكان هناك مجال ان ترتقي

---

١) ابن عبد ربه ٢ : ١٨٣ – ١٨٤
٢) ابن عبد ربه ٢ : ١٨٧
٣) الاصبهاني ١٩ : ٦٠

هذه الخطب ، وتتنوع ، لولا ان سيف بني امية كان يقمع هذه الثورات بشدة فتسكت السنة خطبائها.

ولقد ذكرنا بفصل سابق شيئاً من خطبةٍ لاحد زعماء الخوارج فلتراجع هناك. وليلاحظ فيها خفة الروح ، والدعة واللين ، مما يدلّ على ان خطباء الخوارج قد تأثروا بالدين اكثر من خطباء بني اميةَ.

والخلاصة ان هذا العصر قد شهد حركة للخطابة لم تكد تظهر وتبدأ بالنمو والازدهار ، حتى قضي عليهـا. وكان الانشاء في اكثر هذه الخطب متين العبارة ، حسن السبك ، شديد الاسر ، موجزًا ، مع شيء من الاطناب في المناسبات التي تقتضي الاطناب ، ومع ان اجزاء الخطب لم تكن مرتبة منطقياً ، فقد كان وقعها في اغلب الاحيان عظيماً.

## الرسائل

اما الرسائل فقد كانت تختلف باساليبها عن الخطـابة . ولعلّ رسائل العهد الاول من ذلك العصر كانت اقرب الى اساليب الخطـابة من رسائل العهد الاخير ، وقد روعي في اكثرها الايجاز. ومن يدري لعلّ قلّة الموادّ التي يكتب عليها كانت احد الاسباب في مراعاة العرب الايجاز في رسائلهم اول الاسلام، ثم لمّا انتشرت بينهم اوراق البردي ، وغيرها من موادّ الكتابة التي عرفتها الامم المغلوبة ، زال هذا المانع ، وليس من شك انه كانت هنـاك مناسبات واحوال تقتضي الايجاز ، فكان يوجز الكاتب حتى في آخر العصر الاموي ، وانه كانت هناك ظروف تقتضي الاسهاب والاطناب فيطنب الكاتب حتى في اول العصر الاموي. وقد جمع القرآن هذين الاسلوبين فاوجز واطنب حسب مقتضى الحال .[1]

وشهد آخر العصر الاموي نفرًا شهروا في كتابة الرسائل ، لعل اولاهم بالذكر عبد الحميد بن يحيي كاتب مروان الاخير ، وقـد حفظت عنه رسائل كثيرة — في ابواب مختلفة — ضاعت اقسام من بعضها . ويلوح في هذه الرسائل

١) كتاب الصناعتين لابي هلال العسكري . مصر ١٣١٩ هـ. ص ١٤١–١٤٥ وراجع زكي مبارك ١ : ٥٨–٦٠

شيء من تطور النثر في ذلك العصر، ولعلّ اظهر ما في هذا التطور امران: اولهما طول الرسائل ، وقد بلغت احدى رسائل عبد الحميد هذا الى عبدالله بن مروان — ولي عهد الخليفة ، وعامله بالجزيرة — ما يقرب ثلاثين صفحة من حجم هذا الكتاب ، فهي اقرب الى كتاب صغير منها الى رسالة ، ويقال انه لا مثل لها في معناها.[1] وثانيها طول الجمل ، وكثرة الترادف والعطف فيها ، وقد قال في رسالته الى الكتّاب : « والكاتب ، لفضل ادبه ، وشريف صنعته ، ولطيف حيلته ، ومعاملته لمن يحاوره من الناس ، ويناظره ، ويفهم عنه ، او يخاف سطوته ، اولى بالرفق بصاحبه ومداراته وتقويم اوده من سائس البهيمة التي لا تحير جواباً ، ولا تعرف صواباً ، ولا تفهم خطاباً الّا بقدر ما يصيّرها اليه صاحبها الراكب عليها.»

وقال ايضاً في الرسالة نفسها : « ولا يجاوزن الرجل منكم في هيئة مجلسه وملبسه ومركبه ومطعمه ومشربه وبنائه وخدمه ، وغير ذلك من فنون امره ، قدر حقّه ».[2]

ولعلّ اظهر خصائص هذا النثر في ذلك العصر متانة التركيب ، وشدة الأسر ، وحدّة العاطفة ، وتمكين المعاني بايراد جمل تكاد تكون متقاربة في مدلولها، وايثار الخيال في كثير من المواقف لاسيا الخطابية منها كقول الحجاج: « واني لأرى رؤوساً قد اينعت وحان قطافها واني لصاحبها واني لانظر الدماء بين العمائم واللحى تترقرق .» وعدم تكلف السجع كما رأيت في هذه القطع المختصرة التي اوردنا.[3]

## الشعر

### انتشار الشعر ورواجه

اما الظاهرة الثانية فهي انتشار الادب ، لاسيا الشعر ، ورواجه ، وشدة الصلة بينه وبين عامّة الناس ، الى درجة لا نظن عصراً من عصور الدول العربية

---

١) كرد علي ١٣٩ ٢) كرد علي ١٧٣
٣) راجع ايضاً زكي مبارك ١ : ٥٧ – ٦٣

عرفها وربما لا نكون مغالين اذا سلمنا مع الاستاذ جرجي زيدان في قوله: «لم يكن للشعر العربي تأثير في النفوس، ومنزلة في الدولة، في عصر من اعصر العرب مثل ما كان له في العصر الاموي.»[١]

## الخلفاء والشعر

ويكفي ان يعنى الخلفاء والامراء والولاة به حتى تقبل عليه الناس، فترد عذب مائه، وتتفيأ وارف ظله، فقد كان معاوية مؤسس دولة بني اميـة في دمشق وزعيم قريش في عصره يحب الشعر، ويكثر من روايته.[٢] وكان يقول: يجب على الرجل تأديب ولده، والشعر اعلى مراتب الادب. ويقول: اجعـلوا الشعر اكبر همكم، واكثر دأبكم، فلقد رايتني ليلة الهرير بصفين، وقـد اتيت بفرس اغرّ محجل بعيد البطن من الارض، وانا اريد الهرب لشدّة البلوى، فما حملني على الاقامة الّا ابيات عمرو بن الاطنابة:

ابت لي همتي وابى بـلائي … واخذي الحمد بالثمن الربيح
واقحامي على المكروه نفسي … وضربي هامةَ البطل المشيح الخ.[٣]

وكانت له عناية بدرس الشعر، ونقده، ونقـد الشعراء، وتفضيل الواحد على صاحبه، وكان يتصدّى للتفاضل بين القبائل في ايها اشعر، وقد قال: خلّوا لي طفيلًا الغنوي، وقولوا ما شئتم في غيره.[٤] وقال: مزينة اشعر العرب.[٥] بل هناك من يزعم ان معاوية كان يجيد قول الشعر اذا آثر ان يقوله.[٦]

ونشأ يزيد ابنه نشأةً حَبَبَت اليه الشعر، فكان يروي منه الكثير.[٧] ويذكر ابن سلّام في طبقاته ان يزيدَ كان يتقاول الشعر مـع عبد الرحمن بن حسّان[٨]، ويذهب الى ان ابن حسان استعلاه، فاستجار بكعب بن جعيل، فابى هجو الانصار، ثم دلّه على الاخطل، فهجاهم بقوله:

---

١) زيدان (ا) ١: ٢٢٥
٢) الاصبهاني ٧: ١٥٣ و١٤: ٦٢
٣) ابن رشيق ١: ١٠ والطبري I: ٣٣٠٠
٤) الاصبهاني ١٤: ٨٨ وابن قتيبة (ش) ٢٧٥
٥) الاصبهاني ١٠: ١٦٥
٦) ابن ابي حديد ٣: ٤٧٦
٧) الاصبهاني ١: ٣٩ و٨٥ و١٣: ٦٤
٨) ابن سلّام ١٠٨

ذهبت قريش بالمكارم كلها واللؤم تحت عمائم الانصار(١

ويذكر له ابو الفرج شعراً في احدى غزوات الصائفة ، وآخر في وفاة ابيه.(٢
وينسبون اليه القصيدة المشهورة:

نالت على يدها ما لم تنله يدي(٣

وينسبون اليه ايضاً:

اذا ما ام عبد الله (م) لم تحلل بواديه
ولم تمس قريباً هيج الحزن دواعيه
غزال راعه القناص (م) تحميه صياصيه
وما ذكرى حبيب (م) وقليل ما اواتيه
كدن الخمر عناها وقد ازف ساقيه
عرفت الربع بالاكليل (م) عفته سوافيه
بجو ناعم الحوزان (م) ملتف روابيه(٤

وسواء أصح هذا ام لم يصح ، فليس من شك في انه لم يكن بالشاعر الهين.(٥ ذكر ابن خلكان ان ليزيد ديوان شعر يدخل في مقدار ثلاث كراريس، وكان اول من جمعه واعتنى به المرزباني. ويقول ابن خلكان: ان شعر يزيد مع قلته هو في نهاية الحسن ، ويذكر عن نفسه انه حفظ جميع ديوان يزيد لشدة غرامه به ، وذلك في سنة ٦٣٣هـ بمدينة دمشق.(٦

ويروي له من اطايب شعره هذه الابيات ، وهي بحق من اجل الشعر:

اذا رمت من ليلى على البعد نظرة تطفي جوى بين الحشا والاضالع
تقول نساء الحي تطمع ان ترى محاسن ليلى مت بداء المطامع
وكيف ترى ليلى بعين ترى بها سواها وما طهرتها بالمدامع
وتلتذ منها بالحديث وقد جرى حديث سواها في خروق المسامع
احبك يا ليلى عن العين انما اراك بقلب خاشع لك خاضع(٧

وكان خالد ابنه — على ما عرف من ولعه وشغفه بالعلم والكيمياء —

---

١) ابن سلام ١٠٨ و١٠٩
٢) الاصبهاني ١٦ : ٣٢-٣٤
٣) زيدان (ا) ١ : ٣٢٨
٤) الاصبهاني ١٤ : ١١٩
٥) لامنس (م) ٣ : ١٩٢
٦) ابن خلكان ١ : ٧٢٤-٧٢٥
٧) ابن خلكان ١ : ٧٢٤

شاعرًا ، ويذكر ابن خلكان ان لخالد هذا اشعارًا مطولات ، ومقاطيع دالّة على حسن تصرفه وسعة علمه ، وله في غير ذلك اشعار جيّدة منها :

تجول خلاخيل النساء ولا ارى  لرملة خلخالا يجول ولا قُلبَا
احب بني العوام من اجل حبها  ومن اجلها احببت اخوالها كلبا

وهي طويلة.[1]

وكان عبد الملك بن مروان اديباً ، عالمًا بالشعر ، وكان يحضر مجلسه احيانًا بعض الشعراء فيتذاكرون الشعر بحضرته.[2] وكان راوية يحفظ الكثير من جيّد المنظوم ويتمثل بالشعر.[3] وكتبُ الادب ملأى باخباره ؛ فمن نقد صائب في الشعر ، والتفات الى مواضع القوة والضعف فيه ،[4] الى التصدّي لتفضيل شاعر على شاعر ،[5] والتعرض فيمن هو اشعر الشعراء . وغريب ان ينقل الينا الرواة رواياتٍ مضطربةً عن احكام يصدرها هذا الخليفة الاديب في من هو اشعر شاعر . فقد رووا انه قال : معن اشعر الشعراء .[6] ورووا انه قال : كثير اشعر الشعراء .[7] وجرير اشعر الشعراء .[8] واشعر الناس الاقيشر .[9] ناهيك فيما روي عنه من تفضيله الاخطل ، وقوله عنه : « ان لكل قوم شاعرًا ، وان الاخطل شاعر بني امية » .[10] او قوله له : « يا اخطل اتريد ان اكتب الى الآفاق انك اشعر العرب ؟ »[11] وروى الرواة « ان عبد الرحمن بن محمد بن الاشعث كتب الى الحجاج مبتدئًا : اما بعد ، فان مثلي ومثلك ما قال القائل :

سائل مجاور جرم هل جنيت لها  حربًا تفرق بين الجيرة الخلط
ام هل دلفت بجرار له لجب  يغشى الاماعز بين السهل والغوط

هذا مثلي ومثلك ، فساحملك على اصعبه ، واريحك من مركبه . فكتب

١) ابن خلكان ١ : ٢٢٧ ٢) ابن قتيبة (ش) ٢٤٣
٣) الاصبهاني ١١ : ٩٨ و ١٧٠ وابن قتيبة (ش) ٢٥٤ ٤) الاصبهاني ١١ : ١٠٢ و ٢ : ١٩٠ و ٧ : ٥٥ و ١٨١ و ١٧٣ و ١٨ : ١٣٢ وابن قتيبة (ش) ٣٠١
٥) الاصبهاني ٧ : ١٨١ و ١١ : ١٠٢ ٦) الاصبهاني ١٠ : ١٦٧
٧) الاصبهاني ٨ : ٣٦ ٨) الاصبهاني ٧ : ٦٠
٩) الاصبهاني ١٠ : ٨٧ ١٠) الاصبهاني ٧ : ١٨١
١١) الاصبهاني ٧ : ١٧٢

الحجاج بذلك الى عبد الملك ، فكتب اليه جوابه : اما بعد ، فاني اجبت عدو الرحمن بلا حول ولا قوّة الّا بالله ، ولعمر الله لقد صدق ، وخلع سلطان الله بيمينه ، وطاعته بشماله ، وخرج من الدنيا عرياناً كما ولدته امه . ثم لم يصبر عبد الملك على ان يدع جوابه بشعر . فقال : وعلى ان مثلي ومثله ما قال الآخر :

اناة وحلماً وانتظارًا بكم غدا    فما انا بالواني ولا الضرع الغمر
اظن صروف الدهر والجهل منهم    ستحملهم مني على مركب وعر

فليت شعري أسمَا عدو الرحمن لدعائم دين الله يهدمها ، أمْ رام الخلافة ان ينالها ؟ واوشك بان يوهن الله شوكته . فاستعن بالله واعلم ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » .[1]

ومما يدل على سعة اطلاعه في الشعر ان عبد الرحمن هذا قد تمثل بشعر لوعلة الجرمي ، وان عبد الملك اجابه متمثلاً بشعر ابن وعلة — الحارث بن وعلة الجرمي — .[2] ويروى عن عبد الملك انه كان معجباً بشعر عبدالله بن جحش ، فكتب اليه يامره بالقدوم عليه ، فورد كتابه وقد توفي ، فقال بعض اهله لابنه : لو شخصت الى امير المؤمنين لعله ينفعك ، ففعل ، فاستنشده عبد الملك ابياتاً لابيه ، فلم يعرفها ، ثم استنشده غيرها ، فلم يعرفها ، ثم استنشده للمرة الثالثة ابياتاً اخرى لابيه في امرأته صهباء . قال : لا والله يا امير المؤمنين ما ارويها ، وان صهباء هذه لأمي . قال عبد الملك : ولا عليك ، قد يبغض الرجل ان يشبّب بامّه ، ولكن اذا نسب بها غير ابيه ، فافٍّ لك ! ورحم الله اباك ، فقد ضيّعت ادبه ، وعقله اذ لم ترو شعره ، اخرج ! فلا شيء لك عندنا .[3]

وقد كان عبد الملك يشجع الشعراء فيمنحهم الجوائز ، واخباره في هذا الباب اكثر من ان تحصر هنا . وقد كثرت عليه وفود الشعراء ، وكان يقول انه ما من شاعر الّا وقد سبق الينا من شعره قبل رؤيته .[4] وكان يتذاكر الادب مع جلسائه على مائدته ، رووا انه وقف على مائدته فقال : من القائل اذا الارطى توسد ابرديه ؟ الخ . وما معناه ؟ ومن اجاب فيه اجزناه .[5]

١) الاصبهاني ١٩ : ١٤٠    ٢) الاصبهاني ١٩ : ١٤٠    ٣) الاصبهاني ١٧ : ١٢٠
٤) ابن قتيبة (ش) ٤٦٠ ويروي ابو الفرج هذا الامر عن يزيد بن معاوية الاصبهاني ٧ : ٥٢
٥) الاصبهاني ٨ : ١٠٧

## في ظل معاوية وعبد الملك

ولقد كان لعهد الرخاء والطمأنينة الذي تلا عهد حروب عبد الملك مع الثائرين اثر كبير في تكييف هذه الحياة الادبية ورواج سوقها ، حتى انك لتقرأ في الاغاني وغيره من كتب الادب عن الادب في تلك الحقبة الاخيرة من عهد عبد الملك ما لا نستطيع حصره هنا . وكذلك قل عن آخر عصر معاوية بعد حربه مع علي ، ومصالحته مع الحسن ، فقد اسس دعائم ملك جديد ثبت به سطوة بني امية ، واتاح للامة العربية ان تستريح نحو عشرين عاماً في ظلّه كانت من خير الحقب انتاجاً في الشعر العربي .

## سائر الخلفاء

ولو مضينا نتتبع اخبار سائر الخلفاء من بني امية لرأينا ان اكثرهم كانوا يشجعون الشعر ، ويحبّون الأدب ، حتى روى ابو الفرج ان كثيّراً كان يفد على الخلفاء ، فيلقي عليهم بيوت الشعر ، ويسألهم عن المعاني ، فكانوا يشتهونه منه ويسألونه اياه[1] . وتناشد الاخطل وجرير عند عبد الملك ، فانشد الاخطل كلمة عمرو بن كلثوم التغلبي : « الا هبي بصحنك فاصبحينا »

قالوا : فتحرّك الوليد ، وقال لجرير : مِر يا جرير . يريد قصيدة اوس بن مغراء السعديّ : « ماذا يهيجك من ربع بفيحانا »[2] .

وقد استمالوا اليهم اكثر الشعراء ، وادنوهم منهم ، وجعلوا بعضهم شعراء بلاطهم . نذكر من هؤلاء الوليد بن عبد الملك ، وسليمان بن عبد الملك ، ويزيد ابن عبد الملك ، وهشام بن عبد الملك ، بل كان من المتأخرين منهم من نبغ في الشعر ، لاسيما في الخمريّات ، كالوليد بن يزيد .

وقد كان لرغبة هؤلاء الخلفاء في قرض الشعر ، او سماعه ، وقدرتهم على فهمه ونقده ، وتقديرهم اياه قدره ، وتشجيعهم الشعراء ، ورعايتهم لهم ، واحسانهم اليهم باجزل العطاء ، كان لهذا كله اثر كبير في تقدّم الشعر ، ورواجه ، وانتشاره ، واقبال عامة الناس عليه .

---

١) الاصبهاني ٨ : ١٠٨ ٢) ابن سلام ١١٠–١١١

## الشعر عند الامراء والقواد والولاة

واعتبر ذلك في الامراء والقواد والولاة فقد كانوا في الغالب يقلدون خلفاءهم في تشجيع الشعراء ، واسباغ النعم عليهم ، ورعاية الادب ، ولم ينقصهم ان يكون منهم ادباء كبشر بن مروان ، ومسلمة بن عبد الملك ، والحجاج بن يوسف ، وخالد القسري ، والحارث بن خالد المخزومي ، وسبّة بن عقال ، وزياد ابن ابيه ، وغيرهم من القوّاد والولاة . او كعبد الله بن جعفر ، وعبد الله بن عباس ، وابن ابي عتيق ، وغيرهم من الاشراف . والرواة يحدثوننا ان جريرًا كان شاعر الحجاج قبل ان يفد على عبد الملك.[1] وان الحجاج استدعاه ذات ليلة ، وسأله ان يقص عليه اخبار خصومته مع الشعراء ، فقضى معه الليل كله ينشده الى الصباح شعر مَن هجوه ، ثم يذكر له رده عليهم ، راوياً له سبب المهاجاة بينه وبينهم .[2] وهم يحدثوننا ان الحجاج فرض لاياس بن حصين ثلثماية درهم في السنة لقاء حسن رأيه في امر محاربة بعض الخوارج ، فقال إياس شعرًا في ذلك ، فقال الحجاج حين بلغه شعره : افرضوا له في الشرفِ . ففرضوا في الفي درهم ، وهي درجة اهل الشرف.[3] وهم يحدثوننا ايضاً ان بشر بن مروان كان شاعرًا ناسباً من اهل الادب والعلم ، واصحاب الاخبار ورواية الاشعار .[4] وانه كان جدّ مولعٍ في ان يوقد الخصومة بين هؤلاء الشعراء ويغري بينهم .[5] روى ابو الفرج ان بشرا ارسل الى جرير قصيدة مكتوبة لسراقة البارقي ، وامر الرسول ان لا يبرح حتى يجيب جرير عنها ، وقال انه مكث ليلة يجتهد ان يقول شيئاً فلا يمكنه ، حتى اوحى اليه شيطانه ان يقول :

يا بشرُ حقّ لوجهك التبشير  هلّا قضيت لنا وانت اميرُ

وفيها يقول :

قد كان حقك ان تقول لبارقٍ  يا آل بارقَ فيم سُبّ جريرُ
يعطي النساء مهورهن كرامةً  ونساء بارقَ ما لهن مهورُ

---

١) الاصبهاني ٧ : ٤٢
٢) الاصبهاني ٧ : ٤٣-٤٩
٣) جرير والفرزدق ٢ : ٨٩٧
٤) ابن ابي حديد ٣ : ٤٧٦-٤٧٨
٥) الاصبهاني ٧ : ١٧٥ و١٨٥

وينتهي ابو الفرج في حديثه الى ان الرسول اخذ قصيدة جرير ومضى بها الى بشر ، فقرئت بالعراق ، وافحم سراقة ، ولم ينطق بعدها بشيء من مناقضته.[١]

وكانت الشعراء تزدحم بباب بشر تتفاضل فيما بينها ، وتمدحه ، فيجزل لها بالعطاء.[٢] وكان الحارث بن خالد المخزومي — والي عبد الملك على مكة — احد شعراء قريش الخمسة المعدودين.[٣] وكان عبد الله بن جعفر يحبّ الشعراء ويجزل لهم العطاء.[٤]

### الفقهاء والائمة والشعر

وكان عبد الله بن عباس الامام الكبير يحبّ الشعر . رووا عنه انه كان يجلس في المسجد ، فتتهافت عليه الناس من كل صوب وحدب ، وانه وفد عليه نافع بن الازرق وناس من الخوارج ، وهو في المسجد الحرام ، وبينما هم يسألونه عن امور الدين ، اذ اقبل عمر ابن ابي ربيعة ، في ثوبين مصبوغين موردين او ممصّرين حتى دخل وجلس ، فاقبل عليه ابن عباس فقال: انشدنا فانشده:

امن آل نعم انت غادٍ فمبكر غداة غدٍ ام رائح فمهجرُ

حتى اتى على آخرها ، فاقبل عليه نافع بن الازرق فقال : الله يا ابن عباس ! انا نضرب اليك اكباد الابل من اقاصي البلاد نسألك عن الحلال والحرام فتتثاقل عنا ، ويأتيك مترف من مترفي قريش فينشدك:

رأت رجلاً اما اذا الشمس عارضت فيخزى واما بالعشيّ فيخسر

فقال: ليس هكذا قال . قال : فكيف قال ؟ فقال: قال

رأت رجلاً اما اذا الشمس عارضت فيضحى واما بالعشيّ فيخصر

فقال: ما اراك الّا قد كنت حفظت البيت ! قال: أجلْ ! وان شئت ان انشدك القصيدة انشدتك اياها قال: فاني اشاء . فانشده القصيدة حتى اتى على آخرها.[٥]

وكان عبيد الله بن عبد الله بن عتبة احد فقهاء المدينة السبعة ، وكان اماماً

---

١) الاصبهاني ٧ : ٦٧

٢) الاصبهاني ٧ : ٤٤ و ٥٣

٣) الاصبهاني ٣ : ١٠١

٤) الاصبهاني ٤ : ١٥٨ و ١٥٩ و ١٦٠ و ٨ : ١٠٦

٥) الاصبهاني ١ : ٣٤

كبيرًا نقل الفقه والحديث عن جماعة من وجوه الصحابة ، وروي عنه ، قال الزهري : سمعت من العلم شيئاً كثيرًا فلما لقيت عبيد الله بن عبد الله كاني كنت في شعب من الشعاب فوقعت في الوادي.[١] وكان مع ذلك شاعرًا روى له ابو الفرج قصائد كثيرة . وقد قيل له: أتقول الشعر في فضلك ونسكك؟ قال: ان المصدور اذا نفث برأ.[٢]

وكان عروة بن اذنيــة من النساك ونظم الشعر.[٣] واليه تنسب الابيات الغزلية التي مطلعها:

ان التي زعمت فؤادك ملّها   جعلت هواك كما جعلت هوى لها[٤]

وقد روى ابو الفرج ان ابن عائشة المغني سأل عروة ان ينظم له ابياتاً هزجاً يغني فيها ، فقال له: اجلس ! فجلس ، فقال:

سليمى اجمعت بينا   فاين تقولها اينا
وقد قالت لاتراب   لها زهر تلاقينا
تعالين فقد طاب   لنا العيش تعالينا
وغاب الكرَم الليلة   والعينُ فلا عينا
فاقبلن اليها مسرعات يتهادينا
الى مثل مهاة الرمل (م) تكسُو المجلس الزينا
تمنّين مناهن   فكنّا ما تمنينا

ورُوي ان ابن عائشة رواها ثم ضحك لما سمع قوله. تمنين مناهن ــ فكنا ما تمنينا.[٥]

وكان عبد الرحمن ابن ابي عمار الجشمي من قرّاء اهل مكة ، وكان يلقب بالقس لعبادته ، فسمع غناء سلّامة ففتن بها. وله فيها اشعار كثيرة اثبت بعضها الاصبهاني في اغانيه ، منها:

ان التي طرقتك بين ركائب   تمشي بمزهرها وانت حرامُ
لتصيد قلبك او جزاء مودّة   ان الرفيق له عليك ذمام
باتت تعللنا وتحسب اننا   في ذاك ايقاظ ونحن نيام

١) الاصبهاني ٨ : ٩٢-٩٣   ٢) الاصبهاني ٨ : ٩٥-٩٦   ٣) الاصبهاني ٢١ : ١٦٣
٤) الاصبهاني ٢١ : ١٦٥   ٥) الاصبهاني ٢١ : ١٦٦

حتى اذا سطع الضياء لناظرٍ فـاذا وذلك بيننـا احلام
قد كنت اعذل في السفاهة اهلها فاعجب لمـا تأتي به الايام
فاليوم اعذرهم واعلم انمـا سبـل الضلالة والهدى اقسام [١]

وله فيها:

الا قل لهـذا القلب هل انت مبصر وهل انت عن سلامة اليوم مقصرُ
الا ليت اني حيث صار بها النوى جليس لسلمى حيث ما عجّ مزهرُ
واني اذا مـا الموت زال بنفسها يزال بنفسي قبلهـا حين تقبر
اذا اخذت في الصوت كاد جليسها يطـير اليها قلبه حـين ينظر
كان حمـاما راعياً مؤدّيا اذا نطقت من صدرهـا يتغشمر [٢]

وكان سعيد بن المسيّب من فقهاء المدينـة يستمع الشعر ويفاضل بين الشعراء.[٣] ورووا عنه انـه كان كثير الانشاد والاستنشاد للشعر في المسجد وكان يفخر بصاحبنا عمر ويحفظ شيئاً من شعره.[٤]

وانشد عمر رأيته طلحة بن عبد الله بن عوف الزهري، وهو راكب، فوقف، وما زال شانقاً ناقته حتى كتبت له.[٥]

وترى انه حتى الفقهاء والمحدثين واصحاب العلوم الدينية كانوا مولعين بهذا الادب، يحبّونه، ويستلذون سماع الشعر وينظمونه، وهم بالوقت نفسه على صلة مع هؤلاء الشعراء يستمعون اليهم، ويستنشدونهم.

### الشعر عند عامة الناس

واذا اعتبرنا هذه الحياة عند عامة الناس في ذلك العصر ألفينا رواجاً لسوق هذا الشعر يضيق نطاق بحثنـا عن حصره او وصفه. ولو لم يطغ سيل هؤلاء الشعراء السياسيين الهجائـين كجرير والاخطل والفرزدق فيغمر اكثر الشعراء من معاصريهم حتى يكاد يخمل ذكرهم لكنّا سمعنا بشهرة المئات منهم؛ ومع ذلك فقد لمع الى جانب اسماء هؤلاء الهجائين اسماء شعراء لا يقلون عنهم قدرة او شهرة في الابواب التي طرقوها واختصوا بها. منهم من حاول جرير او الفرزدق

١) الاصبهاني ٨: ٦–٧
٢) الاصبهاني ٨: ٩
٣) الاصبهاني ١: ٥٠ وانظر ابن سلّام ١٠٢
٤) الاصبهاني ١: ٥٠
٥) الاصبهاني ١: ٣٨

او الاخطل تقليدهم فيها، حتى الشعر الهجائي فقد لمع فيه غير هؤلاء نفر كثير. وروى الرواة انه تصدى لجرير حول الاربعين شاعرًا يهجونه، وذكروا ان الحجاج استدعاه ليقص عليه اخبارهم واشعارهم فقضى الليل كله في امرهم.[١]

وروى ابن سلّام في طبقاته، وابن قتيبة في كتابه الشعر والشعراء، وابو الفرج في اغانيه، وغيرهم، لشعراء اسلاميين عاشوا في العصر الاموي يعدّون بالمئات. وترجم الاستاذ جرجي زيدان في كتابه تاريخ آداب اللغة العربية لاكثر من مئة شاعر عاشوا في الستين سنة الاخيرة من القرن الاول للهجرة.[٢]

وتغلغل الشعر في صفوف عامة الناس من مختلف الطبقات، رجالًا ونساء. وعقدوا له الحلقات والمجالس في مختلف المواضع التي كانوا يجتمعون فيها، وفي شتى المناسبات، فتناشدوه في المساجد، ولهوا بسماعه في رحلاتهم واسفارهم، ومواسم حجهم ومتنزّهاتهم[٣]، حتى كانت تعقد له كما رأينا حلقات خاصة في العقيق، وتناشدوه في الاسواق العامّة على النهج الذي كانوا ينهجون في جاهليتهم، فكانوا اذا هدأوا من الحروب والثورات والفتن، واستقرّوا في اوطانهم — جديدةً كانت او قديمة — عادوا الى عهدهم. ولقد مرّ معنا كثير من اخبار حياتهم الادبية في ابحاثنا عن مواسم الحج، والعقيق، وحفلات الغناء في الحجاز، فلتراجع هناك؛ ولنلتفت هنا الى موضع خاص في العراق، هو مربد البصرة، فلعلّه اولى ما يجذب انظارنا في هذا الباب.

## المربد

المربد محلّة في البصرة، والاغلب انها كانت موضع سوق الابل[٤]، ثم صارت سوق ادب اهل العراق، فكان الشعراء يجتمعون في ساحته يتنافرون

١) الاصبهاني ٧: ٤٣-٤٩ ٢) زيدان (I) ١: ٢٤٩-٢٠٨

٣) راجع الاصبهاني ١: ٢٤ و ٥٠ و ٢: ١٢٨ و ٦: ٨٧ و ٧: ٥٥-٥٦، ١٧٨ و ١٧: ١٢٠ والمبرد ١: ٢٨٥

٤) ياقوت ٤: ٤٨٤ وفيه: «ومربد البصرة من اشهر محالها، وكان يكون سوق الابل فيه قديمًا، ثم صار محلّةً عظيمة سكنها الناس؛ وبه كانت مفاخرات الشعراء ومجالس الخطباء». وراجع ايضًا جرير والفرزدق ٢: ٦٠٧

ويتهاجون ويتفاخرون ، وكان يحضر مجالسهم هذه جماهير من الناس تستمع الى اقوالهم ، كما نستمع في هذا العصر الى شعرائنا وخطبائنا في الحفلات العامة . وكان المستمعون ينقسمون فيما بينهم ، فيميل فريق مع شاعر مثلاً ، ويميل الفريق الآخر مع شاعر آخر . وقد يجوز ان يكون بينهم شعراء فيعينون احد المتبارين او المتهاجين على خصومه[١].

ولعلّ اول حفل كبير شهدته ساحة المربد كان ذاك الذي حشدت فيه الناس بعد قتل عثمان ، ومبايعة علي ، وقيام عائشة وطلحة والزبير واعوانهم على الخليفة . فالطبري يحدثنا ان هؤلاء خرجوا يطلبون البصرة حتى انتهوا الى المربد ، فخرج من اهل البصرة نفر عظيم اجتمعوا بالمربد ، وجعلوا يثوبون حتى غصّ بالناس . وهنا يقف طلحة خطيباً ، فيذكر سبب قيامه على عليّ ، ثم يعقبه الزبير فيتكلم بمثل كلام طلحة ، وينقسم السامعون ، فقسم يحبذ ، وقسم يسخط ، وميمنة تناصر ، وميسرة تنكر ، ويتحاثى الناس ويتحاصبون ، وانهم لكذلك اذا بصوت عائشة - وكانت جهوريّةً - يعلو ، واذا بها تخطب في القوم ، فتستميل فريقاً فيصدّقها ويناصرها ، ويأبى فريق تصديقها ، ويتحاثون ويتحاصبون .[٢]

ثم لما قويت الخصومة في العراق بين القيسية واليمنية ، وبين ربيعة ومضر ، ولمّا اشتد النزاع الادبي بين شعراء العراق الهجائين كجرير والفرزدق والراعي وعمر بن لجأ وزياد الاعجم وغيرهم ، صار المربد الساحة الخاصة التي يجتمع فيها الناس ليستمعوا شعر هؤلاء الهجائين . فكان للشعراء مجالس خاصة في ساحة هذا السوق الادبي وحلقات خاصة ينشدون فيها اشعارهم ، ويجلس الناس حولهم يستمعون اليها[٣] . والرواة يحدثوننا انه عندما أهان الراعي وابنه جريراً غضب هذا ، فما زال ليلته تلك حتى قالها ثمانين بيتاً ، ثم اصبح حتى اذا عرف ان الناس قد جلسوا في مجالسهم بالمربد ، وكان يعرف مجلس الراعي ومجلس الفرزدق ،

---

١) الاصبهاني ٤: ١٢٣
٢) الطبري I: ٣١١٨–٣١٣٠
٣) الاصبهاني ٢٠: ١٦٩–١٧٠

غدا عليهم كما سيجيء معنا وانشد رائيته المشهورة.[1]

وربما رغب بعض الشعراء ان يظهر بزي خاص وهيئة تجذب اليه التفات الناس، فقد رووا ان الفرزدق غدا ذات يوم وعليه ثياب وشي من ديباج وخزّ، وفي يده سوار، وجلس في مجلسه؛ وبلغ جريرًا امر الفرزدق ولبسه، فذهب فلبس درعاً وسلاحاً تاماً، ثم قصد عبّاد بن الحصين فحمله على فرس عتيق له يقال له المنجاز، واقبل في اربعين فارساً من بني يربوع، واخذ موضعه في ذلك السوق. واخذت الناس تحتشد حول هذين الشاعرين يستمعون الى اشعارهما، واخذ البعض يسعى بها فيما بينهما، وبلغ الفرزدق لبس جرير السلاح فقال:

عجبت لراعي الضان في حطمية وفي الدرع عبد قد اصيبت مقاتله

قال بعض الناس معه، ثم سمع جرير قول الفرزدق فيه فردّ يقول:

لبست سلاحي والفرزدق لعبة عليه وشاحا كرّج وجلاجله[2]

وخرج العجاج الراجز مرة محتفلًا عليه جبة خز وعمامة خزّ على ناقة له قد اجاد رحلها حتى وقف بالمربد، والناس مجتمعون، فانشدهم قوله:

« قد جبر الدين الاله فجبر»

فذكر فيها ربيعة وهجاهم، وسمعه رجل من بكر فاسرع الى ابي النجم الراجز، وهو في بيته، وقال له: « انت جالس والعجاج يهجونا بالمربد؟ قال: صف لي حاله وزيّه الذي هو فيه، فوصفهما له، فقال: ابغني جملًا طحاناً قد كثر عليه من الهناء، فجاء به اليه، فاخذ سراويل له فجعل احدى رجليه فيها واتزر بالاخرى، وركب الجمل ودفع خطامه الى من يقوده حتى اتى المربد، فلما دنا من العجاج قال لقائد الجمل: اخلع خطامه! فخلعه، وانشد:

« تذكر القلب وجهلًا ما ذكر»

واقترب منه، فجعل العجاج يتباعد عنه لئلا يفسد ثيابه ورحله بالقطران، واستمر في الانشاد حتى بلغ الى شطر من رجزه اعجب الناس فتعلقوه، وهرب

---

١) الاصبهاني ٧: ٥٠

٢) الاصبهاني ٧: ٧١ وجرير والفرزدق ١: ٢٢٠ و٢: ٦٢٤ و ٦٥٠ و٦٨٣ و٨٤٤

العجاج عنه[1].

ولعلّ اكثر ما كان ينشد في المربد انما هو شعر المفاخرة والمهاجاة ، والرواة يحدثوننا ان زياد الاعجم قصد الى المربد واجتمعت حوله الناس تستمع شعره ، فلقيه الفرزدق يوماً فيه ، وحاول ان يهجوه ، فاستوهبه نفسه ، فسكت الفرزدق وعاد زياد الى بيته ، ثم بعث الى الفرزدق بابيات يهجوه فيها زعموا انه اسكت الفرزدق بعدها[2].

وهم يحدثوننا ان بعضهم رأى جريرًا واقفاً بالمربد وقد ركبه الناس وازدحموا حوله ، وعمر بن لجأ موافقه ، وهما يتعارضان الشعر[3].

وفي بعض الروايات ان جريرا توافق مرة والفرزدق بالمربد للهجاء. فاقتتلت بنو يربوع وبنو مجاشع[4].

ويظهر ان بعض الولاة كان يخشى شر عاقبة هذه المهاجاة بين هذين الشاعرين الكبيرين كما يُرى ، فيسعى لمنعهما ، او يقتص منهما ، وقد ذكروا انه لما حمي وطيس المهاجاة مرةً بينهما ، وهما في المربد ، ارسل الحارث ابن ابي ربيعة عامل ابن الزبير على البصرة الى الدارين اللتين كانا ينزلانهما فشعث منهما لينتهي الشاعران . وقد عاتب الفرزدقُ الحارث هذا لتهديمه داره فقال:

احارث داري مرتين هدمتها وانت ابن اخت لا تخاف غوائله (٥

واجتمعا في المربد مرةً فطلبهما الوالي ، ففرّ الفرزدق وخلّف امراته نوارًا ، وبقي جرير ، فأُخذ وسجن ، واخذت امرأة الفرزدق وسجنت ايضاً[6].

ولم يقتصر شعر المربد على الهجاء ، فقد أُنشد فيه غير الهجاء ، وقد روى بعضهم انه رأى ذا الرمّة فيه ، وعليه جماعة مجتمعة ، وهو قائم وعليه برد قيمته مئتا دينار ، وهو ينشد ودموعه تجري على لحيته : « ما بال عينيك منها الماء ينسكب » وهي قصيدته التي قال جرير فيها: ان شيطانه كان له فيها ناصحاً[7].

١) الاصبهاني ٩ : ٧٨-٧٩
٢) الاصبهاني ١٦ : ١٠٧-١٠٨
٣) الاصبهاني ١٩ : ٢٢
٤) الاصبهاني ٣ : ٧٦
٥) جرير والفرزدق ٢ : ٦٨٢
٦) جرير والفرزدق ١ : ١٦٦
٧) الاصبهاني ١٦ : ١١٨

وقد رُوي ايضاً عن بعضهم انه انشد في المربد مرثيةً له في طلحة الطلحات.[١]

وهكذا ، فقد كان هذا المربد في عصر صاحبنا يزخر بالشعراء فتزدحم فيه الناس ويغدون عليه كل يوم فيما يروون.[٢] فانتج ادباً خاصاً غلبت فيه الصبغة الخصومية ، وكان من ابرز الآثار التي تخلفت لنا منه بعض نقائض جرير والفرزدق.

## الشعر واهل الصناعات

واستطاع الشعر ان يصل الى صفوف العمّال واهل الصناعات وقد حدثنا الرواة عن بائع رطب بالبصرة كان معاصراً لجرير انه قال كنت اجمع شعر جرير واشتهي ان احفظه وارويه[٣].

وحدثونا ايضاً عن خياط اتى ذا الرمة وهو ينشد بالمربد والناس مجتمعون اليه فعرض له ونعى عليه بعض شعره وعابه فافحِم ذو الرمة وذهب ولم ينشد بعدها في المربد حتى مات الخيّاط[٤].

## الشعر عند الجند

وسار الشعر فدخل ساحات القتال ، ورافق الجند في معاركهم الحامية في مختلف البلدان التي حلّوها ، وشغل الجند به في فترات الاستراحة من الحرب . روى ابو الفرج قال :« بينا المهلب ذات يوم بفارس ، وهو يقاتل الازارقة ، اذ سمع في عسكره جلبة وصياحاً فقال : ما هذا ؟ قالوا : جماعة من العرب تحاكموا اليك في شيء ، فاذن لهم ، فقالوا : انا اختلفنا في جرير والفرزدق ، فكل فريق منا يزعم ان احدهما اشعر من الآخر ، وقد رضينا بحكم الامير، فقال : كانكم اردتم تعرضوني لهذين الكلبين فيمزقان جلدتي ؟ لا احكم بينهما ، ولكني ادلكم على من يهون عليه سؤال جرير وسؤال الفرزدق ، عليكم بالازارقة ، فانهم قوم عرب يبصرون الشعر ويقولون فيه بالحق ؛ فلما كان الغد ، خرج عبيدة بن هلال اليشكري ودعا الى المبارزة ، فخرج اليه

١) الاصبهاني ١٩ : ١٥٢ — ٢) الاصبهاني ١٩ : ١٥٢
٣) الاصبهاني ٧ : ٥٠ — ٤) الاصبهاني ١٦ : ١١٨

رجل من عسكر المهلب كان لقطري صديقاً ، فقال له : يا عبيدة سألتك الله الا اخبرتني عن شيء اسألك عنه . فقال : سل ! قال : أوَ تخبرني ؟ قال : نعم ، ان كنت اعلمه ، قال : اجرير اشعر ام الفرزدق ؟ قال : قبحك الله ! اتركت القرآن والفقه وسألتني عن الشعر ؟ قال : انا تشاجرنا في ذلك ورضينا بك . فقال : من الذي يقول :

وطوى الطراد بطونهن كأنما    طي التجار بحضرموت برودا ؟

فقال : جرير ! قال: هذا اشعر الرجلين.»[1] ونقل نكلسن هذا الخبر في كتابه عن تاريخ آداب العرب ، وعلق عليه ، فقال : ان هذا الحادث ليدلّ على ان الذوق الشعري في هذا العصر لم ينحصر في رجال الادب او في الحلقات والاوساط الادبية ، بل تعدّاه الى صفوف العامة من الناس ، فانتشر في الامة ، وسرى فيها ، فتذاكروا الشعر حتى في حروبهم واخطارها المخيفة . ويقول نكلسن : ان شيئاً مثل هذا وقع في تاريخ الاثينيّين الذين اوتوا ما لم يؤته غيرهم من اهل الغرب ، وربما شيء مثل هذا وقع في تاريخ غيرهم ايضاً ، ولكن ، يقول نكلسن : تصوروا جنودا بريطانيين يتناقشون في اشعار تنسون ويرون حول نيران معسكراتهم ![2]

ورووا ان عبيدة بن هلال هذا « كان اذا تكافّ الناس ناداهم : ليخرج اليَّ بعضكم ! فيخرج اليه فتيان من العسكر ، فيقول لهم : ايُّ احب اليكم ، اقرأ عليكم القرآن او انشدكم الشعر ؟ فيقولون له : اما القرآن فقد عرفناه مثل معرفتك ، فانشدنا ! فيقول لهم : يا فسقة ! والله قد علمت انكم تختارون الشعر على القرآن . ثم لا يزال ينشدهم ويستنشدهم حتى يملّوا ثم يفترقون.»[3]

### الشعر عند النساء

ولم يقتصر الذوق الادبي وحب الشعر على الرجال فحسب ، بل دخل الى

---

١) الاصبهاني ٧ : ٥٥ وانظر ابن سلام ٨٨ وفيه :

وطوى القياد مع الطراد بطونها    طي التجار بحضرموت برودا

٢) نكلسن ٢٣٩-٢٤٠    ٣) الاصبهاني ٦ : ٧

خدور النساء ، وضربت المرأة بسهم كبير من هذه الحياة الادبية . وكان من النساء شواعر واديبات عديدات ، نذكر منهن عائشة امرأة النبي وليلى الاخيلية وعمرة الجمحية وعائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين والثريا صاحبة عمر وغيرهن . اما عائشة امرأة النبي فقد رُوي عنها انها كانت كثيرة الرواية للشعر ، وقد قيل انها كانت تروي جميع شعر لبيد .[1] واما عمرة الجمحية فقد ذكر ابو الفرج انها كانت امرأة جزلة يجتمع اليها الرجال للمحادثة وانشاد الشعر والاخبار[2] . وكان ابو دهبل الجمحي الشاعر لا يفارق مجلسها ، فوشي به اليها ، فمنعته مجلسها وحجبته وارسلت اليه بما كره . فقال في ذاك ابياتاً ، منها :

تطاول هذا الليل ما يتبلّجُ ... واعيت غواشي عبرتي ما تفرّجُ
وبت كئيباً ما انام كانما ... خلال ضلوعي جمرة تتوهج
اخطط في ظهر الحصير كانني ... اسير يخاف القتل ولهان مفلج
فطوراً امني النفس من عمرة المنى ... وطوراً اذا ما لج بي الحزن انشج
لقد قطع الواشون ما كان بيننا ... ونحن الى ان يوصل الحبل احوج [3]

وكانت سكينة مولعةً بالادب ، محبةً للشعر ، تعقد للشعراء مجالس يفدون اليها ، ويتناشدون في حضرتها ، فتستمع اليهم ، وتنقد ما ينظمون ، وتروي بعض اشعارهم ، وتشرح فنونهم الشعرية ، وتفاضل بينهم ، ولقد أُنشدت شعراً للحارث بن خالد المخزومي فنقدته ،[4] ووفد عليها جرير وانشدها شعره فنقدته ،[5] وكذلك فعلت بشعر الفرزدق[6] . وتصدّت لشعر عمر فاثنت على صاحبه في كثير من المواقف .[7] واجتمعت مع نسوة ذكرنه وتذاكرن شعره وظرفه وحسن مجلسه وحديثه ، وسعت فاتت به اليهن ، فحدثهن وقال بذلك شعراً حمله رسوله اليهن فانشد سكينة اياه ، فجمعت النساء مرةً ثانية ، وانشدتهن الشعر ، وسألت الرسول ، وهو المغني الغريض ، ان يغنيهنّ فيه ، فغناهن

---

١) ابن رشيق ١ : ١١
٢) الاصبهاني ٦ : ١٥٤ وفيه من الحادثة ولعلّها للمحادثة كما اثبتناها
٣) الاصبهاني ٦ : ١٥٦
٤) الاصبهاني ٣ : ١٠٧
٥) الاصبهاني ٧ : ٥٢
٦) الاصبهاني ٧ : ٥٢
٧) الاصبهاني ٢ : ١٣٦

واحسنت جائزته.[١] وعقدت مجلساً خاصاً لجرير والفرزدق وكثير وجميل ونصيب، ثم اخرجت وصيفة لها وضيئة قد روت الاشعار والاحاديث، فاخذت تناقشهم في اشعارهم واحداً واحداً، ثم اجزلت صلاتهم وصرفتهم.[٢] واحتكم اليها رواة كثيّر وجرير ونصيب والاحوص في اي اصحابهم اشعر لما يعرفونه من عقلها وبصرها بالشعر، ففاضلت بينهم بحذق ومهارة واصدرت حكمها.[٣]

وقد روى ابن رشيق ان جدتها فاطمة كانت تقول الشعر وانه رُويت لها اشعار كثيرة.[٤]

وكانت عائشة بنت طلحة اديبة يجلس اليها الشعراء، وقد انشدها ابو عمرو قصيدة قيس بن الحدادية «اجدك ان نعم نأت انت جازع» وكان بحضرتها جماعة من الشعراء. فقالت: من قدر منكم ان يزيد فيها بيتاً واحداً يشبهها ويدخل في معناها فله حلتي هذه، فلم يقدر احد منهم على ذلك.[٥] وكانت تتمثل ببعض شعر عمر وتحفظه، وقد لقيها مرة في مكة وهي تسير على بغلتها فاوقفها وانشدها شعره فيها.[٦] ورووا انه كان بينها وبين زوجها عمر بن عبد الله بن معمر كلام، فسهرت ليلة فقالت: ان ابن ابي ربيعة لجاهل بليلتي هذه حيث يقول:

ووال كفاها كل شي يهمها   فليست لشيء آخر الليل تسهر[٧]

وعلى شيء من هذا كانت ميّ صاحبة ذي الرمة،[٨] والثريا صاحبة عمر،[٩] وكلثم بنت سعد المخزومية[١٠] واخت يزيد بن الطثرية وقد روى لها الجاحظ شعراً.[١١]

ويقص ابو الفرج علينا اخباراً عن حميدة بنت النعمان بن بشير الانصاري ان صحت فانها تدلّ على ان هذه الامرأة كانت شاعرة هجّاءة كادت تفحم كثيراً

---

١) الاصبهاني ٢: ١٣٦
٢) الاصبهاني ١٤: ١٧٣
٣) الاصبهاني ١٤: ١٧٤–١٧٥
٤) ابن رشيق ١: ١٦
٥) الاصبهاني ١٣: ٧
٦) الاصبهاني ١: ٨١
٧) الاصبهاني ١: ٢٨–٢٩
٨) الاصبهاني ١٦: ١٣٠
٩) الاصبهاني ١: ٨٦و٨٨
١٠) الاصبهاني ١: ٨٢
١١) الجاحظ (ب) ١: ٨٩

من الرجال[1].

وكان كثيرات غير هؤلاء يتفقهن الشعر ، وينظرن في امره ، فقد رووا ان قطاماً صاحبة ابن ملجم وفد عليها كثير يريد ان يراها ، فانكرها ، ويقال انه انشدها فانكرت شعره واعابته ونقدته وارته موضع الضعف في معانيه.[2]

وماذا اكثر من هذا ؟ لقد روى ابو الفرج خبراً عن نساء كن يتناشدن الشعر في المسجد الحرام فيتذاكرن الشعراء ويروين لهم ، ويقول راوي الخبر : واذا هن افصح النساء وآدبهن.[3]

وروي عن الفرزدق انه نزل ضيفاً على قوم ، فاتتهم جارية تزورهم ، فسألت عن الضيف وعدلت اليه واستعلمت عن نسبه ، فقال : من بني نهشل ، فتبسمت ، وقالت : انت اذن ممن عناه الفرزدق بقوله :

ان الذي سمك السماء بنى لنا  بيتاً دعائمه اعز واطول
بيتاً بناه لنا المليك وما بنى  ملك السماء فانه لا ينقل
بيتاً زرارة محتبٍ بفنائه  ومجاشع وابو الفوارس نهشلُ

قال ، فقلت : نعم جعلت فداك . واعجبني ما سمعت منها ، فضحكت وقالت : فان ابن الخطفي قد هدم عليكم بيتكم هذا الذي فخرتم به حيث يقول :

اخزى الذي رفع السماء مجاشعاً  وبنى بناءك بالحضيض الاسفل
بيتاً يحمم قينكم بفنائه  دنساً مقاعده خبيث المدخل[4]

حتى الاماء كنّ يتعاطين الشعر او ينظمنه ، والرواة يحدثوننا ان سلامة المغنية ، وهي من مولدات المدينة ، كانت تقول الشعر ، وان حبابة رفيقتها كانت تتعاطاه فلا تحسن[5]. وانه كان عند يزيد بن عبد الملك غير هاتين جارية قرأت القرآن وروت الاشعار وتعلمت العربية.[6]

وهم يحدثوننا انه كانت بالمدينة مولدة سوداء ، وكانت مشغوفة بشعر عمر

١) الاصبهاني ٨ : ١٢٨-١٤٠
٢) الاصبهاني ١٤ : ٥٩
٣) الاصبهاني ١ : ١٥٠
٤) الاصبهاني ٧ : ٥٦
٥) الاصبهاني ٨ : ٦
٦) ابن عبد ربه ٣ : ٢٥٦

فلما ورد على اهل المدينة نعيه اكبروا ذلك ، واشتد عليهم ، وكانت السوداء اشدهم حزناً وتسلباً ، وجعلت لا تمر بسكة من سكك المدينة الا ندبته ، فلقيها بعض فتيان مكة فقال لها : خفضي عليك ! فقد نشأ ابن عم له يشبه شعرُه شعرَه ، فقالت : انشدني بعضه ! فانشدها قوله :

اني وما نحروا غداة منى عند الجمار تؤدها العقل

الابيات كلها . قال ، فجعلت تمسح عينيها من الدموع وتقول : الحمد لله الذي لم يضيع حرمه.[1]

## سرعة انتشار الشعر وشدة اثره

وما اسرع ما كان يسير هذا الشعر على الافواه ، وما اسرع ما كان ينتشر ويذيع في الآفاق ، فلا يكاد يفرغ من نظمه الشاعر حتى تتناقله الركبان ، وتسير به الى اقصى البقاع التي حلّتها جيوش العرب وجالياتهم .

رووا ان الراعي تعرض لجرير ففضل الفرزدق عليه ، فلقيه جرير وعاتبه في ذاك ، قال : كنت اجدر بمساعدتك من الفرزدق ، ويكفيك من ذاك اذا ذكرنا ان تقول كلاهما شاعر كريم . ومرّ ابن الراعي عليهما فضرب بغلة جرير ، وقال لابيه : لا اراك واقفاً على كلب من بني كليب كانك تخشى منه شرّاً ، او ترجو منه خيراً . وعاد جرير مغضباً ، وبات ليلته قلقاً مضطرباً يمارس نظم قصيدة يهجو به الراعي ، حتى كان السحر فاذا هو يكبّر قد قالها ثمانين بيتاً كتبها في كتفٍ وختمها بقوله :

فغضّ الطرف انك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلابا

ثم قال : اخزيته وربّ الكعبة ! وغدا في الصباح الى المربد ينشدها فيه امام الفرزدق والراعي ، حتى اذا فرغ منها ، عاد وقد ترك الراعي يضطرب غيظاً فيخلي المجلس ويأتي منزل اصحابه فيقول : ركابكم ركابكم ! فليس لكم ههنا مقام ، فضحكم والله جرير . وساروا من ساعتهم يقصدون ديارهم مخزيين ، فوجدوا ابيات جرير قد بلغت الى اهلهم وذاع قوله فيهم :

---

١) الاصبهاني ٣:١١٤

فغضّ الطرف انك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلابا

وظنّوا ان لجرير اشياعاً من الجن.[١]

والعرب تسمي هذه القصيدة الفاضحة ، وقيل سمّاها جرير الدمّاغة[٢].

وزعموا ان جريراً قال بعد ان فرغ من نظمها واطفأ سراجه : قد والله اخزيتهم آخر الدهر. قال ابن رشيق : فلم يرفعوا رأساً بعدها الا نكس بهذا البيت[٣].

وقال ابن رشيق : « ومن هنا عظم الشعر ، وتهيب اهله خوفاً من بيت سائر تحدي به الابل، او لفظة شاردة يضرب بها المثل، ورجاء في مثل ذلك ، فقد رفع كثيراً من الناس ما قيل فيهم من الشعر بعد الخمول والاطراح حتى افتخروا بما كانوا يعيرون به ، ووضع جماعة من اهل السوابق والاقدار الشريفة حتى عيروا بما كانوا يفتخرون به.»[٤]

وتهاجى جرير والتيمي فورد شعرهما على الحجاز ، قالوا : ان سعيد بن المسيب سأل عبد الرحمن بن حرملة ان ينشده شيئاً مما قالاه ، فاقبل عليه بوجهه، فانشده قصيدة التيمي وهو يقول : هيه ! هيه ! ثم انشده ردّ جرير فقال : اكله ! اكله ![٥]

وهجا الفرزدق جريراً في قصيدة ذكر فيها ان شعره في جرير سار في الآفاق قال :

تغنّى يا جريرُ لغير شيء وقد ذهب القصائد للرواةِ
فكيف تَرُدُّ ما بعُمان منها وما بجبال مصرَ مشهّراتِ[٦]

ورثى جرير امرأته بقصيدة مطلعها :

لولا الحياء لعادني استعبار ولزرت قبرك والحبيب يزار

فذاعت وذهبت في البلاد ، وكان جرير يسميها الجوساء.[٧]

وكان شعراء الحجاز ينظمون اشعارهم في الحجاز فتذيع في الافاق ، وتصل

---

١) الاصبهاني ٧ : ٥٠ و ٢٠ : ١٦٩-١٧٠ ٢) ابن رشيق ١ : ٢٦
٣) ابن رشيق ١ : ٢٦ ٤) ابن رشيق ١ : ٢٤
٥) ابن سلام ١٠٢ ٦) جرير والفرزدق ٢ : ٧٧٤
٧) جرير والفرزدق ٢ : ٨٤٧

الى مسامع الخلفاء بدمشق قبل ان يفدوا على الخلفاء[1] . ولقد نظم ابن ابي ربيعة رائيته المشهورة فوصلت الشام ، حتى اذا كان عام وقعة الحرة ، واستعرض يزيد جيشه ، رأى بينهم جندياً يحمل ترساً خرقا فقال له : يا هذا ، مجن ابن ابي ربيعة خير من ترسك . يشير الى قول عمر في رائيته :

وكان مجني دون من كنت اتقي ثلاث شخوص كاعبان ومعصرُ[2]

ونظم عمر ابياته في زينب بنت موسى الجمحي :

يا خليلي من ملام دعاني والمّا الغداة بالاظعانِ
لا تلوما في آل زينب ان الـ ـقلب رهن بآل زينبَ عانِ

فبلغت ابا وداعة السهمي في سمرقند ، فانكرها وغضب[3] . ونصح الحارث اخاه عمرَ ان يرتحل الى اليمن ويهجر الشعر ، فسار ثم ما لبث ان عاودته هواجسه فحنّ الى قرض الشعر ، وطرب يوماً فقال :

هيهات من امة الوهاب منزلنا اذا حللنا بسيف البحر من عدن

قالوا : فسارت الابيات حتى سمعها اخوه الحارث فقال : هذا والله شعر عمر ، قد فتك وغدر[4] .

## الخصومة الادبية

اما الظاهرة الثالثة فهي الخصومة الادبية بنواحيها المختلفة ، ولقد المحنا الى شيء منها في بحثنا عن المربد . ولعله لم يكن في تاريخ الادب العربي — في جاهلية او اسلام — عصر قويت فيه هذه الخصومة واشتدّت فانتجت ادباً ذا صبغة خاصة كهذا العصر الذي نحاول تصويره . ولقد كاد شعراء هذا الادب الخصومي يطغون على سائر الشعراء في عصرهم فيخملون ذكرهم .

## اوار النزاع

ونحن نعلم ان الخصومات كانت قوية قبل الاسلام ، وان النزاع بين القبائل كان شديداً في الجاهلية ، وان شعراء هذه القبائل كانت تتهاجى وتتفاخر

١) ابن قتيبة (ش) ٤٦٠ والاصبهاني ٧ : ٥٢ ٢) المبرد ١ : ٢٨٥
٣) الاصبهاني ١ : ٤٤ ٤) الاصبهاني ١ : ٤٦

وتعارض الشعر بعضها مع بعض ، ثم نحن نعلم ان الاسلام حاول محو هذه العصبيّة وقهر هذه الروح ، غير انه لم يستطع ان يقضي عليها القضاء كله ، ولم يكن من اليسير على الخلفاء الراشدين الأول ، او على ولاتهم ، تغيير خلق العربي — وهو قريب عهد بجاهليته — الى حدّ كبير ، او تكليفه اتباع نظم لم تالفها طبيعته البعيدة كل البعد عن النظم والسلطان ، فنتج عن هذا ان بعض هذه العصبيات بقي ظاهرًا حيناً وكامناً حيناً آخر ، حتى اذا كانت الفتنة الاولى ، وظهر الصدع في صفوف الامة العربية ، وانقسم المسلمون شيعاً واحزاباً ، وتحوّلت الخلافة الى ملك ، وانتقل مركزها الى الشام ، قويت هذه الخصومات . وعادت العصبية القبلية فشطرت العرب يمنيين وقيسيّين ، وشطرت اهل الشمال الى ربيعة ومضر ، وظهرت عصبية اقليمية قسمتهم الى شاميين ومصريين وحجازيين وعراقيين ، ونشأت احزاب دينية وسياسية شايع بعضها علياً وبعضها الاخر غيره .

فمن امويين الى علويين الى زبيريين الى خوارج الى توّابين الى مهديّين وغيرهم ، والتف هؤلاء حول زعماء من ملوك وامراء واشراف لعبوا دورًا كبيرًا في سياسة ذلك العصر كمعاوية وعلي ويزيد والحسين ومروان وعبد الملك وعبدالله بن الزبير ومصعب اخيه والمختار وقطري بن الفجاءة ونافع بن الازرق وزياد والحجاج وغيرهم ، واطل على الثرى في سبيل هذا النزاع دم العرب في ميادين الشام والعراق والحجاز .

وكان في الغالب لكل حزبٍ او قبيلةٍ او بلدٍ او شيعةٍ او أميرٍ او خليفة شاعرٌ او شعراء يذودون عن الحياض ويردّون على الخصوم ، فكان بعض شعراء قيس مثلاً يشايعون آل الزبير ، بينما كان نفرٌ من شعراء القبائل اليمنية يشايعون بني امية ويدافعون عن مذهبهم وجماعتهم ، وقد رووا انه صمد لألفي رجل من جند بني اميّة ، كان ابن زياد عبأهم ، نحو اربعين من الخوارج ، من اصحاب مرداس ، فغلب الخوارج جند ابن زياد وهزموهم ، وكان جماعة بني اميّة يذيعون ان الخوارج قوم كفّار ، فقال شاعر الخوارج يردّ عليهم بعد هذه الواقعة :

أألفا مؤمن فيا زعمتم ويهزمهم بآسك اربعونا ؟

كذبتم ليس ذاك كما زعمتم ولكن الخوارج مؤمنونا
هم الفئة القليلة غير شك على الفئة الكثيرة ينصرونا(١

وكان شعراء قيس يذكرون انتصارات قيس في معاركهم مع اليمنيين ، فيرد عليهم شعراء اليمن ، او تفتخر ربيعة ، فتعارضها مضر ، وكان للشيعة شعراء كالكميت وكثيّر وكانوا يدافعون عن مذهبهم .

اضف الى هذا ان القبائل العربية كانت في الغالب تلتف بعضها مع بعض في القطر الواحد ، فقويت اليمنية في الشام ، والقيسية بالعراق ، ونتج عن ذلك في نفوسهم نزعة اقليمية للاقطار التي حلّوا فيها ، او ان شئت فقل قويت العصبية الاقليمية ، بحيث صرنا نرى ان هؤلاء العرب النازحين الى هذه الاقطار الجديدة اخذوا يشعرون بشيء كثير من العطف والمحبة الى هذه الاقطار ، بل قل بشيء من الاحساس في انها اوطانهم التي اليها يجب ان ينتموا ، فمنها يرتزقون ، وفيها يموتون ، واخذ العربي النازح الى دمشق يحس انه من اهل الشام ، واخذ العربي النازل في ارض الرافدين وما اليها يشعر انه من اهل العراق ، وتعلق الحجازي بحجازيته ، وازداد تعصباً لبلاده . واثّرت هذه المواطن على النازلين بها بحيث توحدوا مع اهلها — الى حدّ ما — بشيء كثير من ميولهم السياسية ، ويكفي ان نرمي نظرة عجلى على ميدان النزاع السياسي لنرى اكثر هذه النزعات الاقليمية الجديدة ، وفي الرسائل التي تبودِلت بين علي ومعاوية تصريح ظاهر لهذا الامر كما اشرنا الى ذلك من قبل . قال معاوية : « وانما كان الحجازيون هم الحكام على الناس ، والحق فيهم ، فلما فارقوه كان الحكام على الناس اهل الشام ، ولعمري ما حجتك على اهل الشام كحجتك على اهل البصرة . » واجابه علي : « واما قولك اهل الشام هم حكام الحجاز ، فهات رجلاً من قريش اهل الشام يقبل في الشورى او تحل له الخلافة ، فان سمّيت كذبك المهاجرون والانصار ، ونحن ناتيك به من قريش اهل الحجاز . »[٢] بل قد روى الطبري ان علياً خرج ليلاً يعبّي الناس يوم صفّين ، ثمّ قال : « حتى اذا اصبح زَحف بالناس ، وخرج اليه معاوية في اهل الشام ، فاخذ علي يقول : من هذه القبيلة ؟ ومن هذه

١) المبرّد ١ : ٥٨٨ ٢) ابن عبد ربه ٢ : ٢٨٤

القبيلة ؟ فنسبت له قبائل اهل الشام ، حتى اذا عرفهم ، ورأى مراكزهم ، قال للأزد : اكفوني الازد ! وقال لخثعم : اكفوني خثعم ! وامر كل قبيلة من اهل العراق ان تكفيه اختها من اهل الشام ، الّا ان تكون قبيلة ليس منها بالشام احد فيصرفها الى قبيلة أخرى تكون بالشام ليس منها بالعراق واحد ، مثل بجيلة لم يكن منهم بالشام الّا عدد قليل فصرفهم الى لخم .»[١]

ثم انظر الى الخطب المتعددة من سياسية وغيرها مما كان يفوه بها القواد والعمال في مختلف الامصار ، وبنوع خاص خطب الحجاج ويزيد بن المهلب ، ففيها ما يؤيد مذهبنا هذا.[٢]

ولمصعب بن الزبير خطبة مشهورة اقتبس اجزاءها من القرآن ، وكان عند تلاوة الآيات يشير الى اهل الشام او الى اهل الحجاز او الى اهل العراق حسبما كان يوافق غرضه وقصده . قال : « بسم الله الرحمن الرحيم. طسمَ تلكَ آياتُ الكتابِ المُبين نتلُو عليك من نبأ موسى وفرعونَ بالحقِ لقومٍ يُؤمنون * ان فرعونَ علا في الارضِ وجعلَ اهلَها شيعاً يستضعفُ طائفةً منهم يُذبّحُ ابناءهم ويستحيي نساءهم إنّهُ كان من المفسدين * ( واشار بيده نحو الشام ) ونريد ان نَمُنَّ على الذين استُضعِفُوا في الارض ونجعلَهم ائمةً ونجعلهمُ الوارثين * ( واشار بيده نحو الحجاز ) ونمكّنَ لهم في الارض ونُريَ فرعونَ وهامانَ وجنودَهما ما كانوا يحذَرُون ( واشار بيده نحو العراق ).[٣]

وكذلك ترى اثر هذه الظاهرة في خطبة عبيد الله بن زياد في اهل البصرة.[٤] وهناك خبر موجز قرأته في الاغاني لعله خير ممثل ليس للنزاع الاقليمي فحسب ، بل لاظهار هذه الاختلافات التي اوجدتها الاقاليم والبيئات ، فقد روي انه لما كان القتال بين اهل الشام والخوارج في المدينة ، وقف حجازي على سطح يرميهم بالحجارة ، فقيل له : ويلك ! اتدري من ترمي مع اختلاط الناس ؟ قال : والله ما ابالي من رميت ، انما هو شامٍ وشارٍ ، والله ما ابالي ايها قتلت.[٥]

١) الطبري I : ٢٢٨٧ ٢) الجاحظ (ب) ١ : ١٤٨ و١٥٤ و٢٠٣
٣) الجاحظ (ب) ٢ : ٢٩ وانظر القرآن – القصص – ١–٥
٤) الجاحظ (ب) ١ : ١٩٨ ٥) الاصبهاني ٢٠ : ١١٠

نتج عن هذا كله خصومة اقليمية ادبيَّة ، بحيث صار يتعارض الحجازي والعراقي او العراقي والشامي ويتعصب كلٌ لموطنه. وقد رووا عن كثيِّر انه لما وفد على عبدالملك في الشام انشده والاخطل عنده ، فقال عبد الملك: كيف ترى يا ابا مالك ؟ قال: ارى شعراً حجازياً مقروراً لو ضغطه برد الشام لاضمحلّ.[1]

## الشعراء يوقدون الفتن

وكان هؤلاء الشعراء بدورهم يوقدون الفتن السياسية وغيرها . نار تضطرم وتلتهب ، وهشيم يُلقى فيها فيزيدها لهباً واضطراماً .

رووا انه وقعت معارك بين تغلب (وهي من ربيعة) وسليم وعامر (وهما من مضر) وفتكت تغلب باعدائها ، وقتلت عمير بن حباب السلمي ، فقام الاخطل التغلبي ينشد ذلك النصر مفتخراً امام عبد الملك بن مروان ، وكان الجحاف بن حكيم السلمي حاضراً ، فقال الاخطل معترّاً :

الا سائل الجحاف هل هو ثائر　　بقتلى اصيبت من سليم وعامر

فخرج الجحاف مغضباً يجر مطرفه وجاء قومه فدعاهم للخروج معه . قال: قاتلوا عن احسابكم او موتوا،واغار بهم على بني تغلب وهم بالبشر في اطراف نجد فقتل منهم مقتلةً عظيمة ثم قال يجيب الاخطل :

ابا مالك هل لمتني اذ حضضتني　　على الثار ام هل لامني فيك لائمي
متى تدعني اخرى اجبك بمثلها　　وانت امرؤ بالحق لست بقائم[2]

## كيف يجب ان ندرس هذه الخصومة

لقد كان هذا العصر كما رأينا عصر الاحزاب والفتن ، تعددت فيه عوامل النزاع ، وكثرت عناصره ، واختلفت الوانه ، فاضطربت مذاهب الشعراء ، واختلفت طرقها في الدفاع عن نزعات اصحابها واحزابهم ، بحيث صار لا بدَّ للباحث في حياة العرب الادبية في ذلك الجيل من درس هذه الحركات على

١) ابن سلّام ١٣٢ وفي الاصبهاني ٨: ١٨٢ ان الذي قال هذا في كثيّر هو عدي بن الرقاع

٢) ياقوت ١: ٦٣٢-٦٣٣ وابن سلّام ١١١

وجهها الصحيح ، وفهم هذه النزعات المختلفة ، فقد كان هناك شعراء لا تهمهم احزابهم بقدر مايهمهم فنهم الشعري ، او بالاحرى لم يمنعهم انتماؤهم الى اوطان، او احزاب، او شيع خاصة ، ان يعرضوا لشعراء من الاوطان او الاحزاب او الشيع نفسها بشيء من الهجو او المعارضة الفنية ، بينما كانوا بالوقت نفسه ينصرون شاعرًا من غير قبيلتهم او حزبهم او مذهبهم . والرواة يحدثوننا ان الراعي قضى للفرزدق على جرير ، وان جريرًا عاتبه وقال له : ان قولك يُستمع ، وانك تفضل الفرزدق عليّ تفضيلاً قبيحاً ، وانا امدح قومك وهو يهجوهم .[١]

وروى ابن قتيبة عن الكميت قال : « وكان بينه وبين الطرماح من المودة والمخالطة ما لم يكن بين اثنين ، على تباعد ما بينهما في الدين والرأي ، لأن الكميت كان رافضياً وكان الطرماح خارجياً صفرياً ، وكان الكميت عدنانياً عصبياً وكان الطرماح قحطانياً عصبياً ، وكان الكميت متعصباً لاهل الكوفة وكان الطرماح يتعصب لاهل الشام . »[٢]

وروى راوية الكميت قال : انشدت الكميت قول الطرماح :

اذا قبضت نفس الطرماح أخلقت عرى المجد واسترخى عنان القصائد

فقال الكميت : اي والله ! وعنان الخطابة والرواية .[٣]

ولعبت سياسة بني امية دورها في تألف قلوب شعراء كثيرين من خصومهم فمدحوهم وتقربوا اليهم ، واستمال حلم بعض هؤلاء الخلفاء ودينارهم السنة الشعراء فباعوهم اياها بالاعطيات التي فرضوها لهم او منحوهم اياها من بيت المال وغيره ، فقد كان الكميت من شعراء الشيعة ولم يمنعه هذا ان يمدح بني امية وينال جوائزهم .[٤] وكان كثيّر شيعيّ الميل ايضاً ووفد على بني اميّة ونال جوائزهم .[٥] وكان شعراء مضر على العموم زبيريّة الهوى ومع ذلك وفد منهم نفر كبير على خلفاء بني اميّة ومدحوهم ونالوا جوائزهم .[٦]

١) الاصبهاني ٧ : ٤٩ ٢) ابن قتيبة (ش) ٣٦٩
٣) ابن قتيبة (ش) ٣٧١-٣٧٢ ٤) ابن قتيبة (ش) ١٨ !
٥) الاصبهاني ٨ : ١٠٨
٦) ابن سلام ١٠٠-١٠١ والاصبهاني ٤ : ١٥٩-١٦٠

اضف الى هـذا ان البيت الامويّ استند كما هو مشهور الى اليمنيين واحلافهم من تغلب ولكنهم كانوا قيسيين قرشيين ، فلم يهملوا في كثير من الاحيان تألف قيس وشعرائها ، ولم يعارضوا في نشوب النزاع الادبي بين شعراء قيس واليمن ، او قيس وربيعة ، وربما كانوا سكتوا عن كثير من تعرّض قيس لربيعة ، او لليمن بوجـه عام ، لولا تطرق بعض شعراء قيس الى ذم بني امية ، او مدح بني الزبير ، وبني هـاشم ، وغيرهم من خصوم الامويين ، وتقربهم الى هؤلاء الخصوم كيدًا للبيت الاموي ، ونكايةً بالشعراء المشايعين له .

ومن هنا نستطيع تعليل هذا التجافي من بعض خلفـاء بني امية للكثيرين من شعراء قيس ، فنفهم كيف كان عبد الملك مثلًا ثقيل النفس على الراعي يوم وفـد عليه يشكو بعض عمّاله او جباته ، ووصف له جورهم ، وظلمهم ثم يهدّده بقوله :

ولئن بقيت لأدعونّ بطعنـة تدع الفرائص بالشريف قليـلا

فقال عبدالملك : وابن من الله والسلطان لا امّ لك ! قال : يا أمير المؤمنين ، من عامل الى عامل مصدّق الى مصدّق . فسخط عليه ولم يمنحه شيئًا ، حتى اذا كان العام الثاني وفد الراعي مرة اخرى وانشد عبدالملك :

فـان رفعتَ بهم رأساً نعشتَهم وان لقوا مثلها في قابل فسدوا

فقال له عبد الملك انت العامَ اعقلُ منك عام اوّل .[1]

ونفهم السبب الذي دعا عبد الملك نفسه الى ان يلقى جريرًا بوجه غـير باش ، فلم يأذن له الّا بعد ما شفع به ابن الحجاج نيابةً عن ابيه .[2]

ونفهم سبب سخط عبد الملك ايضاً على عبيدالله بن قيس الرقيـات ، فقد كان زبيريّ الهوى ، مدح مصعباً وهجا عبد الملك ، فاهدر عبدالملك دمه ، حتى اذا قتل مصعب واخوه لاذ ابن قيس بعبد الله بن جعفر ، فتوسط له عند عبد الملك ، وتوسطت له ام البنين ايضاً فيما يزعمون ، فمنحه عبدالملك عفوه ، وقـد شرط عليه ان لا يراه ، ثم عاد فسمح له ان ينشده مدحه فيه ، فقال :

---

١) ابن سلام ١١٨ و١١٩ ٢) الاصبهاني ٧ : ٦٦

مـا نقموا من بني اميّة الّا (م) انهم يحـلمون ان غضبوا

وقال في عبد الملك:

يعتدل التـاج فوق مفرقه على جبـين كأنه الذهبُ

فقال له عبد الملك: يا ابن قيس تمدحني بالتاج كأني من العجم وتقول في مصعب:

انما مصعب شهاب من الله تجلت عن وجهه الظلماءُ
ملكه ملك عزّة ليس فيـه جبروت منه ولا كبرياءُ

اما الأمان فقد سبق لك، ولكن والله لا تأخذ مع المسلمين عطاء ابدًا.[1]

ولعلنا نستطيع ان نفهم ايضاً سبب الجفاء الذي زعم الرواة ان بعض خلفاء بني اميّة قابلوا به عمر ابن ابي ربيعة، فقد كان مخزومياً وكان بنو مخزوم زبيرية الهوى كما هو مشهور.

واستغلّ بنو امية الخصومات القبلية، فكان يشجعون شعراء القبائل التي كانت تناصرهم، فكان خالد القسري اليمني اصـلًا يحب اليمنيين ويعطف عليهم، فتعرض لهجو الكثيرين من خصومهم.[2] وكان عديّ بن الرقـاع والاخطل من المقربين للبـلاط الاموي، كما هو مشهور، بينما استطـاع الحجاج القيسي ان يكسب لهم شاعرًا من اعظم شعراء قيس، الا وهو جرير، فارسله الى عبد الملك فانشده مدائحه في الحجاج ثم انشده قصيدته فيـه التي يقول فيها:

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العـالمين بطون راح[3]

وكان الشعر الذي انتجته هذه الخصومة كثيرًا، لا سيما في هذه الفتنة التي

---

١) الاصبهاني ٤: ١٥٧–١٥٨ وابن سلاّم ١٢٧–١٢٨ ويرى الدكتور طه حسين ان ابن قيس الرقيات كان صادقاً في مدحه بني اميّة غير متلوّن ولا فاسد الضمير، وله في ذلك تعليل جميل، فليراجع في موضعه (طه حسين ٢: ٨٨)

٢) ابن سلاّم ٧٩–٨١

٣) ابن سلاّم ١٠٠

وقعت بين اليمن وقيس في العراق بعد موت معاوية ، ولقد اشرنا الى بعض هذا الانتاج في بحثنا عن المربد ، فلتراجع هنـاك . وروى ابو عبيدة اشعاراً كثيرة قيلت في تلك الحوادث ، ثم ذكر انه ترك الكثير اختصاراً منه لما فشا من قول الشعراء في ذلك قديماً وحديثاً لانه اكثر من ان يحصى.[١]

## مكانة الشعراء

وقد كان لشعراء الاحزاب مكانة ومنزلة في نفوس جماعاتهم وزعمائهم لا ينكر اثرها ، وقد رووا ان كعب بن جعيل كان شاعر تغلب ، وكان لا يأتي منهم قوماً الّا اكرموه وضربوا له قبّة ، حتى انه كانت تمد له حبال بين وتدين فتملأ له غنماً.[٢]

وكان الاخطل من اعظم المقربين للبلاط الاموي . قال رجل لابي عمرو : يا عجباً للاخطل ، نصراني كافر يهجو المسلمين . فقال ابو عمرو : يا لُكَع ! لقد كان الاخطل يجيْ وعليه جبة خزّ وحرز خز ، في عنقه سلسة ذهب فيها صليب ذهب ، تنفض لحيته خمراً حتى يدخل على عبد الملك بن مروان بغير اذن.[٣] وكان يدخل مسجد الكوفة فيقدمون اليه .[٤]

وروى ابن رشيق عن الاخطل قال : « بلغت به الحال في الشعر الى انه نادم عبد الملك بن مروان ، واركبه ظهر جرير بن عطية الخطفي ، وهو تقي مسلم ، وقيل امره بذلك بسبب شعر خايره فيه بين يديه وطول لسانه حتى قـال له مجاهراً ، لعنة الله عليه ، لا يستتر في الطعن على الدين والاستخفاف بالمسلمين :

ولست بصائم رمضـان طوعاً   ولست بآكل لحم الاضاحي »[٥]

ولم تقتصر الخصومات الحزبية والقبلية على العراق بل اخذ الحجاز بنصيب من بعضها ، فكان لبني امية اشياع فيه ، و كان بينهم شعراء منهم ابو العباس

١) جرير والفرزدق ٢ : ٧٢٧
٢) الاصبهاني ٧ : ١٧٠
٣) الاصبهاني ٧ : ١٧٧–١٧٨
٤) الاصبهاني ٧ : ١٧٩ ولعلها فيقومون
٥) ابن رشيق ١ : ٢١

الاعمى ، وكان يمدحهم ويكاتبهم ويذكر لهم عورات ابن الزبير ، وسمع به ابن الزبير فدعا به واغلظ له القول وهمَّ به ، ثم كلم فيه ، وقيل له رجل مضرور ، فعفا عنه ونفاه الى الطائف ؛ غير ان ابا العباس هجا ابن الزبير وقومه قال ابو الفرج: وله اشعار كثيرة في مديح بني امية وهجاء آل الزبير[1]. وكان من الطبيعي ان يتصدى احد اشياع آل الزبير الى الردّ على هذا الشاعر، ولكن ابن الزبير لم يتألف الشعراء ، ولم يألف العطاء ،فلم يوفق في اكتساب نفرٍ كبير منهم يدافع عن حزبه ، ولولا انه مضري لما استطاع ان يكسب هؤلاء الشعراء المضرية ، فهم دافعوا عن مضر وعن عصبيتهم القبلية اكثر مما دافعوا عن ابن الزبير وحزبه ، وقد قال الراعي القيسي لعبد الملك:

اني حلفت على يمين برّةٍ لا اكذب اليوم الخليفة قيلا
ما ان اتيت ابا خبيب وافداً يوماً اردت لبغيتي تبديلا[2]

على ان مصعباً استطاع ان يكسب رضا امثال هؤلاء الشعراء . وكانت مدائح عبيدالله بن قيس الرقيات فيه من اعظم المدائح ، حتى شعراء بني امية فانه استطاع ان يستميل بعضهم فيسكته عن هجوه او ربما حمله على مدحه ، ويقال انه حمل ابا العباس الاعمى الذي ذكرناه على ان يمدحه حياً وميتاً ، ويروى ان ابا العباس وفد على عبد الملك فقال له هذا: انشدني مديحك مصعباً . فاستعفاه ، وقال: يا أمير المؤمنين انما رثيته بذلك لانه كان صديقي ، وقد علمت ان هواي أموي ، قال: صدقت ولكن انشدني ما قلته فانشده:

يرحم الله مصعبا فلقد مات كريماً ورام امراً جسيماً

فقال عبد الملك : اجل ! لقد مات كريماً ، ثم تمثّل:

ولكنه رام التي لا يرومها من الناس الا كل حرّ معمّم[3]

## الخصومة الفنية

وقد كانت هناك خصومات فنيّة او شخصيّة دفع الى بعضها احوال

١) الاصبهاني ١٥ : ٦١ ٢) ابن سلّام ١١٨ وابو خبيب كنية عبد الله بن الزبير
٣) الاصبهاني ١٥ : ٦٢

وظروف ومناسبات خاصة لا بد من معرفتها قبل الحكم على مذاهب هذا النزاع بين الشعراء ، فقد كان الفرزدق تميمياً وهجا قيساً ،[١] وكان جرير تميمياً ومدح قيساً.[٢] ونصح الفرزدق وهو في سجنه الى ابنه لبطة ان يمدح هشاماً ، وقال له : استعن بالقيسية ، ولا يمنعك منهم هجائي فانهم سيغضبون لك.[٣] وكذلك تهاجى عمر بن لجأ التيمي وجرير ، وكلاهما قيسي.[٤] وتقارع الراعي وجرير ، وكلاهما قيسي.[٥] وكان من دواعي بعض هذه الخصومات الفنية والشخصية ما يرجع الى رجال الدولة ومنافسة الشعراء عندهم ، ومنها ما يتعلق بالشعراء انفسهم ، لمناسبات خاصة ، او لاختلاف في ميولهم وامزجتهم ونزعاتهم الادبية والفكرية والاجتماعية ، والرواة يحدثوننا ان بشر بن مروان كان يعنى بهذه الخصومة ، فاغرى بين جرير والاخطل وحمل سراقة على جرير حتى هجاه وسمع رده واخزي على يديه ،[٦] والحّ على الاخطل في ان يحكم بين جرير والفرزدق ، فاستعفى بجهده ، فابى الّا ان يقول ، فحكم ، وردّ عليه جرير بابيات منها :

يا ذا العباية ان بشرًا قد قضى     ان لا تجوز حكومة النشوان

فقال الاخطل ابياتاً منها :

واذا جعلت اباك في ميزانهم     رجحوا وشال ابوك في الميزان

ثم استطارا في الهجاء.[٧]

ولعمر بن ابي ربيعة ابيات في هجاء ابي العباس الاعمى الشاعر الاموي الميل قد تفسر لاول وهلةٍ على انها دفاع عن آل الزبير ، وبنو مخزوم – كما هو مشهور – كانوا بوجه عام زبيرية الهوى ، وكان الحارث اخو صاحبنا عاملاً لآل الزبير ، فكان من الطبيعي ان يُظن ان عمر يدافع عن آل الزبير ، ولكن الباحث في اخبار

---

١) ابن سلّام ٨٠ والاصبهاني ٧ : ٥٠
٢) الاصبهاني ٧ : ٥٠
٣) ابن سلّام ٨٠
٤) ابن سلّام ١٠١
٥) ابن سلّام ٨٠ و١٠٤ والاصبهاني ٧ : ٥٠
٦) ابن سلّام ١٠٦–١٠٧
٧) ابن سلّام ١٠٧–١١٠

عمر مع ابي العباس يرى ان عمر كان يحبّ جارية للمذكور، وكان يراميها ببنادق الغالية ، فبلغ ذلك ابا العباس ، فقال لقائده: قفني على باب بني مخزوم ، فاذا مرّ عمر بن ابي ربيعة فضع يدي عليه ، فلما مرّ وضع يده عليه ، فاخذ بحجزته وقال:

الا من يشتري جارًا نؤوما بجارٍ لا ينام ولا ينيم
ويلبس بالنهار ثياب ناس وشطر الليل شيطان رجيم

ويقال ان بني مخزوم نهضوا اليه وامسكوا فمه وضمنوا له عن عمر ان لا يعاود ما يكره.

ولعمر فيه:

افتني ان كنت ثقفًا شاعرًا عن فتى اعوج اعمى مختلف
سيء السحنة كابٍ لونه مثل عود الخروع البالي القصف

وقال ابو العباس يردّ عليه ، وليلاحظ في كل هذه الاشعار انه ليس هناك ذكر للاحزاب السياسية وما اليها:

انت الفتى وابن الفتى واخو الفتى وسيدنا لولا خلائق اربع
نكولك في الهيجا وتفوالك الخنا وشتمك للمولى وانك تبّع (١

وكان اغراء الخلفاء او الامراء بين الشعراء داعياً لتقوية الخصومة الفنيّة وكان نتاجها كبيرًا.

وليس من اللازم ان يكون هناك عداء بين اثنين يتنازعان الشعر او يتعارضانه ، فالرواة يحدثوننا ان جميلًا وعمر كانا يتعارضان الشعر ، فاذا قال احدهما قصيدة قال صاحبه مثلها على رويّها ، ورووا انهما اجتمعا ذات يوم بالابطح فانشد جميل عمر قصيدته التي يقول فيها:

لقد فرح الواشون ان صرمت حبلي بثينة او ابدت لنا جانب البخل
يقولون مهلًا يا جميلُ وانني لأُقسم مالي عن بثينة من مهلِ

حتى اتى على آخرها ، ثم قال لعمر: يا ابا الخطاب ، هل قلت في هذا الرويّ

١) الاصبهاني ١٥: ٦٢

شيئاً ؟ قال: نعم ! قال: فانشدنيه ! فانشده قوله:

جرى ناصح بالود بيني وبينها فقربني يوم الحصاب الى قتلي

الى ان قال:

فلما اقتصرنا دونهن حديثنا وهن ضنينات بحاجة ذي الشكل
عرفن الذي نهوى فقلن ائذني لنا نطف ساعة في برد ليل وفي سهل
فقالت فلا تلبثن قلن تحدثي اتيناك وانسبن انسياب مها الرمل
وقمن وقد افهمن ذا اللب انما فعلن الذي يأتين من ذاك من اجلي

فقال جميل: هيهات يا ابا الخطاب، لا اقول والله مثل هذا سجيس الليالي، والله ما خاطب النساء مخاطبتك احد. وقام مشمراً.[1]

وقد تعارضا في ست قصائد، فقال كل منها ثلاثاً، رائية وعينية ولامية، ويقال ان عمر في الرائية والعينية اشعر من جميل، وجميل في اللامية اشعر منه؛[2] غير ان جميلاً — كما ترى من هذه الرواية المذكورة — قد اقر لعمر باللامية ايضاً. وقد روى خبر التقائهما ابن قتيبة فاشار الى انخذال جميل في اللامية، وذكر انه قال: هذا والله ما ارادته الشعراء فاخطأته وتعللت بوصف الديار.[3]

ومما يدلّ على ان بعض الشعراء ما كان ليعنى بالخصومة الّا من حيث انها فنية ما رووا عن ابن ابي ربيعة عندما عرض له الحزين الكناني وعيّره بسواد ثنيتيه وشرب الخمر في قوله:

ما بال سنيك ام ما بال كسرهما اهكذا كسرا في غير ما باس
انفحة من فتاة كنت تألفها ام نالها وسط شرب صدمة الكاس

فان عمر لم يعرض لردّ هذه التهمة، ولا تصدى لهجاء الحزين خصمه، بل قال له: اذهب ! ويلك ! فانك لا تحسن ان تقول:

ليت هنداً انجزتنا ما تعد وشفت انفسنا مما تجد
واستبدت مرةً واحدةً انما العاجز من لا يستبد[4]

١) الاصبهاني ١: ٥١
٢) الاصبهاني ١: ٥١
٣) ابن قتيبة (ش) ٣٥٠
٤) الاصبهاني ١: ٩١–٩٢

## الادب الاقليمي

وظاهرة رابعة تبدو لمن يبحث في ادب هـذا العصر الذي اتسعت فيه المملكة بحيث ضمّت اقطارًا شطّ المزار بينها واختلفت اجواؤها واختلفت البيئات فيها وتفاوتت نظم الحياة وسبلها ، سمّها ظاهرة الاقليم ، او سمّها ظاهرة الادب الاقليمي ، او سمّها اختلاف البيئات واثرها في الادب ، او سمّها ما شئت من الاسماء التي تشير الى الاقليم والبيئة، فهي بلا شك تدور عليهما وعلى ان الادب في القطر الواحد او البيئة الواحدة كان يختلف عنه في القطر الآخر او البيئة الاخرى ، وكان التفاوت بينها عظيماً .

هو ادب عربي في كل الاقطار ، ولكنه ادب حجازي في الحجاز ، وعراقي في العراق ، وشامي في الشام ، ولو كان في ذلك العصر ادب عربي في مصر لقلنا: وادب مصري في مصر. وكذلك قل في البيئات المختلفة . ونحن نعلم ان العرب في هذا العصر لم يعيشوا في قطر واحد ووسط واحد ، او في جوّ واحد وبيئة واحدة ، ولم تحط بهم في اقطارهم المختلفة ظروف واحدة ، وان تأثير هذا الدين عليهم — وان اشتركوا في اعتناقهم الاسلام واتباعهم في كثير من الاحيان سننه ووصاياه — كان في بعض البيئات مختلفاً جداً عما هو في بعض البيئات الاخرى ، ويكفي ان تدرس اثره في حياة الخوارج وادبهم وتقابله بما تجده في حياة غير الخوارج وادبهم لترى الفرق الكبير .

وهكذا فقد اختلفت الحياة في الاقطار والبيئات المختلفة ، فتلونت صور الادب بالوان شتى . فقد كانت الشام ، وكانت سلطة البيت الاموي فيها وكان فيها انصارهم ، وبلاط ملوكهم وحاشيتهم وكانت اليها هجرة عرب اليمن قبل الاسلام وبعد الاسلام .

وكانت العراق ، وكانت اليها هجرة قيس وتميم وربيعة ، وكانت فيها قوات الخوارج وبعض اتباع البيت العلوي ، ونشب النزاع وظهرت الفتن ، فكانت العراق ميدانها ، بل كانت في بعض الاحيان مبعثها ، بها تظهر ، وبها تعيش ، وبها تموت لتبعث مرةً ثانيةً متقمصة بثوب جديد .

وكانت الحجاز موطن قريش الاصلي ، وكانت مهد الدين الجديد وارض مبعثه ، بها نشأ النبي ، وفيها استقر خلفاؤه الراشدون ، وفيها ظهرت رجالات الاسلام الأول ، من قوّاد وامراء وصحابة وتابعين ، فتحوا الفتوحات واخضعوا البلاد وجمعوا الفيء ، واليها حُشد الحجيج من مختلف الاقطار ، يؤمون كعبة مكّتها ومسجد مدينتها ، ويطوفون مناها وعرفاتها ، واليها سالت الاعطيات والغنائم وتحدرت جيوش الجواري والعبيد والسراري. وقضت السياسة والظروف ان يظلّ اكثر من بقي من الزعماء الاول واولادهم في الحجاز ، زمن سلطان بني امية ، وفي الاخص زمن سلطان معاوية ، كالكثيرين من آل علي وآل الزبير وآل ابن جعفر وآل ابي بكر وآل ابي ربيعة ، وحرم اكثر هؤلاء من مناصب الدولة والاشتراك في سياسة الولايات ، وفشا بينهم الى جانب الحركة الدينية كثير من ملاهي الاقوام التي اخضعوا بلادها وسبوا كثيراً من نسائها ، فنشأ عن هذا ان عكف بعضهم على الدين ، وثار بعضهم على السلطة ، وفتح البعض الآخر باب اللهو على مصراعيه ، فلهوا وعبثوا وطربوا ومرحوا . وكان في القطر الواحد — كما ترى — قوم ثاروا وخاصموا وحاربوا حتى النهاية ، وقوم عكفوا على دينهم الجديد واقبلوا عليه يدرسون شرائعه ويتفهمون نصوصه ووصاياه ، ويتفقهون في اموره واحواله ، ويبحثون في احاديث النبي وآيات القرآن ، وانقطعوا عن السياسة والدنيا ، وقوم لم يلتفتوا الى السياسة ولا الى الدين ، وكانوا اهل غنى وثروة وجاه ، وكانوا اصحاب ميل الى اللهو ، فنشأوا نشأة ترف ورفاهية ، وقد احيطوا بجواري سباها اباؤهم ، ومغنين ومغنيات وغير ذلك من ميسرات اللهو والدعابة ، فانصرفوا اليهما وعرفوا بهما . وكان هناك من اهل الحجاز في ذلك الجيل من حُرم من كل هذه ، وانقطع في باديته ، فلم يكن يصلح للسياسة ولم يكن من اليسير عليه الوصول اليها لو كان من اهلها ، ولا هو بقريب الى امور هذا الدين الجديد ، وليست عقليته لتفهمه او لتعنى به كما تفهمه او كما تعنى به عقلية المكي او المدنيّ ، ولا هو بالذي اصابه حظّ يذكر من الفيء او من الغنائم التي احرزتها جيوش العرب ، فظل فقيراً ، وكان عليه ان يدفع الزكاة ، وان يؤدي واجبات معينة تحتم عليه اداؤها ، وهو ابعد

ما يكون عن النظـام والواجبات ، فكان يشكو هذه الحالة ويتذمر منها.[١] ومن هنا كانت حياته غير حياة الحضري ، وكانت سبل معيشته غير سبل ذلك ، وطبع ادبه بطابع خاص ، فيه في بعض الاحيان قوة وخشونة واستبسال ، وفيه في بعض الاحيان الأخرى يأس وقنوط وعذاب ورقة ولين ، وترى شعر الراعي يمثل الفريق الاول ، وشعر العذريين يمثل الفريق الثاني.

وهكذا فقد كان هناك اختلاف وتفاوت عظيمان في الحيـاة التي عاشها هؤلاء الناس في هذه الاقطار المختلفة. وكان لكل قطر نصيب خاص من الحياة الجديدة يختلف كثيراً عن نصيب القطر الآخر ، ومن هنـا نستطيع ان نفسر ما يروى في كتب الادب المختلفة عن شهرة الحجاز بالغناء واللهو والدعابـة وشهرة العراق بالخصومة والنضال السياسي ، ونزعة الشام الى السلطـة والزعامة وعدم التفاتها الى الدين ، أو نفهم ما يروى لنا مثلاً عن فقه اهل الحجاز ، ودهاء اهل العراق ، وطاعة اهل الشام.[٢]

واذاً ، فقـد كان الادب العربي في القطر الواحد غير مـا هو في القطر الآخر ، ولا نذهب في هذا الى ان اللغـة والاساوب والقواعد النحوية والبحور الشعرية لم تكن واحدة في هذه الاقطار ، ولكن الاختلاف الذي نشير اليه هو اختلاف في المؤثرات التي تأثر الشعراء بها ، وفي حظوظهم منها ، وفي الفنون التي طرقوها ، وفي الطرق التي سلكوها ، وفي الظروف التي احاطت بالبعض دون الآخر ، فصدر الشعر يمثلها ، وبكلمة ، هو اختلاف في الحيـاة نفسها وفي التعبير عنها.

### الشام وحياتها الادبية

واليك الشام مثلاً ، فقد كان وجود الخلفاء فيها داعياً لأن يرد الشعر اليها ضارباً اصحابه فيه على وتر المدح في الخلفـاء والامراء من بني اميّة ، والهجو والطعن في خصومهم. اضف الى هذا ان اكثر القبائل العربية التي كانت تحـل ديار الشام كانت يمنية ، والنهضة الادبية في هذا العصر وعصر النبي قامت على

١) ابن سلّام ١١٨–١١٩ ٢) المبرّد ١ : ١٨٣

ايدي الشماليين من العرب اكثر مما قامت على ايدي اليمنيين ، فلذلك لم تظهر هناك نهضة شعرية في دمشق الّا بعد ان استقرت بعض قبائل قيس في بلاد الشام، وظهر جيل جديد آخر العصر الاموي تأثر بالشعراء الوافدين على الشام الذين كانوا في الغالب من عدنان ، او من تغلب التي اتصلت بقبائل عدنان قبل الفتوحات ، ولا بدّ من ان نذكر هنا ما كان للاخطل التغلبي من اثر في حياة اهل الشام الادبية .

ويجب ان نلاحظ ان الشعر الذي عرفته الشام صدر دولة بني امية كان يختلف عن هذا الذي عرفته زمن الخلفاء المتأخرين بعد يزيد بن عبد الملك ، فقد كانت الشام في هذه الحقبة الأخيرة اشبه ما يكون ببغداد الامين ( مصغّرةً ) ولقد استُجلبَ اليها المغنون والمغنيات ، وفشا في بلاط امرائها شرب الخمرة ، ولنا في الوليد بن يزيد الخليفة الشاعر خير مثال .

وكان الشعر في الحقبة الاولى وافدًا كما ذكرنا على الخلفاء ، فتلون بما يتلون به شعر الوافدين على الملوك ، من صنعة وتنميق ، وفخامة في اللفظ ، وغيرها من الامور التي تناسب مثل هذه المواقف ، ووُضع في الغالب على البحور الطويلة ، شأن اكثر القصائد التي مدحت بها الملوك . ويكاد الرواة يتفقون على ان الاخطل كان امدح شعراء العصر الاموي ، ويذكرون انه كان يهذّب شعره ويتأنى في وضعه . رووا انه قال لعبد الملك: يا امير المؤمنين زعم ابن المراغة انه يبلغ مدحتك في ثلاثة ايام وقد اقمت في مدحتك « خفّ القطين فراحوا منك او بكروا » سنةً فما بلغت كلما اردت .[١] ورووا عنه في صدد المفاضلة بينه وبين جرير وبين الفرزدق انه اشدّ الثلاثة تهذيباً لشعره ، واكثرهم عدد طوال جياد .[٢] ورُوي عن الاصمعي انه قال: ان الاخطل كان يقول تسعين بيتاً ثم يختار منها ثلاثين فيطيرها .[٣]

١) الاصبهاني ٧ : ١٧٢
٢) الاصبهاني ٧ : ١٧١
٣) الاصبهاني ٧ : ١٧١

## الحياة الادبية في العراق

اما العراق فقد كانت الكثرة من سكانه العرب مضرية، ومضر اهل الشعر في الجاهلية والاسلام وكان ميدانَ الخصومة السياسيّة والادبية، فدار الشعر فيه حول الاحزاب والعصبيات السياسيّة بنوعيها من عامةٍ تتناول امور الدولة والخلفاء والاحزاب والقبائل، وخاصةٍ تدور على سياسة الوالي او العامل في الاقليم وطرق تنفيذها، والرواة يحدثوننا انه قد عرض احد الشعراء للحارث ابن ابي ربيعة، وهو عامل ابن الزبير في العراق، فقال فيه ينتقده ويطلب الى الخليفة تنحيته :

اميرَ المؤمنين جزيت خيرًا   ارحنا من قباع بني المغيرة[1]

وعرض جرير لوالٍ من ولاة عمر بن عبد العزيز كان يجمع صدقات الاعراب، فهجاه، وشكاه الى عمر، فقال :

حرمت عيالًا لا فواكه عندهم   وعند ابن سعد سكّر وزبيبُ
وقد كان ظني بابن سعد سعادة   وما الظن الّا مخطئ ومصيبُ[2]

وعارض الفرزدق زيادًا والي بني اميّة في العراق، ولم يمنعه هذا من الاتجاه الى عاملهم بالمدينة يمدحه ويهجو زيادًا.[3]

ولقد سبق لنا فذكرنا الخصومات الادبية التي كان العراق مرسحاً لها تمثل عليه بحيث اصبح مركز النشاط الادبي، وكان المربد سوق عكاظ العصر الاموي، وكان الشعر في هذا القطر قوياً عنيفاً فخماً، ويعده البعض من امتن الشعر الذي عرفته الآداب العربية وارقه.[4]

## حياة الحجاز الادبية وتعدد الوانها

وامتازت الحجاز بضروب مختلفة من الحياة، وسبل الادب التي وصفت

---

١) جرير والفرزدق ٢ : ٦٠٧   ٢) ابن عبد ربه ٣ : ٢٧٠
٣) جرير والفرزدق ٢ : ٦١٩ وابن سلام ٧٥
٤) ابن خلدون ٥٢٩ والثعالبي ١ : ٢

فيها الحياة ، فقد كان هذا القطر مهد الاسلام ومصدر قوته ، فكان منه رجال الفتوحات وصحابة النبي ، وكان هؤلاء يمثلون الارستقراطيــة العربية في ذلــك العصر ، وكانت لهم المكانة الاولى في سياسة الامــة عصر الخلفاء الراشدين. وحدثت الفتنة ، ونقلت الخلافة الى قطر آخر هو الشام ، وانتقلت دفة السياسة الى ايدي بني امية في دمشق ، فاضطربت نفوس الكثيرين من اشراف الحجاز، وتنكرت لذوي السلطان ، واستطاع معاوية بعد جهد ان يهدئ هــذه النفوس او يخضعها ؛ ثم استوى يزيد على عرش ابيه ، فعادت الفتنة ، وتحرك هؤلاء الشباب من ابناء الاشراف ، فتنكر لهم يزيد ومن تلاه من خلفاء بني اميّة ، وعاملوهم بشيء من الشدة ، حتى اذا همــدت حركتهم عاد بنو اميّة فتألفوهم بالمــال والاعطيات، ونتج عن هذا كله ان اتجهت نزعات هؤلاء الشبان اتجاهات مختلفة، فنهم من جاهــد وجدّ في خصومته للبيت الاموي ، ورام الجليــل من الامر ، فطلب الخلافة وقاسى العذاب او القتل في سبيلها ؛ ومنهم من نعى على السياسة شرّها فعكف على الدين ، وهو في ارض نشأ فيها ذلك الدين ، فاخــذ يدرسه ويبحث في شرائعه وسننه ، وكان امامه القرآن والحــديث فعني بهما درساً وشرحاً وتــدويناً ؛ ومنهم من شعر بضعفه في ان يقهر خصومه ، واشفق على نفسه ان تذهب ضحيّة طموحه ، فقبع في بلده يحيا حياةً هادئة ولكنها غنيّة بالوان اللهو والمسرّات ، وكان غنياً فانصرف الى الترف والبذخ والدعة واللين واللذة ، ولم يفت بني امية ان يصانعوا امثال هذا ، وان يغــدقوا عليهم العطايا ويوسعوا عليهم فيها ليصطنعوهم او على الاقل ليشغلوهم عنهم وعن السيــاسة ويقطعوا آمالهم منها ، فاندفع هؤلاء في لهوهم الى ابعاد متفاوتة تفاوت بيئاتهم وظروفهم الخاصة وشخصياتهم وغير ذلك ، وصدر الشعر من بعض رجال هذه الطبقة الاخيرة ممثلاً لحياة قائليه واصحابهم.

وكان اكثر هذا الشعر غزلياً ، يختلف الغزل فيه باختلاف البيئات والاوساط الخاصة والمدن والشعراء انفسهم ، ولذلك فانا نرى اباحة ومجوناً في شعر بعضهم، ودعابةً ولهواً في شعر البعض الآخر ، وعفة ويأساً في شعر آخرين.

وصارت هذه الاوساط او المدن او الاقطار تعجب بفنون خاصة من الشعر

مما يوافق امزجة اهلها واذواقهم . حدث مدنيّ انه لقي جريرًا، فقال له: يا ابا حزرة، ان شعرك رفع الى المدينة، وانا احب ان تسمعني منه شيئاً، فقال جرير: انكم يا اهل المدينة يعجبكم النسيب، وان انسب الناس المخزومي، يعني ابن ابي ربيعة[١].

وقد ادرك القدماء هذه الميزة في شعر بعض الاوساط او الاقطار او المدن فقالوا — كما ذكرنا سابقاً —: شعر حجازي لو ضغطه برد الشام لاضمحل. وقال جرير في شعر عمر اول عهده فيه — وكان يستبرده —: شعر حجازي، لو اتخذ في تموز لوجد البرد فيه[٢].

ووقف ابن عبد ربه على ابيات لاحدهم فيها غناء، فنعى على واضعي الغناء سوء اختيارهم وتركهم للشعر الحسن الذي قال فيه: هو ارق من الماء واصفى من رقة الهواء وكل مدني رقيق قد غذّي بماء العقيق[٣].

وقال عبد الله بن عباس: الشعر علم العرب وديوانها، فتعلموه، وعليكم بشعر الحجاز[٤].

وهكذا فقد اثرت البيئات والاوساط الخاصة في شعر الشعراء، وتأثرت هي بالوقت نفسه بمؤثرات طرأت عليها فصرفتها الى لون خاص من العيش. خذ مثلًا القرآن، فقد كان اثره في بعض البيئات اقوى مما هو في اخرى، وعرفت بعض الاوساط بالاندفاع مع الحياة الجديدة الاسلامية اكثر مما عرف البعض الآخر؛ فالخوارج كانوا اكثر الناس تعلقًا بالقرآن وتمسكاً بامور الدين، فظهر فيهم وفي ادبهم تأثير القرآن اكثر مما ظهر في غيرهم. وكذلك قل عن اثر مواسم الحج مثلًا، والعقيق، وغيرها، في نفوس الشعراء الذين كانوا يشهدونها. ومن هنا اختلف الشعر في هذه الاوساط الحجازية، حتى الغزلي منه فانه تلوّن بالوان شتى.

١) الاصبهاني ١:٦٢ ٢) ابن عبد ربه ٣:١٦٨
٣) ابن عبد ربه ٣:٢٦٩ ٤) ابن عبد ربه ٣:١٢٢

### الحياة في الطائف

وكان مناخ الطائف كما رأينا داعياً لان تكون البلدة مصيفاً جميلاً لهذه الطبقة الارستقراطية ، وكان هذا المصيف متزوياً عن اعين العمال والرقباء الى حدٍ ما ، فمرح به الشبان ولهوا وعبثوا ، وظهرت صورة تلك الحياة في شعر العرجي الفاسق.

### المدينة

ولم تنقطع حياة البذخ والمرح واللهو من المدينة ، وظلّت البلدة مسرحاً للمغنين والجواري ، ومفزعاً لاهل اللهو والعبث ، ففشا المجون فيها ايضاً ، اضف الى هذا الاثر الذي تركهُ في حياة اهلها وادي العقيق ومختثو العقيق وحفلات الانس واللهو والغناء والسمر فيه ، فظهر شعر المدينة ممثلًا لهذه الحياة ، وكان زعيم شعرائها الاحوص.

### مكة

اما مكة فقد عرفت فيها حياة الدعابة والعبث واللهو مقرونةً الى شيء من التحفظ والاحتياط ، وكانت فيها الكعبة ومواسم الحج ، وكانت اقرب الى حياة البادية من المدينة ، فلم يقوَ العبث فيها ولم ينتشر المجون مثل انتشاره بالمدينة ، وكان اهلها يعيّرون بالاعراب لبداوتهم[1] وصدر شعرهم وفيه رغم اباحته مسحة من العفة ، وكان زعيم شعرائها عمر بن ابي ربيعة.

### بادية الحجاز

وانقطعت بادية الحجاز عن اسباب البذخ والثروة واللهو ، وحرمت من الغنى والسعة في العيش ، ولم يكن لها حظ او مكانة في هذه الدولة الاسلامية

---

١) الطبري II : ٥٩٠ وفيه انه لما قرأ المهلب كتاب الحارث ابن ابي ربيعة ضحك ، ثم قال : « اما تظنونه يعرفني الا باخي الازد ؟ ما اهل مكة الا اعراب . » وانظر ايضاً في الطبري II : ٨٣٥ كتاب عبد الملك الى خالد بن عبدالله ، وفيه : فقبّح الله رأيك حين تبعث اخاك اعرابياً من اهل مكة على القتال ، وتدع المهلب الى جنبك يجبي الخراج.

كمدن الحجاز ، فقرن يأس اهلها الى الفقر ، ومال اكثر الشعراء فيها الى شيء من التقوى والعفة والطهر ، وعرفوا في الحب العـذري ، وصدر شعرهم يضرب على وتر الزهد والحزن ويغني انغام الغزل البريء ، وكان زعيم هؤلاء الشعراء جميـل بثينة ، غير ان هؤلاء الشعراء لم يكونوا في حياتهم كما تصفهم او تحاول ان تصفهم كتب الادب ، فقد كان منهم بل من زعمائهم من اشترك مع شعراء المدن في حياتهم ، ووصف ما يصفون ، حتى صار من اليسير على الرواة ان يخلطوا بين شعر احدهم وبين شعر الاحوص او عمر ، ولقد نسب الى عمر ابيات تنسب الى جميل .

وكان هناك في البادية نفسها شعراء لهوا بقدر ما تسمح لهم حياة البادية ان يلهوا ، ولعل يزيد بن الطثرية زعيمهم ، فشعره يمثل هذه الناحية خير تمثيل .

وكان هناك بيئات خاصة لم تتقيد بالاقليم تقيدها بنظمها ومبادئها التي سنتها لنفسها ، كالخوارج مثلاً فقد كانوا في الغالب من هؤلاء الناقمين على السلطة ، وكانوا شديدي التمسك بالـدين فتأثروا بالقرآن ، ونشأ في نفوسهم شيء من اليأس او الزهد الديني مقروناً الى قوة الايمان والاخلاص للعقيدة ، فصدر ادبهم يمثل هذه النزعات ، ولكنه لم يستطع ان يتفلت من الرقة واللين والـدعة التي وضعها القرآن . ويا ليت المجال يسمح لنا لذكر امثلة من شعر بعض هؤلاء .

## الغناء والشعر

وكانت هناك عوامل ساعدت على صبغ الادب في بعض الاقاليم او المدن او البيئات بصبغة خاصة ، كالغناء مثلاً ، فقد اثر في شعر الحجاز تأثيراً لا ينكر . والغناء ، فيما قال ابن رشيق ، حلة الشعر ، ان لم يلبسهـا طويت[1] . ويظهر ان هذا الغناء دفع الى بعض التجدد في الشعر — وبنوع خاص الغزل — فـدعا الى ان ترقق الالفاظ وتسهل ، وان يطرح هذا الغريب الوعر الذي لا يلائم مجالس الغناء ، بل انه قد دعا ان ينظم الشعراء مقطوعات خاصة له ، ينشد فيها الغزل على انه غاية يقصد اليها لا سبيل الى غرض كما كان يفعل القدماء .

---

١) ابن رشيق ١ : ١٨

وسار ابن ابي ربيعة على خطة جاراه فيها كثير من معاصريه ومدركيه وتابعيه من الشعراء ، من حيث انتاج ما يوافق مزاج هؤلاء المغنين وطباعهم واغراضهم واذواقهم ومجالس لهوهم وانسهم ، فكثر الشعر الغنائي في مدن الحجاز ، وبنوع خاص في مكة والمدينة ، وكثر المقبلون على سماعه ، وكانوا يستمدون طربهم من ناحيتين — موسيقى الشعر وموسيقى الالحان — وقد قالوا: اذا اعجزك ان تطرب القرشي فغنه بشعر عمر ابن ابي ربيعة ولحن ابن سريج ، فانك ترقصه ترقيصاً[1] . وكان المغنون يلحون على الشعراء في نظم الاشعار ، فكان من الطبيعي ان ينتج عن هذا شعر غزلي فني ، يمثل من ناحية حوادث خاصة وقعت لبعض هؤلاء الشعراء فنظموا فيها شعرهم ، ويمثل من ناحية اخرى غرض اصحابه في انه قد وضع للغناء والفنّ ليس الا . وقد اشترك في الفنّ الاخير نفر كبير من الشعراء ، كان بينهم قوم من اشهر فقهاء الحجاز ؛ ولعلّ القارئ لا يزال يذكر خبر ابن عائشة لما سأل عروة بن اذينة ان ينظم له شعراً هزجاً يغني فيه ، فنظم له :

سليمى اجمعت بينا فاين تقولها اينا

الى ان قال :

غنّين مناهنّ فكنّا ما تمنينا

فرواها ابن عائشة وضحك[2] .

وكان للخمرة ايضاً اثر في شعر بعضهم اشرنا اليه في بحثنا عن الشراب فليراجع هناك .[3]

## التفاوت في سبل الحياة واثره في الشعر

اقطار متعددة اختلفت فيها النظم والعادات ، وتفاوتت فيها سبل الحياة ، ودين جديد تفاوت العرب في نصيبهم منه ، وتفاوتوا في الاثر الذي تركه

---

١) الاصبهاني ١ : ١١٢ وابن عبد ربه ٣ : ٢٥٥
٢) الاصبهاني ٢١ : ١٦٦
٣) راجع ٧١–٧٢ من كتابنا هذا

بنفوسهم ، وثروة عظيمة تدفقت عليهم من مختلف الاقطار المغلوبة ، فاصاب البعض منهم سهمه ، وحُرم البعض الآخر ، ووظائف ومناصب في هذه الدولة الفتية تنعم بخيرها البعض واقصي عن اريكتها البعض الآخر، كل هذه اوجدت تفاوتاً كبيراً في الحياة التي عاشها العرب في ذلك العصر ، وبالتالي اوجدت تفاوتاً في الادب الذي صدر عنهم ، هذا الادب الذي مثّل الى حدّ كبير تلك الحياة ، وكان الشعر خير مرآة لهذه الحياة ولهذا التفاوت والاختلاف في سبلها .

### احتياط لا بد منه

ولسنا نرى بدًّا قبل ان نختم كلامنا من ان نقيد ملاحظاتنا هذه فنقول انه ليس من الضروري ان تؤثر هذه الظروف في القطر الواحد او المدينة الواحدة على كل الشعراء فيها ، فقد كان يمكن ان يكون هناك شعراء لا يعنون بما عني به رفاقهم في القطر الواحد او البلدة الواحدة،ويجوز ايضاً ان يقوم شاعر حجازي فينظم في مدح الخلفاء ، او يشترك بالسياسة ، ويتصدى للخصومة مع السلطة القائمة في دمشق ، او للمدافعة عنها ، ويجوز ان ينهض شاعر عراقي فينظم في الغزل على نحو ما ينظم شعراء الحجاز ، وليس من الضروري ان تكون حياته في العراق مماثلة تماماً لحياة اخيه الحجازي بحيث يصدر عنه هذا الغزل ، اذ ربما قد تصدى لذلك مشاركة لغيره من شعراء الغزل ، او معارضةً ، او تقليدًا ، او محاولةً لان يظهر انه لا يقصر في فنون اخرى من الشعر ، او لان ظروفاً خاصة احوجته في بعض الاحيان ان ينظم شعرًا في فنون لم يألفها ، وامثلة هذا كثيرة في الادب الاموي، كما ان حظ الشعراء في القطر الواحد او البلد الواحد من مرافق الحياة المختلفة لم يكن واحدًا ، فقد كان للثقافة الدينية مثلًا آثار متباينة في نفوس شعراء الحجاز ، وكان حظ بعضهم غير حظ الآخر منها .

اضف الى هذا ما كان من اتصال بين اهل هذه الاقطار ومخالطة تعدّت الحضر الى البدو ، فقربت البدوي العذري من الحضري الاباحي ، وجمعت العراقي والحجازي والشامي ، ووحّدت الى حدٍّ ما بين بعض ميولهم ، بحيث كان

يرتاح بعض اهل القطر الواحد الى ما ينشده اصحابهم في القطر الآخر.

ومهما يكن من الامر فاننا نستطيع ان نقول بوجه عام ان الحجاز غلب فيها شعر الغزل بانواعه الثلاثة الاباحي والعذري والتقليدي او الفني اذا شئت تسميته بهذا الاسم، وان هذا الغزل كان اقوى غزل عرفه الادب العربي. وكان زعيم هذا الغزل عمر ابن ابي ربيعة لا ينازعه في حمل لوائه منازع[1].

## عروبة الشعر الاموي ومتانته

ولا يفوتنا ان ندوّن هنا ان هذا الشعر الاموي، رغم كل هذه المؤثرات التي ذكرنا في الفصول السابقة، ظلّ عربياً في لفظه واساليبه، ولكنه خالف الشعر الجاهلي في اغراضه ومعانيه، بحكم هذه المؤثرات، وبحكم ما احدثه الدين الجديد في نفوس العرب. ولم يظهر التأثير الاجنبي الا بعد ان كاد ينتهي هذا العصر. وقد كان هذا الشعر من البلاغة والمتانة بحيث يحق لنا ان نقول عنه غير مغالين انه امتن شعر عرفته العصور العربية، وان هذا العصر الاموي هو اصدق عصر لتمثيل الادب العربي في اوج مجده ورقيه. قال ابن خلدون في مقدمته عند بحثه عن صناعة الشعر ووجه تعلمه وكيفية عمله: «اعلم ان لعمل الشعر واحكام صناعته شروطاً، اولها الحفظ من جنسه، اي من جنس شعر العرب، حتى تنشأ في النفس ملكة ينسج على منوالها، ويتخير المحفوظ من الحر النقي الكثير الاساليب، وهذا المحفوظ المختار اقل ما يكفي فيه شعر شاعر من الفحول الاسلاميين، مثل ابن ابي ربيعة وكثيّر وذي الرمة وجرير[2].» الخ.

وقال في فصل آخر: «ويظهر لك من هذا الفصل وما تقرر فيه سرّ آخر، وهو اعطاء السبب في ان كلام الاسلاميين من العرب اعلى طبقة في البلاغة واذواقها من كلام الجاهلية في منثورهم ومنظومهم، فانا نجد شعر حسان بن

١) انظر نكلسن ٢٣٧ وبروكلمن – الموسوعة الاسلامية – تحت ARABIA ص ٤٠٥ ولامنس (م) ٣: ٢٤١ و٢٧٠ وگب في كتابه Arabic Literature لندن ١٩٢٦ ص ٢٣ وطه حسين ٢: ١٢٧

٢) ابن خلدون ٥٢٣

ثابت وعمر بن ابي ربيعة والحطيئة وجرير والفرزدق ونصيب وغيلان ذي الرمة والاحوص وبشّار ، ثم كلام السلف من العرب في الدولــة الاموية وصدرًا من الدولة العباسية ... ارفع طبقة في البلاغة من شعر النابغة وعنترة وابن كلثوم وزهير وعلقمة بن عبدة وطرفة بن العبد.»[1]

## قيمة التاريخية

وكان هذا الشعر الاموي بالوقت نفسه مصدرًا مهماً لدرس حياة اهل ذلك الجيل لاسيا شعر الحجاز فانه قد صوّر حياة الحجازيين في مختلف الوانها، ولعل الغزليّ منه خير مصدر لدراسة حياة المرأة العربية . ولقد تنبّه ادباؤنا اليوم الى هذا.

قال الدكتور طه حسين :« اعيد مـا قلته غير مرة ان في الشعر العربي لهذا العصر كنوزًا خليقةً ان تستكشف ، وان تدرس على وجهها ، ولكن كثيرًا من الناس لا يعلمون.»[2]

وارى قبل الختام لزاماً في عنقي ان انصح الى واضعي المناهج المدرسية في مختلف الحواضر العربيـة ان يكلفوا طلبة اللغة العربية في مدارسهم درس شعر هـذا العصر الاموي لاسيا الغزلي منه واستظهار بعض هذا الغزل فليس اقوى منه على تمكين الطالب من لغته ودفعه الى حبّها.

وبعد فمن الخير الان ان نختم بحثنا هنا ، ولننتقـل الى دراسة حياة الشاعر نفسه ! وموعدنا الجزء الثاني.

١) ابن خلدون ٥٢٩ ٢) طه حسين ٢: ٩٢

# المآخذ حسب ترتيبها التاريخي


القرآن

حسان بن ثابت = ديوان حسان بن ثابت . ليدن ١٩١٠ م .

ابن ابي ربيعة (ش) = Der Diwan des ʿUmar Ibn Abi Rebiʿa. Paul Schwarz Leipzig 1901-1909 و «ق.» اصطلاحنا لاختصار «قصيدة» .

ابن ابي ربيعة (ع) = ديوان عمر بن ابي ربيعة المخزومي القرشي . شرح محمد العناني . مطبعة السعادة مصر سنة ١٣٣٠ ه .

جرير والفرزدق = The Naḳāʾid of Jarīr and al Farazdaḳ ed. A. A. Bevan Leiden 1905-1912

ابن هشام = كتاب سيرة رسول الله لعبد الملك بن هشام عن ابن اسحق . جوتنجن ١٨٦٠ م .

الازرقي = كتاب اخبار مكة . . . وما جاء فيها من الآثار لابي الوليد محمد بن عبد الله الازرقي . ليبزك ١٨٥٨ م .

ابن سعد = كتاب الطبقات الكبير لمحمد بن سعد . ليدن ١٣٢٢–١٣٣٩ ه .

ابن سلام = طبقات الشعراء لمحمد بن سلام الجمحي . ليدن ١٩١٣ م .

اليعقوبي = تاريخ ابن واضح اليعقوبي . ليدن ١٨٨٣ م .

الجاحظ (ت) = التاج في اخبار الملوك لابي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ . المطبعة الاميرية بالقاهرة ١٣٣٢ ه .

الجاحظ (ب) = البيان والتبيين للمؤلف نفسه المطبعة العلمية . مصر سنة ١٣١١–١٣١٣ ه .

البخاري = صحيح البخاري لابي عبدالله محمد البخاري . بولاق ١٢٩٦ ه .

مسلم = صحيح مسلم لمسلم بن الحجاج . دار الطباعة العامرة ١٣٢٩–١٣٣٤ ه .

ابن قتيبة (ش) = كتاب الشعر والشعراء لابي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة . ليدن ١٩٠٢م .

ابن قتيبة (م) = كتاب المعارف للمؤلف نفسه . غوتنجن ١٨٥٠ م .

البلاذري = فتوح البلدان لاحمد بن يحيى البلاذري . ليدن ١٨٦٦م .

الدينوري = كتاب الاخبار الطوال لابي حنيفة احمد بن داود الدينوري . ليدن ١٨٨٨ م .

المبرّد = الكامل لابي العباس محمد بن يزيد الازدي . ليبزك ١٨٧٤ م .

ابن خرداذبه = المسالك والممالك لعبيد الله بن خرداذبه . ليدن ١٣٠٦ ه .

الطبري = تاريخ الامم والملوك لابي جعفر محمد بن جرير الطبري . ليدن ١٨٧٩-١٩٠١ م .

الطبري (ج) = جامع البيان في تفسير القرآن للمؤلف نفسه . المطبعة الميمنية مصر ١٣٢١ ه .

ابن عبد ربه = العقد الفريد لاحمد بن محمد بن عبد ربه . المطبعة الاميرية مصر ١٢٩٣ ه .

المسعودي = كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر لابي علي بن الحسين بن علي المسعودي . باريس ١٨٦١-١٨٧٦ م .

الاصبهاني = كتاب الاغاني لابي الفرج علي بن الحسين الاصبهاني . بولاق مصر ١٢٨٥ ه . والجزء ٢١ ليدن ١٣٠٥ ه . وطبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٧-١٩٢٩ م .

القالي = الآمالي لابي علي اسمعيل بن القاسم القالي . بولاق مصر ١٣٢٤ ه .

المرزباني = الموشح لابي عبيد الله محمد المرزباني . المطبعة السلفية ١٣٤٣ ه .

ابن النديم = كتاب الفهرست لمحمد بن اسحق الوراق المعروف بابن النديم . ليبزك ١٨٧١ م .

العسكري = كتاب الصناعتين لابي هلال العسكري . مصر ١٣١٩ ه .

الثعالبي = يتيمة الدهر في محاسن اهل العصر لابي منصور عبد الملك بن محمد بن اسمعيل الثعالبي . المطبعة الحنفية دمشق ١٣٠٢ ه .

الحصري = زهر الآداب وثمر الالباب لابي اسحق الحصري القيرواني . المطبعة الرحمانية مصر ١٩٢٥ م .

ابن رشيق = العمدة في صناعة الشعر ونقده لابي علي الحسن ابن رشيق . مطبعة امين هندية مصر ١٩٢٥ م .

البكري = معجم ما استعجم لعبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن عمر البكري . جوتنجن ١٨٧٦-١٨٧٧ م .

التبريزي = شرح ديوان الحماسة لابي زكريا يحيى بن علي الخطيب . مصر ١٢٩٦ ه .

القفطي = تاريخ الحكماء وهو مختصر الزوزني من كتاب اخبار العلماء باخبار الحكماء لجمال الدين ابي الحسن علي بن يوسف القفطي . ليبسك ١٣٢٠ ه .

ياقوت = معجم البلدان للشيخ شهاب الدين ياقوت بن عبدالله الحموي الرومي . ليبزك ١٨٦٦-١٨٧٠ م .

ابن الاثير = الكامل في التاريخ لابي الحسن عز الدين المعروف بابن الاثير . المطبعة العامرة مصر ١٢٩٠ ه .

ابن ابي حديد = شرح نهج البلاغة لعز الدين المدائني الشهير بابن ابي حديد . مصر ١٣٢٩ ه .

ابن خلكان = وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان لشمس الدين احمد بن محمد بن خلكان . مصر ١٢٧٥ هـ.

البيضاوي = انوار التنزيل واسرار التأويل للقاضي الامام ناصر الدين ابي سعد عبد الله بن عمر البيضاوي . اوربة ١٨٤٨ م.

النووي = تهذيب الاسماء لابي زكريا يحيى النووي . غوتنجن ١٨٤٢-١٨٤٧ م.

ابن الطقطقى = كتاب الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية لمحمد بن علي بن طباطبا . غريفزولد ١٨٥٨ م.

النويري = نهاية الارب في فنون الادب لشهاب الدين احمد بن عبدالوهاب النويري. مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٣-١٩٣٣ م.

ابو الفداء = المختصر في اخبار البشر للملك المؤيد عماد الدين ابي الفداء . دار الطباعة الشاهانية القسطنطينية ١٢٨٦ هـ.

العمري = مسالك الابصار في ممالك الامصار لشهاب الدين ابن فضل الله العمري . مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٤ م.

ابن خلدون = المقدمة لكتاب العبر وديوان المبتدا والخبر لعبد الرحمن ابن خلدون . بيروت ١٨٨٦ م.

الدّميري = حياة الحيوان الكبرى للشيخ كمال الدين الدّميري . المطبعة الميمنيّة القاهرة ١٣٠٥ هـ.

الابشيهي = المستطرف في كل فن مستظرف للشيخ شهاب الدين احمد الابشيهي . المطبعة العامرة العثمانية مصر ١٣٠٦ هـ.

العيني = المقاصد النحوية في شرح شواهد شروح الالفية للامام بدرالدين ابي محمد محمود العيني . بولاق ١٢٩٩ هـ. على هامش خزانة الادب .

السيوطي = تاريخ الخلفاء للامام جلال الدين السيوطي . المطبعة الميمنية مصر ١٣٠٥ هـ.

السيوطي (ح) = حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة للمؤلف نفسه . مطبعة الموسوعات مصر ١٣٢١ هـ.

السيوطي (ش) = شرح شواهد المغني للمؤلف نفسه . المطبعة البهية مصر ١٣٢٢ هـ.

البغدادي = خزانة الادب ولب لباب لسان العرب للشيخ عبد القادر بن عمر البغدادي . بولاق مصر ١٢٩٩ هـ.

البيتي = مواسم الادب ومآثر العجم والعرب للسيد جعفر بن السيد محمد البيتي العلوي . مطبعة السعادة مصر ١٣٢٦ هـ.

بركهارت = Travels in Arabia by J. L. Burckhardt. London 1829

ممسون = The Provinces of the Roman Empire by Theodor Mommsen New-York. 1887.

لامنس (م) = Etudes sur le règne du Calife Omaiyade Moʿawia 1er par le P. Henri Lammens. Beyrouth 1908

لامنس = مقالاته في الموسوعة الاسلامية تحت ʿAkīk و Mecca و Ta'if

مورتز = مقالته عن الخط العربي في الموسوعة الاسلامية تحت ARABIA

بروكلمن = مقالته عن الادب العربي في الموسوعة الاسلامية تحت ARABIA

بُول = مقالته في الموسوعة الاسلامية تحت Al-Medina

كرد علي = رسائل البلغاء عني بجمعها محمد كرد علي. طبع مصر ١٩١٣ م.

زيدان (ا) = تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان. مطبعة الهلال ١٩١١-١٩١٤م.

زيدان (ت) = تاريخ التمدن الاسلامي للمؤلف نفسه. مطبعة الهلال مصر ١٩١٩ م.

فلبي = The Heart of Arabia by St. John Bridger Philby. London 1922

نكلسن = A Literary History of the Arabs by Reynold A. Nicholson. London 1923

طه حسين = حديث الاربعاء للدكتور طه حسين. مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٥-١٩٢٦ م.

احمد امين = فجر الاسلام لاحمد امين. مطبعة الاعتماد مصر ١٩٢٨ م.

جبّور = ابن عبدربه وعقده لجبرائيل جبور. المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩٣٣م.

زكي مبارك = النثر الفني في القرن الرابع للدكتور زكي مبارك. مطبعة دار الكتب بمصر ١٩٣٤م.

# فهرس عام (*)



*) (ق) اختصار قبيلة و (م) اختصار موضع.

## تصحيح خطأ

| | | | | الخطأ | الصواب |
|---|---|---|---|---|---|
| ص | ١٦ | س | ٢٤ | ١:٦٨ | ١:٧٦ |
| ″ | ١٣٣ | ″ | ٢٤ | مورتر | مورتز |
| ″ | ١٤٦ | ″ | ٧ | لامتكم | لاثتكم |
| ″ | ١٥٣ | ″ | ١٩ | وعقله | وعقته |
| ″ | ١٧٣ | ″ | ١٣ | الكتابِ | الكتابَ |
| ″ | ١٧٦ | ″ | ١٣ | فكان | فكانوا |

# FOREWORD

The recommendations of Ṭaha Ḥusayn both in his "Ḥadith al-Arbaʿāʾ" and in private conversation have urged upon the author the need for a serious study of the life and times of ʿUmar ibn abī Rabīʿah. To ʿUmar belongs the palm, not only among Hijaz poets, as Reynold Nicholson aptly puts it, but also among all love poets of the Umayyad period. The work of Paul Schwarz on the text of ʿUmar has made the task easier. From the point of view of textual criticism hardly any other Arab poet of the early days has received as much scientific attention as is given in the « Der Diwan des ʿUmar Ibn Abi Rebiʿa » of Schwarz.

The present study on the age of ʿUmar is the first of three volumes dealing with his age, life, and works, respectively. It is hoped that the other two volumes will appear in the course of the next two years. For fuller particulars regarding methods of work and difficulties encountered, as well as personal obligations, see the Arabic introduction.

JIBRAʾĪL S. JABBŪR

*American University of Beirut*
*May 8, 1935*

# ‘UMAR IBN ABĪ RABĪ‘AH

## HIS AGE, LIFE, AND WORKS

---

VOLUME ONE

## THE AGE OF IBN ABĪ RABĪ‘AH

BY

JIBRA’ĪL S. JABBŪR, M. A.

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT

---

PRINTED AT THE CATHOLIC PRESS, BEIRUT — 1935

# AMERICAN
# UNIVERSITY OF BEIRUT

---

PUBLICATIONS

OF

THE FACULTY OF ARTS AND SCIENCES

ORIENTAL SERIES No. 7

## ORIENTAL SERIES

Corpus of Arabic Documents Relating to the History of Syria under Mehmet Ali Pasha, by Asad J. Rustum, M.A., Ph. D. Vol. I. 1930. . . . . . . . No. 1

Corpus of Arabic Documents....., Vol. II, 1931 . . . No. 2

Corpus of Arabic Documents....., Vol. V, 1933 . . . No. 3

Umarā᾿ Ghassān, being an Arabic translation of Th. Noeldeke's "Die Ghassānischen Fuersten aus dem Hause Gafna's", by Pendali Jousé, Litt. D. and Costi K. Zurayk, M.A., Ph. D. 1933 . . . . . No. 4

Corpus of Arabic Documents....., Vol. III-IV. 1934 . No. 5

The Yazīdis Past and Present, by Amir Ismāʿīl Chol edited by Costi K. Zurayk, M.A., Ph. D. 1934. . . No. 6

# ʻUMAR IBN ABĪ RABĪʻAH

HIS AGE, LIFE, AND WORKS



VOLUME ONE

## THE AGE OF IBN ABĪ RABĪʻAH

BY

JIBRA'ĪL S. JABBŪR, M. A.

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT

PRINTED AT THE CATHOLIC PRESS, BEIRUT — 1935